الترك في مؤلفات الجاحظ

ومكانتهم في التاريخ الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري

تأليف
زكريّا كتابجي

دار الثقافة
بيروت - لبنان

اطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه من القسم العربي بجامعة كراتشي (الباكستان) باشراف الدكتور السيد محمد يوسف استاذ اللغة العربية بالجامعة .

وقرأه قراءة ضبط واصلاح الى آخره وأنهاه مطالعة عبد العزيز الميمني بهادر آباد كراتشي يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٨٧ الموافق ٢٥ أبريل سنة ١٩٦٧ داعياً لصاحبه بالنجاح والفلاح .

مقدّمة

تاريخ الاسلام ليس تاريخ قوم او شعبٍ واحد إنما هو تاريخ أقوامٍ وشعوبٍ مختلفة دخلت في حظيرة الاسلام في عصور مختلفة وحملت لواء الاسلام الواحد تلو الآخر ، كلما ضعف قوم عن خدمة الاسلام استبدل الله به قوماً آخر .

لقد كان للعرب فضل السبق الى خدمة الاسلام ثم اشتركت معهم الفرس في الحكومة والجيش الى ان أصبحوا هم العنصر الغالب في توجيه أمور الدولة ثم كان دور الاتراك .

والحقيقة تقدمت الاتراك لخدمة الاسلام منذ ان وصلت الموجة الأولى للفتح الاسلامي الى موطنهم الا أنهم بقوا زمناً طويلاً مستخدمين فقط بدون ان يكون لهم نصيب في الإدارة وتوجيه السياسة .

لم يكن ظهور الاتراك في الاسلام طفرة بل ظهروا شيئاً فشيئاً وقد كان أسيادهم من العرب والفرس حريصين على استخدامهم لبطولتهم ووفائهم الا أنهم كانوا في الوقت نفسه حذرين خائفين من ان يكون لهم أية سلطة في أمور الدولة الى ان جاء عهد المعتصم ودفعته الحوادث الى الاستعانة بالاتراك فاستقدم كثيراً منهم الى حاضرة ملكه وألّف جيشاً من هؤلاء لمجابهة الخطر الذي كان يهدد كيان دولته .

لقد نهض في العصر العباسي علماء كثيرون دوّنوا ملاحظاتهم عن الأقوام والشعوب وسجّلوا خدماتها للاسلام الا ان الجاحظ هو أول من انتهز الفرصة

للكشف عن مكانة الاتراك في المجتمع الاسلامي ولذلك جعلنا مؤلفات الجاحظ أساساً لبحثنا هذا ثم مددنا بصرنا الى الوراء لندرس تاريخ الأدوار الماضية في ضوء الحقائق التي كشف الجاحظ القناع عنها وهكذا اتسع نطاق بحثنا بحيث شمل « تاريخ الاتراك ومكانتهم في المجتمع العباسي – خاصة في عاصمة الخلافة – من الناحية السياسية والاجتماعية منذ أن ظهروا في طور التاريخ الى أواخر أيام المهتدي من الخلفاء العباسيين » .

وما اكتفينا بمؤلفات الجاحظ وبعصره بل حاولنا التعريف بقدامى الاتراك وتوضيح بعض المسائل التي تسهل دراسة هذا الموضوع مثل الموطن الأصلي للشعب التركي وكلمة الترك وأصل الاتراك وقبائلهم. ثم تطرقنا الى دخول الاتراك في طور التاريخ وبيّنّا بغاية الايجاز دُولهم في آسيا الوسطى من القرون الأولى الى عصر الاسلام . وتكلمنا عن الصراع بين العرب والترك الذي وجه التاريخ وأثّر في شئون العالم السياسي كلها . وفي أثناء ذلك ، المعنا بالعلاقات الأولى بين العرب والترك ووضّحنا تصور الترك عند العرب وبسطنا الكلام في فتح ما وراء النهر بأيدي مجاهدي العرب وحللنا سيرة ولاتهم فيما وراء النهر حتى انتهينا الى عصر العباسيين .

ثم فتحنا جزءاً جديداً وهو « الاتراك في الخلافة الاسلامية » وفي هذا الجزء بحثنا في الاتراك في البلدان الاسلامية من أوائل الاسلام الى آخر الأمويين ، الى عهد المأمون من الخلفاء العباسيين . ومن المعلوم انه لما مات المأمون ارتقى العرش أخوه المعتصم . وبالمعتصم بدأ دورٌ جديدٌ في تاريخ الاسلام . فانه – لعدم ثقته بالعرب والفرس – استقدم الاتراك من المناطق الداخلية فيما وراء النهر الى عاصمة ملكه . وهؤلاء الاتراك لعبوا دوراً هاماً في الدولة العباسية بعد ان تمكنت سلطتهم في الجيش والإدارة وخدموا خدمة كبيرة لا ينكر قدرها في اخماد الفتن والتنكيل بالثوار مثل بابك الخرمي واعادة الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي والقضاء على البيزنطيين . وفي هذا الجزء حاولنا ان نبيّن العوامل التي

دفعت المعتصم والخلفاء الذين جاؤا بعده الى الاستعانة بالاتراك وجلبهم الى دار الخلافة وشرحنا مناهج تعليمهم وتربيتهم وعيشتهم في بغداد وسامرا الى عهد المتوكل .

وفي المدة التي سبقت عهد المتوكل كان الاتراك قد كثر عددهم وقويت شوكتهم وكثير منهم تولوا المناصب العالية في الدولة واخذوا زمام الجيش بأيديهم مثل الأفشين واشناس ووصيف وبغا وغيرهم ، الا ان المتوكل لما آلت إليه الخلافة لم يلتفت الى الاتراك بل عاملهم بقسوة حتى فقَد صداقتهم وفتح الطريق بيده للاضطرابات والقلاقل التي انذرت باضمحلال الدولة العباسية . ونحن بذلنا جهودنا لنتتبع التطور في مكانة الاتراك في المجتمع العباسي وعلاقاتهم مع الخلفاء والوزراء من عهد المتوكل الى أن جاء المهتدي الذي قد مات شيخنا الجاحظ في عهده .

وفي الجزء الثالث انتقلنا الى الكلام عن الجاحظ الذي شهد المشاهد كلها وحاولنا تحليل حياته مع أسياده من الاتراك وبينا علاقاته بأبي يعقوب الخريمي وابراهيم بن العباس الصولي خصوصاً بالفتح بن خاقان الذي قدم إليه عدة من كتبه . ووقفنا عند كتابه في مناقب الترك وشرحنا أسباب تأليفه واقتبسنا فضائل الاتراك منه ثم وجّهنا نظرنا الى الروايات التي جاء بها الجاحظ متعلقة ببلاد التركستان وميّزنا أيضاً رجال الاتراك الذين أثروا تأثيراً بالغاً في سير حياته . وهكذا انتهينا من هذا الكتاب .

وبعد هذه المقدمة عسى ان يسنح للقارىء سؤال ؛ لم اخترنا هذا الموضوع ؟ نعم ! درسنا الجاحظ وحياته – وهي قرن كامل – وطالعنا أيضاً الكتب التي تكشف لنا النواحي المختلفة لحياته الزاخرة بالاعمال الجليلة وهي التي ألفها الكتاب المعجبون به الا ان هؤلاء أهملوا ناحية من أهم نواحي الجاحظ؛ الا وهي الاتراك في حياته ومؤلفاته .

وغني عن القول ان الجاحظ كان من المتحمسين الأولين لجلب الاتراك من ما

وراء النهر وإقامتهم ركناً قويّاً من أركان جنود الخلافة . ومن أجل ذلك كتب الجاحظ رسالته بمناسبة قدوم الاتراك الى بغداد وخلـّفها وثيقة تاريخية حيث انه لا يمكن غض النظر عنها للذين يهتمون بدراسة الترك في عهد المعتصم ودوّن الجاحظ في تلك الرسالة مناقب الاتراك « من أحاديث رواها ووعاها وأمورٍ رآها وشاهدها وفضائل تلقفهـا من أفواه الرجـال وسمعها[1] » من البطولة والنجدة والشجاعة التي تعدّ أساساً للجنديـة . ولم يكتفِ الجاحظ بتأليف رسالته المستقلة عن الاتراك بل حدث عنهم في المواضع المختلفة من مؤلفاته مثل كتاب الحيوان ، والبيان والتبيين وكتاب الرد على النصارى والتاج في اخلاق الملوك وما الى ذلك من مخلفاته .

رغم وضوح هذه الحقيقة لم يكتف بعض المؤلفين المحدثين مثل أحمد أمين[2] بأن لا ينصفوا الاتراك بل اتهموا الجاحظ بالتملـّق والرياء كأنه ارتكب ذنباً عظيماً بوضع رسالته في مناقب الترك لذلك كرّس هؤلاء المؤلفون قلمهم ومكانتهم العلمية لاعلاء شأن العصبية فهم يرون الحقائق التاريخية بمنظار القومية ويعلـّقون على الحوادث التي أبقت أثراً عميقاً في تاريخ الاسلام متأثرين بالتيارات السائدة في الأوضاع الحالية[3] .

ولا يسعنا في هذا الجزء ان نناقش هؤلاء المؤلفين المدفوعين بالنزعة القومية الى تغيير الحقائق ونسبة رجال التاريخ الى الفرس او العرب مـع كونهم من الاتراك او من الأمم الأخرى لغرض سياسي او ميل شخصي . فمثلاً ؛ الفتح بن خاقان من ألمع وزراء المتوكل ومن أعظم رجال الدولة ، بينه وبين الجاحظ صلة

---

(١) راجع : فضائل الاتراك ص ٢٩/١ .
(٢) انظر بالتفصيل الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٣) راجع : الرسالة – مجلة اسبوعية عربية تصدر في مصر – حيث تجد سلسلة من المقالات التي كتبها الدكتور السيد محمد يوسف خاصة في العدد : ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨٥٠ ، ٨٥٦ ، ٧٩١ ، ٩٣٤ ، تحت عنوان « خواطر سياسية وأدبية » ، فانها تكفيك لابطال هذه الدعاوى السقيمة للمؤلف .

قوية لا يقدر قدرها ، حققنا حسبه ونسبه بغض النظر عما اذا كان من العرب او الفرس او من رجال الاتراك الذين نبغوا في الدولة العباسية بعد المعتصم . فلم نجد مجالاً للشك في انـه تـُركي ، وأصله من اتراك مـا وراء النهر الذين جاؤوا بتشجيع الولاة الى حاضرة الخلافة ، ثم هو من أبنـاء ملوك الاتراك كالافشين وغيره . رغم وضوح هذه الحقيقة في المصادر الأولى يقول مؤلف الاعلام فيه[1] « الفتح بن خاقان بن احمد بن غرطوج ابو محمد : أديب شاعر فصيح كان في نهاية الفطنة والذكاء فارسي الأصل (كذا) من أبناء الملوك اتخذه المتوكل العباسي أخاً له ... الخ» ، ويقول الحموي في معجمه[2] : « الفتح بن خاقان بن غرطوج التركي (انتبه) أبو محمد ؛ وكان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب وكان من اولاد الملوك واتخذه المتوكل أخاً له ... الخ » فأنت ترى من هذا ان مؤلف الاعلام كأنه نقل هذه العبارة بالتقديم والتأخير من معجم الأدباء وأسقط الكلمة التي تدل على انه «تركي» وجاء بعبارة جديدة وزاد فيها انه « فارسي الأصل » .

هكذا نرى كثيراً من المؤلفين المحدثين يغيّرون الحقائق التاريخية ويلوّنونها بالصبغة القومية ويستعملون قلمهم لاسقاط الناس عن شأنهم . فخذ مثلاً احمد امين وهو يقول في كتابه[3] : « وفي أيامه – اي الواثق الخليفة العباسي – نكل قوّاد الاتراك بكثير من الاعراب في مواضع مختلفة من جزيرة العرب فمرة حول المدينة ومرة باليمامة وكان على رأس الجيش بغا الكبير التركي . واحتقر الاعراب أول أمرهم هؤلاء الترك وقالوا لمن استنجد بهم : ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لزينك العبر » ويأسف احمد أمين فيقول « ولكن هؤلاء العبيد والعلوج – أي الترك – انتصروا عليهم وكان بغا يحضر الواحد تلو الواحد من أسرى بني نمير ويضربه ما بين الأربعمائة الى الخمسمائة وأقل من ذلك وأكثر ولهـذه الحادثة وأمثالها أثر في ضعف نفسية العرب أمام الترك » .

---

(١) راجع الاعلام للزركلي ٣٣١/٥ .
(٢) راجع معجم الأدباء لياقوت ١١٧/٦ .
(٣) راجع : ظهر الاسلام ٨/١ .

هذا مع ان الطبري يفصل لنا الواقعة كما يلي ؛ ان بني سليم وغيرهم من البدو عاثوا في طريق الحجاز فنهبوا الاسواق وامتد أذاهم الى كثيرٍ من الناس وقطعوا الطريق واوقعوا بجند والي المدينـة – المنورة – فأرسل إليهم الواثق جيشاً بقيادة بغا الكبير فقتل منهم نحو خمسين رجلا وأسر مثلهم وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . ثم عاد بغا الى « سامرّا » بعد ان أقرّ الأمن في الجزيرة الشمالية[١] .

ويقول اليعقوبي – المؤرخ الشهير في عهد العباسيين – في نفس الحادثـة : « وكانت بطون قيس قد عاثت في طريق الحجاز وقطعوا الطريق حتى تخلف الناس عن الحج ونصبوا رجلاً من سليم وسلموا عليه بالخلافة ! فوجه الواثق بغا الكبير وأمر ان يقتل كل من وجده من الاعراب ! »[٢] وليس غرضنا من ايراد ما قاله أحمد أمين في الحادثة التي فصلها الطبري واليعقوبي الا المقارنة والوصول الى الحقيقة . فأنت ترى من هذا كيف روى المؤلف الحادثة وعلّق عليها حسب هواه .

نعم أدّب قوّاد الأتراك كثيراً من الاعراب في الجزيرة حيث شقوا عصا الطاعة لأمير المؤمنين . أو ليس من حقنا ان نسأل لم نكّل قواد العرب بكثير من الاعراب في مواضع مختلفـة من جزيرة العرب ؟ او لم يقض الحجاج بجيش كثيف على العرب فمرة حول الطائف ومرة بالمدينة حتى سار الى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق ؟ او لم يخطب الحجاج حين ولاه عبد الملك العراق خطبته البتراء المشهورة في التاريخ والأدب وكلها استهتار بأهل العراق وتحقير لهم لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بني أميّة ؟ او لم يقل الحجاج : « يا أهل العراق! يا أهل الشقاق والنقاق ومساوىء الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء[٣] ... الخ » .

(١) راجع الطبري ١١/٢٣١ .
(٢) راجع : اليعقوبي ٢/٤٨٠ .
(٣) راجع : البيان ٢/١٣٧ .

فالآن نسأل احمد امين ايهما اشد اثراً في ضعف نفسية العـرب أتأديب قوّاد الاتراك للعرب ؟ ام تحقير قواد العرب للعرب ؟ صدق الاستاذ فؤاد كوبرولو –العالم التركي[١]– اذ قال: واما جعل التاريخ شاهد زور في سبيل المنافع السياسية وللدفاع عن الآراء المغرضة فانه عمل مؤلم حقـاً وغير مجدٍ للعلم وللكرامة الانسانية .

نعم ايها القارىء اخترنا هذا الموضوع ولعله موضوع بِكر حققناه لأول مرة من الناحيتين الادبية والتاريخية وبيّنـا الوقائع التاريخية كما وجدناها في مصادرها الاولى بدون اي غرض شخصي وتعصب قومي . لان التاريخ بمعناه الصحيح كما جاء في مقدمة تاريخ البابليين وشريعة حمورابي دراسة للحياة البشرية وما انتهت اليه مظاهر فعاليتهـا من وقائع وتجارب واحداث ونتائج ومعرفة الاسباب التي ادت اليها ومـا هي غايتها واهميتها لا بالنسبة للماضي والحاضر فحسب بل بالنسبة للمستقبل[٢] .

ودراستنا هذه ليست لتمجيد الاشخاص ولا لبيان محاسن الامم ومساوىء الشعوب ولا لسرد الوقائع الحربية من فتوحات وقتل ونهب وغيرهـا ولا لذكر الانتصارات والانكسارات ونتائجها بل اردنا ان نكشف القنـاع عن حقائق التاريخ ولذلك جمعنا الوثائق التاريخية مرفقة بأقوال الثقات من كبـار المؤلفين وذكرنا الحوادث وحللناها بقدر وسعنـا على منهج علمي بعيدين عن اي غرض لاحق او حكم سابق حتى نصور تصويراً صادقاً دور الاتراك في عهد العباسيين .

وفي الختام سأذكر ما قاله استاذي المحترم في اثنـاء مذاكرتنا بشأن هذه الدراسة .. ان المؤرخين والكتاب الى وقتنا هذا لا يزالون يغمطون الترك حقها في نقد صنيعها بعين الانصاف وابراز فضلها بروح النزاهة من غير تحيز وتعصب لها او عليها وانما مثل هؤلاء المؤرخين والكتـاب كمثل الذي يقول عنه الجاحظ

(١) راجع : الحضارة الاسلامية ص ٢٩ .
(٢) المجمع العلمي العربي الجزء الأول المجلد الاربعون ١٣٧ .

انه ذكر للوزير الفتح بن خاقان « جملاً من مفاخر هذه الاجناس وجمهرة من مناقب هذه الاصناف وانه جمع ذلك وفصله واجمله وفسّره وألغى ذكر الاتراك » ، فاتما بعثنا على هذا الموضوع ما بعث الجاحظ على تأليف رسالته وغرضنا هو وضع الاتراك في محلهم بجانب سائر الشعوب وتركيز الاضواء المستمدة من الادب والتواريخ على الدور الذي لعبوه في معركة الحياة بجميع تواحيها المتشعبة ايام بلغت الخلافة العباسية ذروتها في منتصف القرن الثالث الهجري .

الجزء الأوّل

تاريخ الاتراك
من القرون الاولى الى عهد
المعتصم من الخلفاء العباسيين

الفصل الاول

تاريخ الاتراك من القرون الأولى
الى عصر الاسلام

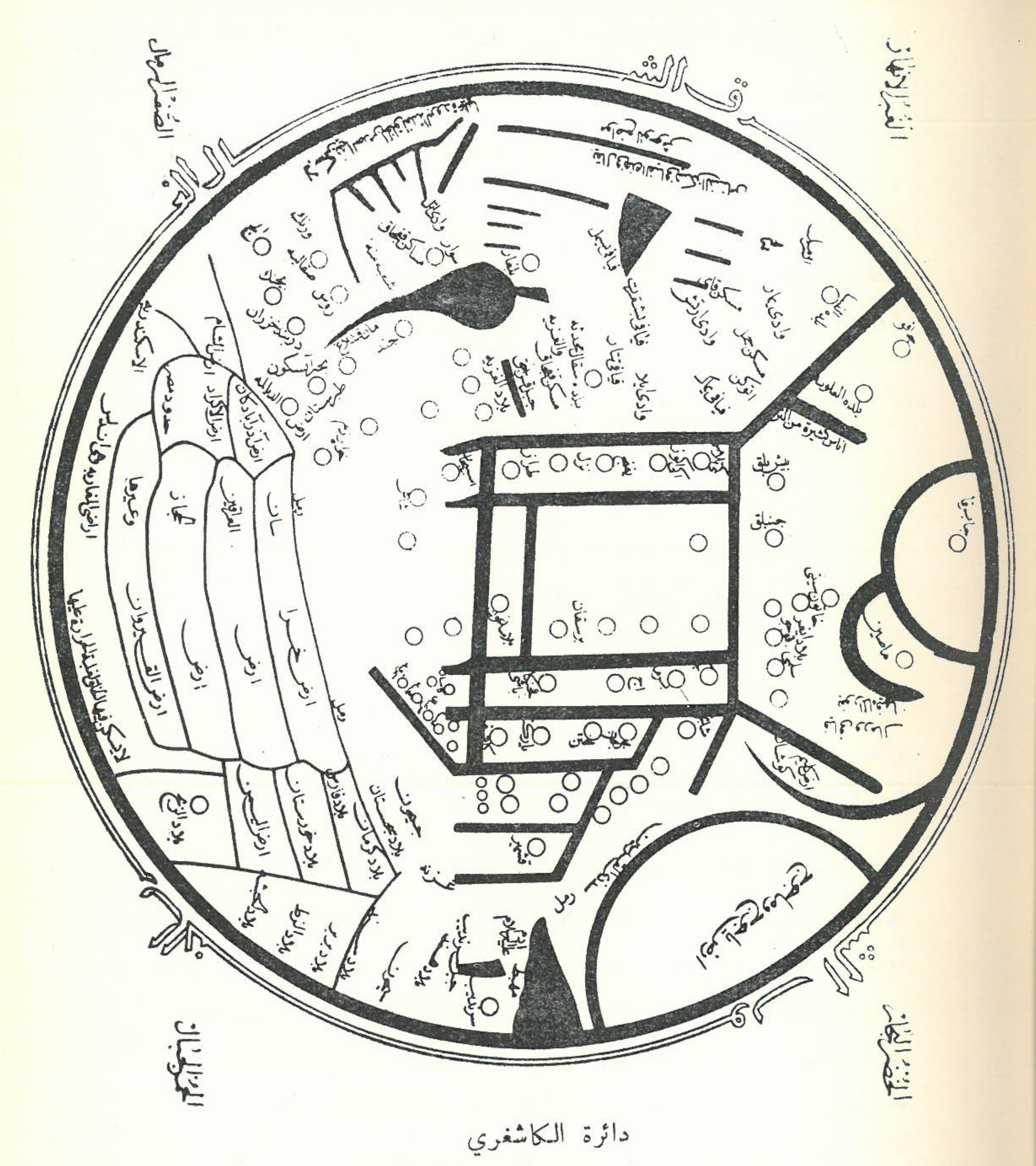
الباب الأول

توضيح بعض المسائل في هذا الموضوع

الموطن الأصلي للشعب التركي

لا شك ان الأتراك أمة قديمة من أقدم الأمم ، ظهرت في آسيا الوسطى ولعبت دوراً هاماً في القارات القديمة أعني بها آسيا واوربا وافريقية فالاتراك كان لهم تأثير قوي في الأمم والشعوب التي دخلت تحت نفوذهم وسيطرتهم من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية كما انهم تأثروا بجد وإخلاص بالتيارات الدينية والثقافية التي وصلتهم من الخارج .

أما الموطن الأصلي للأتراك فهو آسيا الوسطى باتفاق الباحثين وها نحن نورد هنا بعض الروايات القديمة التي وصلت إلينا في هذا الصدد ؛ جاء في الاسطورة



دائرة الكاشغري

Aleaddin Kral Basimevi ديوان لغات الترك

انقره ١٩٤١

القومية التركية[١] « وجدّ هـذا الشعب أعني الترك طاف في الشرق كله حتى انحدر الى مكان وجده انزه بقاع الأرض وأطيبها سكناً واسم هذا المكان « Isiq Göl بحيرة ايسيق » ورأى فيها بحيرة مليحة ومنابع متدفقة وأشجاراً ملتفة ومراعي واسعة وما حولها جبال شامخات راسيات . ودعا الله أن يمكّنه من الاستيطان هناك فاستجاب الله دعوته، ودار الزمن حتى كثر الاتراك فيها » . كذلك يقول مؤلف جامع التواريخ[٢] « وحيث ان الاقوام الموسومين باسم الترك مقامهم وسكنهم في البلاد البعيدة التي طولهـا وعرضها من ابتداء طرف ماء جيحون وسيحون الى انتهاء حدود بلاد الشرق وانتهـاء صحراء القبجاق الى غاية نواحي جورجية والخطا وفي تلك المواضع هم يسكنون الجبال والوهاد والآجام ولم يعتادوا السكنى في القرى والمدن» . ويبين الكاشغري في كتابه وهو من أقدم الكتب مساحة بلاد الترك بقوله « فجل بلاد الترك من لدن الروم الى ماصين خمسون ألف فرسخ عرضاً . فجملة ذلك يكون ثمانية آلاف فرسخ . فاني قد بينت كل ذلـك في الدائرة التي هي شكل الأرض ليعرف ذلك »[٣] ، والصورة المرفقة للدائرة التي ذكرها الكاشغري تعطي لنا فكرة واضحة عن موطنهم الأصلي . وقد صرح الاستاذ بروكلمان بنـاء على هـذه الروايات التي نقلناها آنفاً بان الموطن الأصلي للاتراك هو جبال تيان شان وما حولها « لأن الاتراك دخلوا في طور التاريخ بعد ان شرعوا في الاندفاع من جبال تيان شان الى بوادي آسيا الوسطى[٤] » .

اذاً يتضح لنا ان الموطن الأصلي للشعب التركي في آسيا الوسطى هو شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الحمالايا ومن الجنوب الغربي هضبة البامير ومن

(١) Türkili (Türkistan) ve Yakin Tarihi, A. Z. V. Togan Cild: 2 sah. 7.

(٢) جامع التواريخ لرشيد الدين ج ١ : ص ٢١٢ .

(٣) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ٢ ص ٣١ .

(٤) راجع تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ٢ : ص ١٠٩ .

الغرب جبال تيان شان ومن الشمال جبـال الألتاي ويابلونوي وستانوفوي ومن الشرق جبال كنجان وكوكنور . والأراضي المحصورة بين هذه الحدود حوالي ستة ملايين كيلومتراً مربعاً بما فيها من الجبال والهضبات الجعدة والمنخفضات . وقد احتل الاتراك هذه الأراضي بعدما كثرت أجناسهم وبطونهم وأقاموا دولتهم . وكثير منهم نزحوا سيولاً متدفقة باقتضاء الطبيعة وتغير الاقليم حتى انتشروا في أقطار الأرض في القارات القديمة وأقاموا في بعض الأحيان دولاً مستقلة ذات شوكة وعظمة في البلدان المختلفة على أساس الارستقراطية العسكرية .

ظهور كلمة الترك وشمولها على الاقوام التركية

بينا الموطن الأصلي للشعب التركي والآن سنتكلم عن كلمة الترك وظهورها وشمولها للاقوام التركية عامة .

من الصعب جداً ان نجد كلمة الترك في المصادر القديمة التي وصلت إلينا عن الصينيين والفرس وغيرهم من الأمم المجاورين . ومع ذلك فقد ذكر الصينيون والفرس هؤلاء الاقوام بكلمات أخرى وملأوا كتبهم بأخبارهم بسبب حروبهم الباسلة التي استمرت بينهم وبين جيرانهم قروناً .

ويسعنا ان نقول ؛ ان الصينيين كانوا يعرفون الاتراك قبل كتابة نقوش اورخون بزمن بعيد. وقد ورد ذكرهم في المصادر الصينية باسم «هيان ــ يو» وهو أول اسم سموهم به . ثم سموهم بعد زمان باسم « چينك ــ هان » وفي زمن سلالة خان من ملوك الصين سموهم «هيونغ ــ نو » قيل انه بمعنى وحوش الجبال . ونحن نصادف أيضاً في المصادر الصينية اسماً آخر وهو « كيان ــ نو » ولكن أوسعهم مدلولاً وأقربهم تلفظاً «تو ــ كيو Tou-Kiw »وقد ذكرت المصادر الصينية الاتراك غالباً بهذا الاسم . ولعله محرف عن كلمة الترك لعدم وجود حرف الراء في لغتهم

وعسر التلفظ بها عندهم(١). اما كلمة «توركوا Turk-oi» التي نصادفها في مصادر البيزنطيين فلا شك انهم قصدوا بها الاتراك(٢) .

تعيين ظهور كلمة الترك في عصور التاريخ

متى وكيف ظهرت كلمة الترك في التاريخ ؟ سؤال هام يعوزنا الحجج للاجابة عنه فيما يتعلق بعصور التاريخ قبل القرن السادس بعد الميلاد . ففي ذلك القرن ظهرت دولة مستقـــلة باسم الترك لأول مرة في التاريـخ(٣) ، ألا وهي دولة « كوك – توركلر Gök-Türkler » وفي وسعنا ان نعرف مؤسس هذه الدولة الواسعة وتطوراتهم الاجتماعية والسياسية بآثارهم المنقوشة التي أقاموها بأيديهم وتركوا لنا أصدق شاهد عن تاريخهم وشئونهم . وبناءً على ما جاء إلينا من الآثار التاريخية نعلم :

انهم كانوا من الاتراك الرحالة يقطنون حول Isiq-Göl المار ذكره ويعملون الحديد ويصنعون الاسلحة للدفاع عن انفسهم . وكان «بومين–خان Bu-min-Khan» مؤسس هذه الدولة الكبيرة قد جمع شمل الاتراك الذين كانوا يعيشون متفرقين من قبل . وبعدما اتحد عزمهم تحت قيادة بومين خان أخذوا استقلالهم واستولوا في زمن قصير على الأراضي الواسعة الممتدة من حدود الصين الى ايران وبيزنطة .

وأصدق الشواهد عن هؤلاء الاتراك نقوش اورخون التي أقاموها بعدما بلغت دولتهم أوج العلى . وقد وردت كلمة الترك باسم هذا الشعب مراراً في هذه النقوش . ولا يخفى علينا ان نقوش اورخون التي تهم المؤرخين والباحثين هي من أقدم الآثار باللسان التركي . وقد اكتشفها ثم حل رموزها العالم الشهير

(١) راجع تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار ج ١ : ص ٥٦ .

(٢) Encycl. of Islam: 6/900

(٣) Journal of the Royal Asiatic Society 1965 (pts. 1-2)

طومسن Thomson في أواسط القرن التاسع عشر ؛ فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة في التاريخ بالترك . وقد أنشئت هذه الأحجار الخالدة حوالي سنة ٧٢٠م أولاً باسم : « تونيو – قق Ton-yu-kuk » الوزير المدبر في أمور الدولة وثانيـاً حـوالي سنـة ٧٣٢م باسم « كل ـ تكين ـ كاغـان Kul-te-kin Xagan » وثالثاً في سنة ٧٣٥م باسم «بيلكه كاغان Bilge-Xagan » في وادي ye-ne-ssyy ينيسي على ضفاف نهر اورخون في آسيا الوسطى .

وتبين هذه الكتابات كيف اضمحلت سطوة الترك ونكبت دولتهم بجواسيس الصينيين وهداياهم القيمة من الحرير والديباج وما الى ذلك من الجواري الحِسان الصينيات التي قدمت الى امراء الاتراك المرابطين على ثغور الدولة الى ان أخذ الترك حريتهم واستقلالهم بعد حروب عنيفـة . وتخبر هذه الكتابات عن هزيمة الصينيين وجلائهم عن ديار الترك وأخيراً تحذر الشعب التركي من الفتن والقلاقل والدسائس التي يلجأ إليها الصينيون للقضاء على كيان جيرانهم .

مفهوم كلمة الترك

ويهمنا ان نتساءل من أين جاءت كلمة الترك وما هو أصلهـا والمعاني التي تحملها ؟ وفي الحقيقة من الصعب جداً ان نقول قولاً فصلاً في هذا الباب الا اننا نكتفي بسرد بعض أقوال المهتمين بالموضوع . فمثلاً جاء في كتاب ديوان لغات الترك الذي وضعه المؤلف التركي محمود الكاشغري ما يلي(١) :

(تـُرْك) اسم بلدة بديار الترك (بمعنى المكان) .

(تـُرْك) حرف يقع على الوقت . وهو وسط ادراك كل شيء من الثمار يقال منه : تـُرك اوزم اودي = أي انه وقت توسّط العنب وينعه . ويقال : تـُرك

(١) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ : ص ٢٩٧ .

قياش اودي = أي وقت توسط الشمس . ويقـال : ترك يكيتا = أي شاب توسط شبابه (بمعنى الحرف) .

(تـُرك) اسم ابن نوح . وهو اسم سمّى به الله تعالى بني ترك بن نوح ، مفرد هناك وفي بنيه اسم جمع كالبشر يقع على الواحد والجمع وكما ان الروم اسم « روم ابن عيصو بن اسحق » فسمي بنوه كذلك به (بمعنى الاسم) .

وانت ترى من هذا ان الكاشغري ذكر كلمة الترك بمعنى المكان والحرف والاسم ومع ذلك يرجح انه اسم ويستشهد بالحديث عن النبي (صلعم) قال[1] « يقول الله جلّ وعزّ ان لي جنداً سميتهم الترك واسكنتهم المشرق فاذا غضبت على قوم سلّطتهم عليهم » ويعلق الكاشغري على هذا الحديث بقوله[2] : « فهذه فضيلة لهم على كافة الخلق حيث تولى تسميتهم بنفسه جلّ وعزّ وأسكنهم في أرفع موضع وأطيب هواء من الأرض وسماهم جنـد نفسه مع ما يشاهد من الحسن والملاحة والصباحة وحفظ الأدب ومراعاة حرمة المشايخ والوفاء بالعهد وترك الصلف والفخر والبسالة فيما يستحقون المدح فيه مما لا يحصى » ولم يكتف المؤلف بقوله هذا بل ساقته عصبيته القومية الى ان يقول[3] « ان الله تعالى قـد أطلع شمس الدولة في بروج الاتراك وأدار بملكهم دائرة الأفلاك . فسماهم الترك وولاهم الملك وجعلهم ملوك العصر ووضع في يدهم أزمة الدهر فقيضهم على الخلق وايدهم على الحق وأعز من انتمى إليهم وسعى بين أيديهم » .

فمن المؤكد كما ذهب إليه كثير من المؤلفين انه اسم رجل من أبناء نوح أما ما قاله الكاشغري بدافع من العصبية القوميّة فلا قيمة له من الوجه العلمي البتة . وذهب بعض المؤلفين الى ان كلمة الترك لها علاقة ببعض الكلمات المتداولة في اللغة التركية . فزعموا ان الاسم الشعبي وهو الترك إنما انتقل الى هذا الشعب

(١) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ : ص ٢٩٢ .
(٢) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ : ص ٢٩٢ .
(٣) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ : ص ٢ .

عن جدهم الأعلى ومن المحتمل ان يكون أصله من كلمة « توره – ملك » أي التكاثر بطريق الولادة . او « توره » أي التقاليد والعرف والقانون المحكم[1] . ولكن القول الأول ليس الا من باب التخرص لأن العلاقة من ناحية اللغـة بين كلمة الترك و « توره – ملك » ضعيفة جدّاً وربمـا صادفنا مثل هذه الآراء السخيفة والروايات الضعيفـة في الكتب التي ألفت قبل مـا اكتشفت نقوش اورخون في آسيا الوسطى . أما القول الآخر فقد أيّده المستشرق الروسي بارتولد بقوله : ان كلمة « تـُرك » لها علاقة بكلمة « توره » التي يكثر استعمالها في نقوش اورخون بمعنى الجماعة المتحدة بالقانون وبالتقاليد[2] . وكذلك يعتقد طومسن[3] ، ان كلمة « ترك » اسم لقبيلة مستقلة او على الأرجح اسم لأسرة حاكمة ويحتمل ان يكون المعنى الأول للكلمة « تورك » او « توروك » هو القوة والإحكام .

تعميم كلمة الترك وشمولها

أما عموم هذه الكلمة وشمولها لجميع القبائل التركية فليس من الصعب الاهتداء الى ما يثلج به الصدر . فان هناك حقيقـة تاريخية ثابتـة : ان الدين الاسلامي غيّر مجرى تاريخ الشعب التركي وأثر تأثيراً شديداً في حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية . فكان الاسلام أيضاً أكبر عاملٍ في تعميم كلمة الترك حتى شملت جميع الاقوام التركية . ويستفاد من بعض المصادر ان العرب بعدما اتصلوا بقبائل الاتراك المتنوعة وجدوهم متحدين في اللغـة التي تتداول فيما بينهم غـير مختلفين في أشكالهم وأبدانهـم والوانهم وحتى في عيشهم وعرفهم

(١) راجع عثمانلي تاريخي لنجيب عاصم ومحمد عارف ج ١ : ص ٣ .
(٢) راجع تاريخ الترك في آسيا الوسطى لبارتولد : ص ٢٨ .
(٣) راجع Encyc. of Islam 6/901

وتقاليدهم رغم انهم كانوا يدينون بأديان شتى غير الاسلام. واخذ العرب والاتراك انفسهم يطلقون اسم « الترك » او « التركمانية » على الذين يدخلون في الاسلام من بطون الاتراك . وكلما تقدم الاسلام في ديار الترك أصبحت كلمة الترك تشمل الجزء الاكبر فالأكبر من الشعب التركي كما ألمح إليـه المروزي بقوله[1] « فلما صاقبوا بلاد الاسلام أسلم بعضهم فسموا التركمانية وصار بينهم وبين من لم يسلم منابذة . ثم كثر المسلمون منهم وحسن اسلامهم وغالبوا الكفرة وطردوهم فتنحّوا عن خوارزم الى محالّ البجناكية . وانتشر التركمانية في بلاد الاسلام واحسنوا فيها السيرة حتى ملكوا أكثرها وصاروا ملوكاً وسلاطين » .

وربما يجدر بنا في هذا المقام الالماع ببعض ما ورد على لسان النبي (صلعم) متضمناً الجناس بين « التُرك » وكلمة « تَـرَك » العربية ومشتقاتها ؛ فقد روي انه (صلعم) قال[2] « تاركوهم (أي الاتراك) ما تركوكم » ، وفي حديث آخر انه قال[3] « تاركوا الترك ما تركوكم » ، وفي حديثه أيضاً عن معاوية انه قال[4] « لا تبعثوا لرابضَيْن اتركوهم مـا تركوكم الترك والحبشة » . فهذه الأحاديث الشائعة التي وردت في هذا الباب انما تنمّ عن انطباعات العرب عن مزايا الاتراك خلال المناوشات الأولى معهم. على كل حال لا نبعد عن الصواب اذا قلنا : ان مجاهدي العرب حينما اتصلوا بقبائل الاتراك الذين يتكلمون نفس اللغة ويتساوون في أخلاقهم وعاداتهم عمّموا اطلاق كلمة الترك على جميعهم . وربما اندفعوا الى ذلك أيضاً لسهولة التلفظ وسَوْق اللسان ومشابهـة الكـلام بـين « التُرك » و « التَرْك » أي بدلاً ان يقول « الكماكيّة، والخرلخية، والخرخز والتغزغز » ، استرسلوا في اطلاق كلمة الترك على جميع القبائل حتى صار اسماً عاماً للشعب التركي .

(١) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ١٨ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٥٨ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٧٦ .
(٤) راجع معجم البلدان للحموي جـ ٥ : ص ٢٣ .

وقد أغرب شيخنا الجاحظ فيما روى عن ذي القرنين انه غلب على جميع الأرض قسراً وعنوة وقهراً وسار حتى وجد قوماً اذعن انه ليس من السهل ان يحاربهم ويتغلب عليهم فرجع وقال « اتركوهم » وبقوله « اتركوهم » سُمُّوا الترك[1] ، وانما تؤكد هذه الرواية مهما تكن غريبة ومستبعدة ميل العرب الى اتخاذ خطة المتاركة والمسالمة فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الاتراك تفادياً لخسائر الحرب بدون الوصول الى أية نتيجة ثابتة . قال مقاتل بن سليمان : وانما سموا الترك لأنهم تُركوا خلف الردم .

أصل الاتراك وقبائلهم

كاد المؤرخون المتقدمون يتفقون على ان أصل الاتراك يرجع الى « ترك بن يافث بن نوح » من الأنبياء المرسلين . وأساس قولهم في هذا الباب انما يعتمد على ما ورد في التوراة[2] كما صرح بذلك الطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم . ويقول ابن خلدون في تاريخه[3] : اتفق النسابون ونقلة المفسرين على ان ولد نوح الذين تفرعت الامم منهم ثلاثة ، سام ، وحام ، ويافث ، وقد وقع ذكرهم في التوراة وان يافث أكبرهم وحـام الأصغر وسام الأوسط . سام أبو العرب ، وفارس ، والروم . ويافث ابو الترك ، والصقالبة ، ويأجوج ومأجوج ، وحام أبو القبط ، والسودان ، والبربر . ويقول في موضع آخر ، « وأما يافث فمن ولده الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج باتفاق النسابين » وسننقل الشجرة التي وضعها ابن خلدون في بيان أولاد يافث ابن نوح الذين تفرعت قبائل الاتراك منهم . وذهب الكاشغري الى ما ذهب إليه ابن خلدون بنسبة الاتراك الى ترك

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٧٦ .
(٢) راجع الكتاب المقدس التكوين الاصحاح الخامس ص ٨٠٧ .
(٣) راجع تاريخ ابن خلدون جـ ١ : ص ٨ .

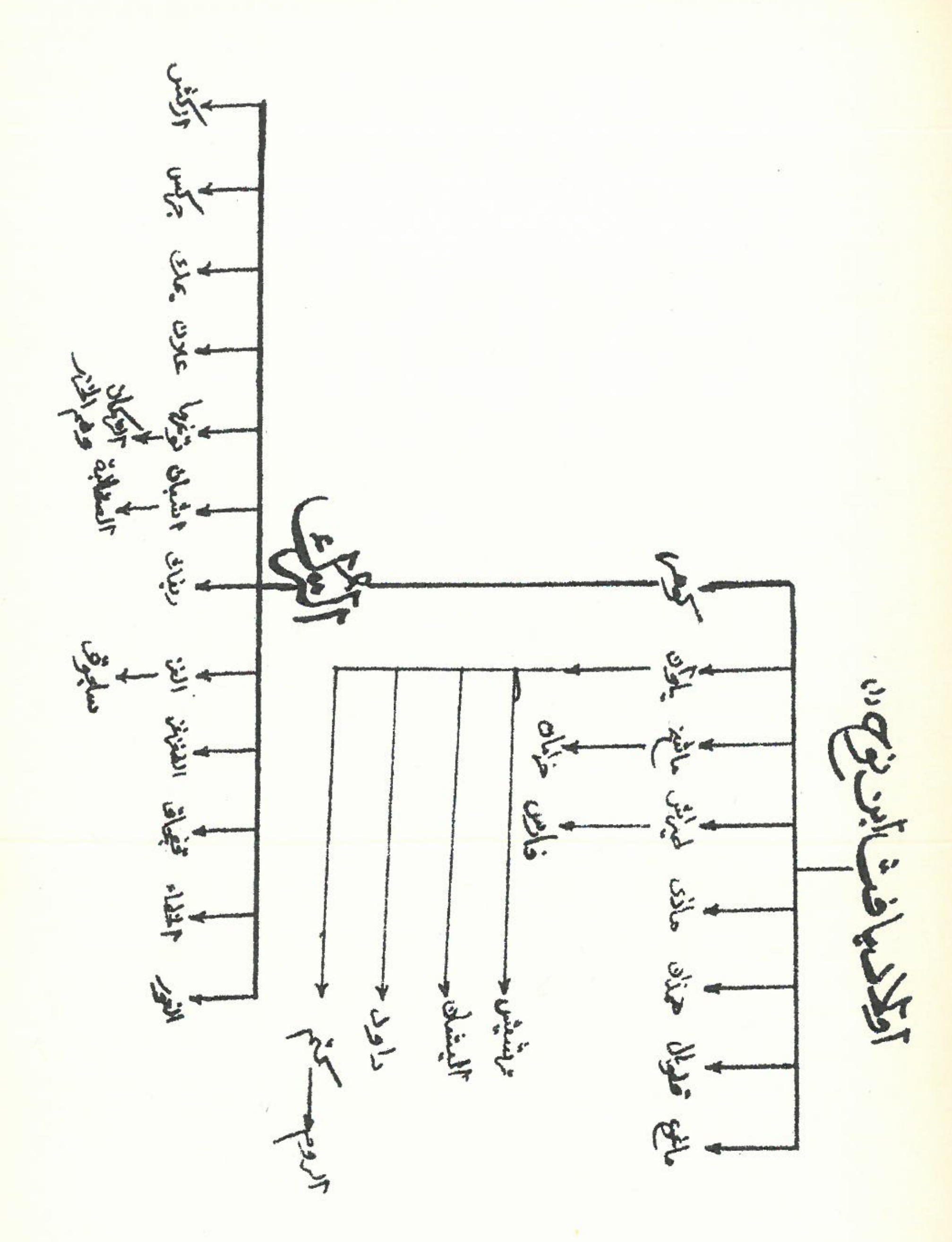
ابن يافث وإليك قوله[١] « يعتزي الترك كلهم الى ترك بن يافث بن نوح » .

ومهما تكن قيمة هذه الروايات المشحونة بالغرائب من الاسرائيليات فالحقيقة ان الاتراك نشأوا أمة قوية بين الأمم الآسيوية وتكوّنت مَيزاتهم الطبيعية وأوصافهم القوميّة التي اشتهروا بها في آسيا الوسطى الى ان دخلوا في طور التاريخ . ومن المحتمل ان يكون جد هذا الشعب « الترك » كما مر ذكره وتشعبت بطونهم بعدما كثر أبناء الترك بمرور من الزمن . ويقول الاستاذ بروكلمان في نشأة الأتراك[٢] « انه بين سكان التبت والصين في الشرق ، والجنس الآسيوي القديم (السيبيري) في الشمال ، والشعوب الفنلاندية الاغروية في الغرب نشأ الشعب التركي فوق سهول سيبيريا الشمالية الواسعة والبوادي القائمة هناك وبين بحر الخزر (قزوين) وجبال التاي من جماعة عرقية ولغويّة وحين دخل الاتراك في طور التاريخ بعد ان شرعوا في الاندفاع من جبال تيان شان الى بوادي آسيا الوسطى كانت قد تمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الاجناس البشرية بالخصائص الطورانية » .

قبائل الاتراك

أما قبائل الاتراك وبطونهم، فان كثيراً من مؤلفي العرب قد عُنوا بالحديث عنها منذ بداية القرن الثالث الهجري . ولم يفت البعض منهم ان يسوحوا بين القبائل التركية ويصرفوا أياماً من عمرهم ويكتبوا أشياء غريبة عن عقائدهم وعوائدهم . ونخلُص من أقوالهم الى ان قبائل الاتراك المشهورة بين العرب هي : الغز ، والقرغز ، والخرخز ، والخرلوخ ، والخزر ، والبجناكية وغيرهم كما فصله ابن خلدون[٣] .

(١) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ : ص ٢٧ .
(٢) راجع تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ٢ : ص ١٠٩ .
(٣) راجع تاريخ ابن خلدون ج ١ : ص ١٤، ١٥ .



(١) راجع تاريخ ابن خلدون ج ١ : ص ١٦ .

(أما الغز) او الغزية «وهم اثنتا عشرة قبيلة يسمى بعضهم التغزغز»[١] فهم من أكبر قبائل الاتراك الذين تفرع السلاجقة والعثمانيون منهم ومع ذلك ، « هم بادية لهم بيوت شعر يحملون ويرتحلون ترى منهم الأبيات في مكان ومثلها في مكان آخر على عادة البادية في تنقلهم واذا هم في شقاء وهم مع ذلك لا يدينون الله بدين ولا يرجعون الى عقل ولا يعبدون شيئاً بل يسمون كبراءهم أرباباً . فـاذا استشار احدهم رئيسه في شيء قال له « يا رب أيش أعمل في كذا وكذا وأمرهم شورى بينهم»[٢] « وملكهم يسمّى تغزخاقان وله جنود كثيرة وكان لملكهم في القديم ألف شاكري وأربع مائة جارية . وكانت شاكريته يأكلون الطعام عند كل يوم ثلاث مرات ويسقون ثلاثة بعد الطعام ولا يبرز ملكهم للعامة الا في الحين مرّة ولهم رسوم حسنة في السياسات»[٣] ويقول الحموي في ملك التغزغز[٤] :

« ملك الترك وهو ملك التغزغز ويُدعى ملك السباع وملـك الخيل . اذ ليس في ملوك العالم أشد من رجاله ولا أجرأ منه على سفك الدماء ولا أكثر خيلاً منه . ومملكته ما بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ويدعى بالاسم الأعم وهو إيره‌خان . وكان للترك ملوك كثيرة وأجناس مختلفـة اولو بأس وشدة لايدينون لأحد من الملوك إلا انه ليس فيهم من يداري ملكه ، وجاء في الشعر:

والجانبان العلندان اللّذا حسنا منها بخارى وبلخ الشاه توران
قد رتب الناس جمّ في مراتبهم فمرزبان وبطريق وطرخان
في الفرس كسرى وفي الروم القياصر وال حبش النجاشي والاتراك خاقان »

وللملك التغزغز خيمة من ذهب على أعلى قصر تسعُ ان يدخلها مائة انسان

(١) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ١٨ .
(٢) راجع رسالة ابن فضلان ص ٩١ .
(٣) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ١٨ .
(٤) راجع معجم البلدان للحموي ج ١ : ص ٤٨ .

ترى من خمسة فراسخ[1] .

ومن قبائل الاتراك (القرغز) كانوا أبعدهم مكاناً عن العرب . اذ الاوغز والقارلوق هم الساكنون على حدود المملكة العربية الى الصين مروراً ببلاد القارلوق . فكان المسافر يمشي ثلاثين يوماً من حدود فرغانة الشرقية في بلاد القارلوق الى ان يصل الى البحر المحيط .

وقبائل الأتراك بعضهم يسكنون المدن وبعضهم يسكنون البراري والصحاري وهم أصحاب الخيام والخركاهات ومنهم فرقة « يقال لهم (قون) أقبلوا من أرض قتاي وهم متوحشون . و (قاي)اكثر منهم عدداً واشد قوة . و (الخرخز) هم أمة كبيرة ومساكنهم بين المشرق الصيني وبين الشمال . و (كيماك) في شمالهم و (يغما) و (خرلخ) في مغربهم و (كجاورك) بين المغرب الشتوي وبين الجنوب . وفي أرض خرخز ، أربعة أودية تجري وتصب في وادٍ عظيم يشرع فيما بين جبالٍ وأوعارٍ مظلمة .

أما (الخرلخية) وكانوا يسكنون جبل تونس وهو جبل الذهب فكانوا عبيداً للتغزغز . وعصوا عليهم وخرجوا الى بلاد التركشية واستولوا عليهم وقهروا سلطانهم ومنها خرجوا الى بلاد الاسلام . وهم تسع فرقٍ ثلاث (جكلية) وثلاث (بعسكلية) وواحدة (بلاق) وواحدة (كولركين) وواحدة (تخسي) .

واما (كيماك) فهم قوم ليست لهم قرى ولا بيوت وإنما هم أصحاب غياض ومشاجر ومياهٍ وكلأ . ولهم بقر وغنم كثيرة ، ولا يكون عندهم ابل لأن الابل لا تعيش في أرضهم أكثر من سنة وغذاؤهم في الصيف لبن الرماك وفي الشتاء اللحوم المقدّدة .

وأما (البجناكية) فقوم سيّارة يتبعون مواقع القطر والكلأ . وطول أرض

(1) راجع كتاب المسالك والمالك لابن خرداذبة ص ٣١ .

بجناك مسيرة ثلاثين يوماً في ثلاثين يوم ، قد أحاط بهم من كل جهة أمة كبيرة ففي ناحية الشمال منهم بلاد خفجاق وفي ناحية جنوب المغرب بلاد الخزر ومن ناحية المشرق بلاد الغزيّة ومن ناحية المغرب بلاد الصقالبة . وهذه الأمم يغزون البجناكية والبجناكية تغزوهم.وللبجناكية ثروة وداوبّ وذهب وفضة واسلحة واعلام وطرّادات .

وأما (الخزرْ) فبلادهم عريضة ويتصل بأحد جناباتها جبل عظيم . وهو الجبل الذي ينزل في أقصاه فرقتان من الاتراك يقال لاحدهما (طولاس) وللأخرى (لوعر) اوغز ، ويمتد هذا الجبل الى بلاد تفليس . ومدينتهم (سارغسن) ولهم مدينة أخرى يقال لها (حسلع) وهم يسكنون في هاتين المدينتين . وملكهم يركب في عشرة آلآف فارس اذا اخرج في وجهٍ ومن رسمهم اذا خرجوا في وجهٍ ان يحمل كل فارسٍ منهم عشرين وتداً من الطرفاء طول كل وتدٍ ذراعان فاذا نزلوا في منزلٍ غرزَ كل واحدٍ منهم أوتاده في الأرض بحباله وتسند إليها الترسة . ويصير حول المعسكر سورٌ في أقل من ساعة فلا يقدر احد على مباينتهم . ومنهم :

(برداس) وبلادهم تعد من بلاد الخزر وبينهم وبين الخزر مسيرة خمسة عشر يوماً . وهم في طاعة ملك الخزر . ويخرج منهم عشرة آلاف فارس وليس لهم رئيس يضبطهم ويجوز حكمه عليهم وفي كل محلة لهم شيخ يتحاكمون إليه فيما يقع بينهم . ولهم أرض واسعة ، وهم في مشاجرَ يغيرون على (بلكار) وعلى (البجناكية) . ولهم رواء ومنظر وأجسام . وهم في أرضٍ سهلة وأكثر أشجارهم الخلنج ولهم مزارع ، وسعة أرضهم مسيرة سبعة عشر يوماً في مثلها . وليس لهم ثمار وشرابهم من العسل .

وأما (المجغرية)فهم قوم من الترك لهم أراضي كثيرة تبلغ مائة فرسخ في مائة فرسخ . ورئيسهم يركب في مقدار عشرين ألف فارس ويسمى رئيسهم (كندة) وهذا الاسم شعار لمليكهم وهم أهل قباب يسيرون مع الكلأ والخصب . وبلاد

المجغرية ذات مشاجر ولهم مزارع وهم يغلبون على من يليهم من الصقالبة والروس . وللمجغرية رُواء ومنظر حسن وجثث ضخام ولهم ثروة وأحوال ظاهرة لكثرة تجاراتهم[١] .

لقد أخذنا هذه الروايات القيمة عن المروزي واوجزناها ايجازاً حسناً حتى تعطي فكرة تمهيدية للباحثين الذين يهتمون بقبائل الاتراك . ومع ذلك يزيد المؤلف ويقول[٢] : « قد ذكرنا من أجناس الترك وأحوالهم ما اشتهر وما استفاض من غير استقصاء وتطويل لأن أجناسهم وأنواعهم وسيرَهم ورسومهم وعاداتهم أكثر من ان يمكن استيفاؤها بالذكر » .

أما قول الكاشغري « الترك في الأصل عشرون قبيلة ، وكل قبيلة منها بطون لا يحصيهم الا الله » فهو إنما يعد امهات القبائل ويترك بطونها الا الغزية التركمانية ويذكر بطون الغزية وسمات دوابهم لحاجة الناس الى معرفتهم ثم هو يقسم الترك الى قسمين شمالي ، وجنوبي .

فالشماليون : البجنك ، ثم قفجاق ، ثم اغز ، ثم يماك ، ثم يسمل ، ثم قاي ، ثم ياباقوي ، ثم تتار ، ثم قرقز .

والجنوبيون : جكل ، ثم تخنسي ، ثم يغما ، ثم اغراق ، ثم جَرُق ، ثم جُمل ، ثم أيغر ، ثم تنكت ، ثم ختاي ، ثم تفغاج . وقد يقع اختلاف في هذا التقسيم لان هناك شعوباً منسوبة الى الشمال قد ثبت انها سكنت في الجنوب.

ومن شعوب القسم الشمالي من كانت لهم لغات خاصة بهم مثل القاي ، والبياكوا ، والتتار ، والبسميل ، ولكنهم كانوا يعرفون اللسان التركي العام . وكان يباقو يسكنون على ضفاف النهر الكبير « يامار » الذي يظن أنه النهر الذي يقال له اليوم « امور » .

(١) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ١٨ وما بعدها في مواضع مختلفة .
(٢) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ٢٣ .

وأما الشعوب الجنوبية من الترك ، فكان منهم شعب الجرمول ويتكلم لغة غير التركية ولكنه يعرف التركية ، وقيل مثل هذا عن الايغور ، فقد كان لهم عدا التركية لغة خاصة . واما التنكوت فكانوا قبيلاً غريباً سكن في وسط الترك ، وكذا أهل « ختن » وأما التبت فقد كانت لهم لغات خاصة بهم . وفي بلاد الصين وماصين كان للأهالي لغة غير التركية . وانما كانوا يعرفون التركية . وفي أصناف الترك « الجاروق » وكانوا يسكنون في مدينة « برقوق » . وكان في بلاد الايغور بوذيون يعبدون الأصنام .

وقد ذكر الكاشغري قبائل تركية أخرى ليست داخلة ضمن الشعوب العشرين المار ذكرها من جملتها الادغيس والكوجات الذين كانوا في خوارزم . وقد ذكروا من جملة من هم من أصل تركي « البلغار » و «الصوغار»، وذهب الكاشغري الى ان لغة البلغار والصوغار والبجنك كلها لغة واحدة . فالترك الرحالة الساكنون بعين الأتيل والبامار ، كانوا يتكلمون بلغة أنقى من لغات أهل المدن . وقد كانت اللغة الصغدية مستعملة الى جانب التركية في المدن . وكان يغلب على لغة الأغز او التركمان لهجة الشعوب التركية[١] .

(١) راجع كتاب ديوان لغات الترك الكاشغري ج ١ : ص ٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وما بعدها في مواضع مختلفة .

الباب الثاني

دخول الاتراك في طور التاريخ

دول الاتراك في آسيا الوسطى

لا نعرف كثيراً عن تاريخ قدامى الاتراك وانما نستمد معلوماتنا في هذا الباب من بعض الروايات التي وصلت الينا عن طريق الاسطورة ونسميها المصادر القومية التركية .

وتذهب هذه الى ان جد الاتراك اي الترك اتخذ موطناً حول Isiq Göl (ايسيق كول) وتكاثر ابناؤه بمرور من الزمن ثم اخذوا ينتشرون في بلاد آسيا الوسطى فاحتلوها وأجلوا الاقوام والأمم التي كانت تسكن فيها عنها وتترّك من تبقى منهم ثم اسسوا دولا مختلفة قائمة على نظام الارستقراطية العسكرية .

واول من اسس دولة حاكمة مستقلة في التاريخ هو « اوغوز خان » الفاتح الكبير ، وقد عرف ببطولته وشجاعته حتى ان الاتراك وضعوه في مصاف الرسول ، وهو اول من وضع قوانين الترك ونظام عاداتهم وتقاليدهم ، واتقنها وسنها للذين جاؤوا من بعده فأصبح بطلاً قومياً خالداً . ويفتخر عثمان الاول الذي اسس الامبراطورية العالمية الاسلامية بانتسابه اليه فيقول [1] :

(١) راجع عثمانلي تاريخي لمحمد عارف ونجيب عاصم ج ١ : ص ٩ .

« عثمان ارطغرل اوغليسك اوغوزقره خان نسليسك »

« انت من ابناء ارطغرل يا عثمان اوغوز قره خان من اجدادك » .

وعلى ما جاء في الاسطورة القومية ايضاً انه كان لاوغوزخان ستة اولاد ، فسمى ثلاثة منهم : كوك خان (خان السماء) ، طاغ خان (خان الجبل) ، ودكـنـز خان (خان البحر) .

وثلاثة منهم سماهم : كون خان (خان الشمس) ، اي خان (خان القمر) ، ويلديز خان (خان النجم) .

فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا في الشرق ، وثلاثة سكنوا في الغرب . وكان لكل منهم اربعة اولاد ، وهكذا صار لاوغوز خان ٢٤ حفيداً ، وهم رؤساء القبائل التركية . وقد بسط الكاشغري الكلام في بطون اوغزخان فقال [1] : قبيلة من الترك وهم التركمانية ولهم اثنان وعشرون بطناً ، لكل بطن منها علامة وسِمَة على دوابهم يعرف بعضهم بعضاً بها . وهم: « قنق » وقيغ » و « بايندر » و « افا او يقا » و « سلغي » و « افشار » و « بكتلي » و « بكـنـذر » و «بيات» و « يزغر » و « ايمر » و « قرابلك » و « القابُلك » و « إكدِر » و « اركـر » و « توترقار » و « توكز » و « بجنك » و « جولدر » و « جبني » و « جـَرقلغ » ولعل هذه اصول قبائلهم ثم كل قبيلة منها فرق وبطون ، واسماء هذه القبائل في الأصل اسماء اجدادهم الذين ولدوهم في قديم الدهر فنسبوا اليهم كما يقال في العرب بنو سُليم وبنو خفاجة .

ويستدل من هذه المصادر ان ثورة كبيرة وقعت بين بطون الاتراك بسبب ضغط الاسرة الحاكمة الاوغوزية بعدما توفي اوغوز خان ادت الى قتل جميع آل بيته ما عدا ابن خان الاخير واخاه منهم ، وهؤلاء لجأوا الى « ته كنه قون » — الارض المقدسة للاتراك حول هضبة محصورة بالغابات والفيافي والجبال الشامخة — وبهذا اضمحلت دولتهم وضعفت شوكتهم وزالت سطوتهم حتى انقرضوا في السابع عشر قبل الميلاد .

(١) راجع كتاب ديوان لغات الترك ، الكاشغري ج ١ ص ٥٦ .

الهونيون HUN-LAR

بعدما انقرضت « دولة اوغوز خان » قامت امبراطورية تركية اخرى في آسيا الوسطى سمتهـا المصادر الدولة الهونية . وهؤلاء الهونيون قد علا شأنهم وزاد نفوذهم وسيطرتهم خصوصاً في عهد « مه ته خان » ، و تتحدث المصـادر الصينية بالتفصيل عن هؤلاء الاتراك باسم «هيونغ نو» —ومعناه وحوش الجبال— ولعل المروزي يقصدهم بهذه الرواية : « ومن قبائل الاتراك فرقة يقـال لهم « قون Kun » اقبلوا من ارض قتاي وهم مستوحشون »[١] . لان هؤلاء الاتراك الرحالة زحفوا على الصينيين وهزموهم مراراً واغاروا على مدنهم ودمروا بيوتهم وغنموا ما في ايديهم من الثروة والمال ، حتى اضطر الصينيون الى ان يبنوا سداً عالياً كي يصونوا به انفسهم واموالهم وديارهم من هؤلاء الاتراك في سنة ٢١٣ قبل الميلاد[٢] . ولكن لم يستطع الصينيون بانشاء سدهم العـالي ان يصدوا هجومهم المستمر ، فأخذوا يدسون بين هؤلاء الأتراك حتى اوقعوا الخلافات والفتن بينهم واستجلبوا كثـيراً من ولاة الترك بالهدايا القيمة او بالمنافـع الشخصية . وهكذا انقرضت دولة الهون بسبب هذه الفتن والقلاقل التي اثارهـا الصينيون في عصر الميلاد .

كوك ــ توركلر GÖK — TÜRKLER

وبعد اضمحلال الدولة الهونية ، بقي امر الاتراك ضعيفـاً الى القرن السادس للميلاد (اي عصر طلوع فجر الاسلام) ذلك القرن الذي ظهرت فيـه دولة حاكمة عرفت لاول مرة باسم الترك في التاريخ « كوك ــ توركلر Gök - Türkler » تأسست حوالي سنة ٥٥٢ للميلاد وامتدت حدودها من بلاد المغول وشمال الصين الى البحـر الاسود . وكان اصحابها من القبائل الرحالة التركية ويسمّى مؤسسها

(١) راجع طبائع الحيوان للمروزي ص ١٨ .

(٢) Türkiye Tarihi, T. Yilmaz öztuna Cild 1 Sah 122

« بو مين Bu - min » عند الاتراك و « تو مان Tu-man » عند الصينيين .
وقد تمت اكثر الفتوحات في الجهة الغربية على يد اخيه الخاقان « استامي Is-ta-mi » وعند الصينيين « شتامي She-tim-mi » الذي مات سنة ٥٧٦ للميلاد . ويظهر لنا ان هذين الاخوين كانا مستقلين احدهمـا عن الآخر[١] . هؤلاء وخلفاؤهم اهتموا بالسياسة الخارجية وعملوا على تحسين علاقاتهم مع « انوشروان » كسرى ايران . كا بدأت ايضاً العلاقات الخارجية بينهم وبين البيزنطيين وتبادلوا السفراء والوفود[٢] ، ومن اجل ذلك اصبحنـا نملك المصادر المختلفة عن هذه الوفود وهداياهم الغالية .

وفي السنة ٥٨١ للميلاد انقسمت هذه الدولة الواسعـة قسمين : شرقي ، وغربي . وفي القرن السابع للميلاد خضع الترك الشرقيون جميعاً لسلالة « تا ــ نغ » الصينية . ولكن هؤلاء لم يبقوا كثـيراً تحت تحكم الصينيين ، بـل خرجوا عليهم واستردوا استقلالهم واقاموا دولتهم في سنة ٦٨٣ للميلاد . وتعيننـا نقوش اورخون على معرفـة العوامل التي اثرت على الشعب التركي ، حتى اقاموا دولة مستقلة وأحيوا عرفهم وعاداتهم وتقاليدهم كا انتقلت اليهم من آبائهم . فقد سجلت هذه النقوش صراعاً بين الاغنيـاء والفقراء ، وبين البكوات والعامة . اذ وطنت الارستقراطية التركية نفسها في يسر على ذل الحكم الاجنبي في حين لم يسغ الحكم الاجنبي للعامة بسهولة، ولم يتخلوا عن تقاليدهم وعرفهم ، بل ازداد بغضهم للبكوات بسبب تقليدهم للصينيين وتخلقهم بأخلاقهم . ويشتكي بلكـه كاغان مريراً في نقوش اورخون فيقول[٣] :

« ايها الشعب التركي !

اذا استوطن خاقان الترك في « اتو ــ كه ــ ن » فلن تحـل المصائب بالشعب التركي ابداً . وها انا ذا قد استوطنت هنـا وعملت على تحسين العلاقات مـع

(١) Encyclopaedia of Islam 6/900

(٢) Türkili Türkistan Tarihi, A.Z.V. Togan 1/5

(٣) Reesimili Türk Erebiyati Tarihi, N. S. Banarli 32

الصينيين ، لانهم بحكم فطرتهم وطبيعتهم قـــد جبلوا على الدس واستمالة الناس بالذهب والفضه والحرير والديباج بغير حساب . والشعب الصيني قد امتاز بحلو الكلام وعذوبة اللسان وفيض العطـاء لكسب قلوب الناس . وهم ايضـاً حينما يفعلون ذلك بغية استغلال الأمم النائية يجتذبونهم بها اولا ثم يستعبدونهم .

فيا ايها الشعب التركي ! انـك انخدعت بهذه الألسن المعسولة والاساليب الماكرة والهدايا البراقة مما اهلك كثيراً منك، ذلك لان بعض السفهاء قد اساؤوا اليك وخدعوك وقالوا : « ان الصينيين يقدمون لكم الهدايا القيمـة بعـــد ان تتقربوا اليهم وتتصلوا بهم » وكثير منك جهلوا وتقربوا اليهم ثم هلكوا .

فيا ايها الشعب التركي ! اذا تركت ارضـك وديارك وتقربت اليهم فانـك ستهلك . واذا استوطنت في غابات « اتو ـ كه ـ ن » ستبقى حـرّاً فلما اراد الله ان يدوم صيت الشعب التركي ودولته امدّه بقوته ورفع شأن ابي « كاغان » وامر «خاتون» واعطى لهم هذا الملك . وهذه المرة ايضاً لم يرد الله هلاك الشعب التركي بل اعلى شأنه في العالم حتى اجلسني على عرشه » .

فثار الشعب ضد الحكم الصيني وحصلوا على الاستقـــلال للدولة التركية . ولكن الصينيين بحسب فطرتهم ظـــلوا يدسون ويثيرون القلاقل والفتن بين الشعب التركي . فلم تلبث ان تدهورت الدولة التركية الشرقية وانقرضت في سنة ٧٤٥ م / ١٢٨ هـ . والدولة التركية الغربية سنـة ٦٦٦ م / ٤٦ هـ. وقد واجـه الاتراك بعـد انقراض دولتهم خطرين عظيمين كانا يهددان كيانهم الاجتماعي ، اعني خطر الصينيين من جهة الشرق وخطر العرب من جهة الغرب .

وذلك ان العرب دخلوا في طـور التاريخ بغتة بعدما جمـع الاسلام كلمتهم ووحد قلوبهم ، فاندفعوا خـارج الجزيرة وتوجهوا الى الشرق ، فاستولوا على العراق وازالوا دولة كسرى وتقدموا بسرعة البرق حتى وصلوا من اقصى حدود مملكة الفرس الى ما وراء النهر وهناك وجدوا انفسهم امـام امة ذات شكيمة عظيمة قديمة ، الا وهي امة «الترك». وفعلاً بدأوا يناوشون الترك الذين كانوا اذ

ذاك يعيشون متفرقين بسبب انحطاطهم واضمحلال دولتهم بدسائس الصينيين . الا ان الخليفة لم يسمح لهم بمهاجمة الترك لغرض مـا . فقد كتب عمر فيما يروي الطبري الى الاحنف بن قيس[1] : « امـا بعد فلا تجوزنّ النهر ، واقتصر على ما دونه » .

وبهذا الصراع اي صراع العرب والترك ، افتتح دور هام في تاريخ الاسلام وحياة الاتراك السياسية والاجتماعية والتاريخية . وفي النهـــاية تغلب العرب على الاتراك بفضل الاسلام وبسبب اضمحلال الدولة التركية ، الا ان ذلك ليس انتصار العرب على الاتراك ، بل انتصار الاسلام على الكفر وانتقال الرسالة الى اصحابها الذين كانوا اجدر بها بمقتضى قوله تعالى :

« فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويحبُّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعـِزّةٍ على الكافرين يجاهدونَ في سبيل الله ولا يخافونَ لومةَ لائم ذلك فضـلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ ! » [2].

---

(١) راجع الطبري ج ٤ : ص ٣٦٤ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

الفصل الثاني

تقدم العرب لفتح ما وراء النهر

الباب الأول

تصور العرب للترك قبل الفتح وبعده

بعض الاحاديث في الاتراك

لم يقع بايدينا اي دليل على احتكاك مباشر بين العرب والترك قبل ان واجه الطرفان الواحد منهما الآخر عبر نهر جيحون خلال الموجة الاولى للفتح الاسلامي في عهد عمر بن الخطاب. ولا ادلّ على انعدام الصِلات المباشرة بينهم من ان النبي (صلعم) لم يخاطب ملك الترك بالدعوة الى الاسلام، كما خاطب بها كسرى (ملك الفرس) والنجاشي وهرقل وعامله على مصر المقوقس[1] . كذلك لا يذكر احد من الاتراك في اصحاب النبي (صلعم) كما يذكر فيهم سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم من الاعاجم .

الا ان انعدام الصلات المباشرة لا يعني جهل العرب بالاتراك ، بالعكس نعثر

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ : ص ٦٠٧ .

على احاديث تنسب الى النبي (صلعم) ، واقوال تؤثر عن رجالات العرب كلها تنبىء عن تأثر عميق بمزايا الاتراك القومية ومعرفة تامة بأخلاقهم وعوائدهم ، فلنذكر فيما يلي بعض الاحاديث التي اعتاد الكتاب والمؤرخون نقلها في هذا الصدد .

١ – قال النبي (صلعم) : « تاركوا التُّرك ما تَرَكوكُمْ » ، « تارِكُوهمْ ما تَرَكوكمْ » ، « اترُكُوا التُّرْك ما تَرَكوكمْ » .[1]

٢ – قال النبي (صلعم) : « أُترُكوا التُّرك ما تَرَكوكمْ ، فإنهم أصحابُ بأس شديدٍ »[2] .

٣ – قال النبي (صلعم) : «لا تبعثوا الرابضَين اترُكوهم ما تَرَكوكم التُّرْك والحبَشَة » .[3]

٤ – قال النبي (صلعم) : « التُّرْك أولُ ما يَسلُب أُمَّتي ما خوّلوا »[4].

٥ – قال النبي (صلعم): «يقول الله عزّ وجلّ إن لي جُنداً سمَّيتُهُمُ التُّرك وأسكنتُهُمُ المشرِق ، فاذا غضبتُ على قومٍ سلَّطتهم عليهِم »[5] * .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ١/٧٦ ، ٥٨ . كتاب البلدان لابن الفقيه: ص ٣١٦ معجم البلدان : للحموي ج ٥ : ص ٢٣ .

(٢) راجع تاريخ جهانكشاي للجويني ج ١ ص ١١ .

(٣) راجع معجم البلدان للحموي ج ٥ ص ٢٣ .

(٤) راجع معجم البلدان للحموي ج ٥ ص ٢٣ .

(٥) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ١ ص ٢٩٢ .

(*) من المفيد ان نذكر ما قاله المستشرق بارتولد حول حديث الكاشغري في تعليقه قال : « ومع انه كان بين المسلمين من ينتظر وصول الترك ، ويرى فيهم حلفاء وانصاراً ، فان العنصر الديني لم يستطع ان يغير اتجاه الفتوحات التركية . ولما كان الاتراك حديثي العهد بالاسلام ، فقد كانوا أخلص من الحكام المسلمين في ولايات غرب آسيا ، حتى ان رجال الدين في القرن العاشر كانوا ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين السنيين في الشرق ليجهزوا على حكم البويهيين الشيعة الذين استبدوا بكل الامور في بغداد .

وكان مثل الاتراك في المشرق كمثل البربر في المغرب ، فكان الاتراك يدافعون عن رجال الدين في البلاد التي يصطدم فيها هؤلاء الرجال بالحكومة » (تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ٨٤) للمؤلف .

٦ – قال النبي (صلعم) : « أترُكوا التُّرك ما ترَكوكم ، فإن من يسلُبُ أُمتي ملكَهم وما خوَّلهم اللهُ بَنوا قَنطوراء »[1]* .

٧ – قال النبي (صلعم) : «إن بـني قَنطوراء أولُ من يسلُبُ أُمَّتي مُلكهم»[2] .

٨ – قال النبي (صلعم) : « لا تقومُ الساعةُ حتى يجيءَ قومٌ عِراضُ الوجوه صغارُ الأعين فُطسُ الأنوفِ حتى يربطوا خيولَهم بشاطىء دِجلة »[3].

٩ – قال النبي (صلعم) : « ليكوننَّ المُلكُ والخلافة في ولَدي حتى يَغلب على عزِّهمْ الحمر الوجوه الذين كأن وجوهَهُمْ المجَانّ المطرَّقة »[4] .

١٠ – قال النبي (صلعم) : « لما ذكرَ أشراط الساعة وفتَن آخر الزَّمان وخروج التُّرك الغُزيَّة فقال: تعلَّموا لسانَ التُّرك فإن لهم مُلكاً طوالاً»[5]**

***

لقد بحثنا عن هذه الاحاديث في المصادر الموثوق بها فلم نجد لها اثراً ، ولذلك لا نستطيع الجزم بصحتها الا ان المهم انها تعبِّر تعبيراً صادقاً عما وقع في نفوس العرب والمسلمين من المهابة والاجلال لبطولة الاتراك .

وقد وفق الجاحظ كل التوفيق في معالجته لهذه الاحاديث حيث انه لم يتعرض لنقدها بل قبلها على مـا هي عليه ، ومضى يشرح الغرض منها في ضوء الوقائع الحربية والظروف السياسية فقال[6] :

(١) راجع تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار ج ١ : ص ٢١ .
(*) وقيل : ان قنطوراء جارية ابراهيم وبنت خاقان الترك .
(٢) راجع تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار ج ١ ص ٢٢ .
(٣) راجع معجم البلدان للحموي ج ٥ ص ٢٣ .
(٤) راجع معجم البلدان للحموي ج ٥ ص ٢٣ .
(٥) راجع كتاب ديوان لغات الترك ، للكاشغري ج ١ ص ٢٩٣ .
(**) ويقول الكاشغري في تعليقه : فلئن صح هذا الحديث والعهدة عليه فيكون تعلمه واجباً ولئن لم يصح فالعقل يقتضيه » المؤلف .
(٦) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٦ .

« وانما كان الحديث (يعني تاركوا الترك . . الـخ) على وجه التهويـل والتخويف بهم لجميع الناس فصاروا (اي الاتراك) للاسلام مادةً وجنداً كثيفاً وللخلفاء وقاية وموئلا وجُنـَّة حصينة وشعاراً دون الدثار » . ويصر الجاحظ على ما ذهب اليه فيقول[1] :

« و هذه (اي الاحاديث) وصية لجميع العرب ، فان الرأي متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنكم بقوم لم يعرض لهم ذو القرنين وبقوله : اتركوهم ، «سمّوا الترك » هذا بعد ان غلب على جميع الارض غلبة وقسراً وعنوة وقهراً » . فهذا ما فهم الجاحظ من الاحاديث التي وردت في شأن الترك .

والواقع ان ما فهمه الجاحظ يوافق تماماً الخطة التي سار عليها عمر وخلفاؤه من بعد ، فان سيدنا عمر ، بعد ان زالت دولة الساسانيين وتم فتح خراسان ، وبلغت حدود الاسلام الى ضفـاف نهر جيحون – ويقطـن وراءه الاتراك – لم يلبث ان كتب الى الاحنف « اما بعد فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه»[2] ولعل سيدنا عمر انمـا اهتدى الى وضع هذه الخطة بفراسته وبُعد نظره ، فقد كان حذراً خائفاً من ان يتقدم الأحنف بجنوده الى ما وراء خراسان تجاه ارض الترك الى حدان قال[3] : « لوَددت لو أني لم اكن بعثت الى خراسان جنداً ، ولوددت انه كان بيننا وبينها بحر من نار » .

وفعلاً نرى عمر يعلل خطته بتقديره لمزايا الاتراك لا غير قال: سعيد بن عُقبة أخبرني أبي قال شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة بن دِعامة الفقيه » ، وذكر قول عمر بن الخطاب في الترك حيث قال : « عدوّ شديد قليل سلبه » فنهى العـرب عن التعرض للأتراك . وفي رواية سعيد انـه قـال : وقد قطعت شرذمة منهم في بلاد ابي خزيمة – يريد حمزة بن ادرك الخارجي – وما والى خراسان في بعض

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٦ .
(٢) راجع الطبري ، ج ٤ : ص ٢٦٤ .
(٣) راجع الطبري ، ج ٤ : ص ٢٦٤ .

الأمر وحمزة في معظم الناس فقال لأصحابه : افرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا لهم فانه قد قيل : « تاركوهم ما تركوكم [١] ».

قال الجاحظ معقّباً على قول عمر المذكور آنفاً : « بأنه (أي) عمر ، وصف الترك بأشد من وصف ابي زبيد الأسَد [٢] * ؛ فنهى كما ترى عن التعرض لهم بأحسن كناية [٣] ». الا ان عمر لم يشذّ عن عامة العرب الذين اذا ضربوا المثل في العداوة والشدة قالوا : « ما هم الا الترك والديلم » . ونحن نذكر بعض ابيات شعراء العرب التي اوردها الجاحظ في هذا الباب ، يقول عَمَلَّس بن عَقيل بن عُلَّفة [٤] :

« تبدّلتُ منه بعد ما شاب مَفرِقي عداوةَ تُركيّ وبغضَ ابي حَسلِ »

وشيخنا يعلق على أبي حِسل بقوله : هو الضب . والعرب تقول هو أعقّ من

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٨ .

(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٨ .

(*) روي ان عمر نهى ابا زبيد الطائي عن وصف الاسد ، لان ذلك مما يزيد رعب الجبان وهول الجنان ويُقل من رعب الشجاع (فضائل الاتراك ص ٥٨) . وفي خلافة عثمان بن عفان، دخل ابو زبيد الطائي عليه ، وكان نصرانياً من زوار الملوك والعجم خاصة ، وكان عثمان رضي الله عنه يقربه على ذلك ويدنيه منه ، فحضر ذات يوم عثمان وعنده المهاجرون والانصار ، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارهم ، فالتفت عثمان الى ابي زبيد فقال :

– يا اخا تبع المسيح اسمعنا بعض قولك ، فقد انبئت انك تجيد وصف الأسد . فوصف له ابو زبيد الأسد وصفاً دقيقاً ارتاح له عثمان وقال :

– اكفص لا أم لك فلقد رعبت قلوب المسلمين ولقد وصفت حتى كأني انظر اليه . راجع المحاسن والاضداد ص ١١٢ – ١١٥ ، طبقات فحول الشعراء : ٥٠٥ – ٥١٠ .

(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٦ .

(٤) هو ابن عقيل بن علفة المرّي من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض الشاعر المشهور من شعراء غطفان (معجم الشعراء للمرزباني : ١٦٠) . روى الجاحظ من ابياته :

اكلت بنيك اكل الضب حتى وَجدتَ مرارة الكلأ الوبيل

فلو ان الاولى كانوا شهودا منعت فناء بيتك من بجيل

ومنه ايضاً :

اكلت بنيك اكل الضب حتى تركتَ بنيك ليسَ لهم عديد

الحيوان ٦ / ٤٤ .

الضب لأنه يأكل اولاده ولم يرعب قلوب اجناد العرب مثل الترك [١] .

ويقول خَلَفُ الأحمر [٢] :

« كأني حين ارهنُهم بَنيي دفعتُهمُ الى صُهبِ السِّبالِ »

واياهم عنى اوس بن حجر في شعره [٣] :

« نكَبَّتْهَا ماءَهم لما رأيتهم صُهبَ السِّبال بأيديهم بيازيرُ »

***

ومن الجدير بالذكر ان العرب كانوا يتصورون الأتراك قبل اتصالهم بهم امّة خشنة بعيدة عن الحضارة والمدنية ، وقد تميزوا بالعداوة والشدة وقسوة القلوب كما تتطلب الشجاعة والبطولة في الحرب. وفضلاً عن ذلك فهم كانوا «اصحاب عَمد وسكان فياف وارباب مواش لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولا الفِلاحة ولا الهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق انهار ولا جباية غلاّتٍ . ولم تكن هممهم غير الغزو والغارات والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان. وكانت هممهم الى ذلك مصروفة ، احكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٧٦ .

(٢) هو خلف بن حيان بن محرز البصري المعروف بالاحمر (ابو محرز) احد رواة الغريب واللغة والشعر ونقاده ، تتلمذ عليه ابو نواس . من آثاره كتاب جبال العرب وما قيل فيها من الشعر وديوان شعر .

معجم المؤلفين : ١٠٤/٤ . وله مقدمة في النحو طبعناها بدمشق – الميمني

(٣) هو اوس بن حجر بن عتاب بن عبدالله بن نمير بن اسيد بن عمر التميمي ، شاعر جاهلي كان كثير الاسفار واكثر اقامته عند عمرو بن هند في الحيرة من آثاره ديوان شعر .

معجم المؤلفين ٢٦/٣

وسمرهم [١] » . كذلك يقول ابن الفقيه [٢] : « الترك اشدّ العدوّ بأساً واغلظهم كفاحاً واصبرهم على البؤس واقلّهم تنعماً » .

ولكن يختلج في النفس سؤال تصعب الاجابة عنه وهو : كيف اتفق للعرب ان يكوّنوا هذه الفكرة عن عداوة الاتراك في حين لا نرى اية علاقة في التاريخ بين العرب والاتراك من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية الا في زمن سيدنا عمر لبعد بلادهما بخلاف ما كان بين الاتراك والصين والفرس مثلاً . ولقد ذكرنا آنفاً ان الصينيين كانوا يسمون الاتراك « هيو – نغ – نو » ، معنـاه وحوش الجبال يرمزون بهذا الى خشونة طبيعتهم وقسوة قلوبهم . ولكن من اين جاءت للعرب فكرتهم عن عداوة الترك وشدتهم ؟ لعـل هذه قد انتقلت اليهم بطريق الفرس الذين يسكنون بين العرب والاتراك منذ بعيد .

نتابع فيما يلي بعض الوقائع التي تتعلق بهذا الموضوع ، بحيث ينعكس فيهـا تصور العرب للترك .

فأولاً ، روى الجاحظ انه خطب عبدالله بن عباس بمكة ، وعثمان محاصر في المدينة ، فقال جـاش الناس واهتزت قلوبهم حتى قالوا : « لو شهدهـا الترك والديلم لأسلموا »[٣] . اذاً فالعـرب تقيس قسوة القلوب بقسوة الترك وخشونة طبيعتهم .

ثانياً ، المحاورة التي جرت بين عبدالله بن المقفع وطائفة من النـاس بالمربد . وقد دعا عبدالله بن المقفع جماعة منهم وطرح عليهم هذا السؤال : أي الأمم اعقل ؟ فنظر بعضهم الى بعض وظنوا لعله اراد أهله من فارس فقالوا: فارس ، فقال عبدالله بن المقفع :

– ليسوا بذلك انهم ملكوا كثيراً من الارض ، ووجدوا عظيماً من الملك ،

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٠ .
(٢) راجع كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٣١٦؛ وكفاحاً قراءة الاستاذ الميمني؛ وفي الاصل: كفاراً .
(٣) راجع البيان والتبيين ١/٣٣٠ ، رسائل الجاحظ (فضل هاشم على بني أمية) ص ٨٤ .

وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فمـا استنبطوا اشيـاء بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم . فقالوا : فالروم ، فقال :

– اصحاب صنعة . فقالوا : فالصين ، فقال :

– اصحاب طرفة . فقالوا : الهند ، فقال :

– اصحاب فلسفة . فقالوا : السودان ، فقال :

– شر خلق الله ، فقالوا (اخيراً) : الترك . فقال عبدالله بن المقفع : كلاب ضالة (ضارية ؟) وفي بعض الأصول : كلاب مختلسة وفي بعضها كلاب مختلة[١] » .
انما يؤكد ابن المقفع الفكرة الشائعة عن شراسة في طبع الاتراك قبل ان يصدر حكمه بكون العرب أعقـل الأمم وأفضلها ، سواء أكان يعتقد ذلك حقاً أم يتظاهر به للتقرب الى أسياده .

ثالثاً ، قصة الكندي المتوفى ٢٥٢ ه. الفيلسوف العربي؛ استأجر معبد احد اصدقاء شيخنـا الجاحظ بيت الكندي وأقام فيـه نحو سنة ، حتى اشتكى الكندي من كثرة الدخول والخروج وكثرة العيال والزوّار في البيت فقال :

– « فأنتم اشر علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم . اذ كنتم أحضر أذى وأدوم شرّاً [٢] » .

ربما كان اعتقاد العرب بقسوة الأتراك، حافزاً لهم على مبادلة القسوة بالقسوة حتى ان عمر بن عبد العزيز لم يتورّع عنهـا ، فقد روت المصادر ، ان رجلاً من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز قال : ما رأيت عمر رحمه الله قتل أسيراً الا واحداً من الترك ، كان جيء بأسارى من الترك فأمر بهم ان يسترقّوا فقال رجل ممن جـاء بهم : يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هـذا – يشير الى أحدهم – وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم ! فقـال عمر : فدونك فاقتله ، فقام اليه فقتله [٣] .

(١) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٢٤ .
(٢) راجع كتاب البخلاء للجاحظ ، ص ٧٦ .
(٣) راجع فجر الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٨٧ .

ولنتأمل أيضاً قول الهادي الخليفة العباسي للذين أتوه برأس الحسين بن علي ، قائد ثورة العلويين اذ ذاك سنة ١٦٩ هـ. فإنه زجرهم وقال :

ـ « أتيتموني مستبشرين كأنكم اتيتموني برأس رجل من الترك والديلم[١] ».

وأخيراً فلنتساءل : هل العرب غيّروا رأيهم في الترك خصوصاً بعدما قدم الترك الى حاضرة الخلافة ودخلوا في دين الله افواجاً ؟ والجواب هو «لا» بدون أي تحفظ .

المعتصم هو الذي جلب أخواله الأتراك من المناطق الداخلية في ما وراء النهر واعتنى بتربيتهم وتنشئتهم على تعاليم الاسلام. وكان هؤلاء الأتراك أكثرهم من أبناء الأسر الأرستقراطية التركية. الا ان العرب لم يقلعوا أبداً عن تسميتهم بـ « العلوج » ، فقد روى لنا ابن طَباطَبا : « ركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم :

ـ « يا أبا اسحاق ! فقال له : مالك يا شيخ ! فقال :

ـ لا جزاك الله خيراً عن الجوار ، جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج * من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا [٢] ».

وكلما تقدم الزمن قام الاتراك بخدمات جُلّى في قمع الثورات واعادة النظام في مختلف أنحاء المملكة ، الا أن العرب ازدادوا نفوراً منهم وبغضاً لهم وقالوا « لمن استنجد بهم ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينّك العبر[٣] » . الى يومنا هذا نجد أحمد أمين يكرر نفس الشيء فيقول : « ولكن هؤلاء العبيد والعلوج انتصروا عليهم . ولهذه الحادثة وامثالها أثر في ضعف نفسية العرب أمام الترك[٤] » .

---

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(*) العلوج : جمع العلج والعلج العير ، الحمار ، حمار الوحش السمين القوي . الرجل الضخم القوي من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكفار .

(٢) راجع الفخري لابن طباطبا ص ١٨٨ .

(٣) راجع بالتفصيل مقدمة هذا الكتاب او الطبري ٢٣١/١١ .

(٤) راجع ظهر الاسلام ، أحمد أمين ج ١ ، ص ٨ .

حاولنا ان نبين تصور العرب للترك قبل ما بدأت العلاقات التاريخية بضوء ما جاء عند الجاحظ وغيره ، وذكرنا بعض الوقائع التي تضيء اذهاننا حول هذا الموضوع . ولعله يعيننا ان نفهم بدء العلاقات الاولى بين العرب والترك وفتح ما وراء النهر ، وأهم من ذلك هو انه كيف كان تأثير هذا التصور في سيرة ولاة العرب في ما وراء النهر بالنسبة لسكان تلك البلاد وتطور سيرها . اذاً فلا مانع لدينا ان نتطرق الى هذه الأبواب .

الباب الثاني

استيلاء العرب على ما وراء النهر

بدء العلاقات بين العرب والترك

بعدما انهزم يزدجرد في المعركة العنيفة التي جرت في نهاوند « ٢١هـ ٦٤١م »، لم يتأتّ للفرس ان يقاوموا المسلمين بعدها في الوقائع التي دارت في شمال فارس وفي جنوبها حتى دخل الاحنف بن قيس بلادهم وتملك مدنها . فبدأ بالطبسين ثم هراة وتوجّه الى « نيسابور » والى « سرخس » يريد « مروالشاهجان » حيث يقيم « يزدجرد » وحالما سمع يزدجرد بمسير الاحنف الى مروالشاهجان خرج منها نحو « مروالروذ » فتعقبه الاحنف ثم خرج يزدجرد الى بلخ ولم يمكث بها. ودخل الاحنف بلخ على رأس جند الكوفة . فهرب يزدجرد الى خاقان ملك الترك بما وراء النهر . قال رِبْعي بن عامر في ذلك[1] :

« ونحن وردنا من هراة مناهـلا رِواءً من المروَيْنِ ان كنت جاهـلا
وبلخ ونيسابور قد شَقِيتْ بنـا وطوس ومروٌ قـد أزرنا القنابـلا
انخنا عليهـــا كورةً بعـد كورةٍ نفضهم حتى استوينـــا المناهـلا
فللّه عينـا من رأى مثلنـا معا غـَداة ازرنا الخيَل تركاً وكابلاً »

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ٧ : ص ٣٥٢ .

وقد كان يزدجر كتب رسالة الى خاقان الترك والى ملك الصغد والصين حينما كان بمروالروذ يستنجد بهم على العرب المسلمين[1] الذين أصبحوا يهددون بلاد الترك بعد اندفاعهم من الجزيرة واستيلائهم على بلاد الفرس بسرعة البرق فنهض خاقان الترك لامداد يزدجرد وحشد جنوده من أهل فرغانة والصغد ثم خرج بهـم وخرج يزدجرد معـه واجتاز النهر ودخـل خراسان وتوجه الى بلـخ حيث يلقى العرب .

ولنتذكر انه بعدما تمّ فتح خراسان كتب الاحنف الى عمر بذلك . فلمـا وصل كتابه الى عمر سرّ به حتى صاح هو الاحنف وهو سيد أهـل المشرق المسمى بغير اسمه[2] . إلا ان عمر بعد برهة ردّ عليه بقوله[3] : « لودِدت لو اني لم أكن بعثت الى خراسان جنداً ولوددت انه كان بيننا وبينها بحرٌ من نار » ، كذلك حذر الاحنف من التقدم بجنوده الى ما وراء خراسان من أرض المشرق فقال[4] : «أما بعد فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه . وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر وإياكم ان تعبروا فتنفضّوا » .

وفي الحقيقة صدقت الوقائع التي جرت من بعد ان سيدنا عمر كان مصيب الرأي بعيد النظر في تحذيره ، فقد سار خاقان الترك على رأس جنده ويزدجرد معه فعبر النهر وتوجه الى بلخ واضطرّ جنود الكوفة ان يتراجعوا الى مروالروذ وان ينضموا الى جيش الاحنف . وأعقبهم خاقان في تراجعهم وقد زاد عدد جنده بمن انضم إليه من الفرس حتى بلغ مروالروذ في جمع مهيب ورأى الاحنف دقة الموقف فانسحب بجنوده الى موضع يجعل نهر مروالروذ أمامهم ويقوم جبل من خلفهم . فلما أصبح جمع الناس وقال[5] : « انكم قليل وان عدوّكم كثير فـلا يهولنكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين »[6] ،

(١) راجع الطبري ج ٤ : ص ٢٦٣ .
(٣،٢) راجع الطبري ج ٤ : ص ٢٦٤ .
(٤) راجع الطبري ج ٤ : ص ٢٦٤ .
(٥) راجع الطبري ج ٤ : ص ٢٦٥ .
(٦) قرآن كريم .

ارتحلوا من مكانكم هذا فاسندوا الى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم وقاتلوهم من وجه واحدٍ .

ولم يكتف الاحنف بهذا بل حرص على ان يعرّف الترك وخاقانهم بأمر سيدنا عمر « فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه » واطمأن الى صحة النبأ حين رأى العرب لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولا يدعونهم لقتالهم ، فقد قام الجيشان أياماً والترك يغادون العرب ويراوحونهم ، فاذا جاء الليل تنحّوا عنهم .

ومن حسن طالع الاحنف ان جاء الخبر الى خاقان الترك بالقلاقل والفتن التي دبّرها وأثارها الصينيون فيما وراء النهر فرأى خطر الصين أخطر من العرب فاضطر الى الانسحاب لمجابهة الخطر الصيني. وفي الطبري ان خاقان الترك قال[1] « قد طال مقامنا وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط . وما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير فانصرفوا بنا » .

فانصرف هو وجنوده في نصف الليل ورجع الى ما وراء النهر ، فلما ارتفع النهار للمسلمين لم يروا شيئاً وأتاهم الخبر بانصراف خاقان الى بلخ وقد كان يزدجرد ترك خاقان بمروالروذ وخرج الى مروالشاهجان . فلما نزل خاقان بلخ في انتظار يزدجرد قال المسلمون للاحنف « ما ترى في اتباعهم » فقال « أقيموا مكانكم ودعوهم » نعم ! وهكذا بدأت العلاقات التاريخية بين العرب والترك وهذه أول موقعة جرت بينهم في سنة ٢٢هـ ٦٤٢م .

(١) راجع الطبري ج ٤ : ٧ ٢٦٥ .

عبور العرب النهر

وأخيراً جاوز العرب النهر برغم أوامر سيدنا عمر المارّ ذكرها وتقدموا فيما وراءه الى المناطق الداخلية . وفي عهد سيدنا عثمان توجه الاحنف بن قيس الى « طخارستان » وسار هو وجنوده على « الجوزان » وفتحها عنوة ثم فتح « الطالقان » صلحاً ثم فتح « الفارياب » وسار الى « بلخ » فصالحه أهلها ثم سار الى « خوارزم » وعبر الاحنف نهر جيحون فصالحه أهالي بلاد ما وراء النهر كما جاء في البلاذري ثم قدم على عثمان بعد ان استخلف قيس بن الهيثم على هذه البلاد[1] .

ويعيننا البلاذري في صدد عبور العرب النهر بروايات متعددة فمثلاً يقول[2] « ان ابن عامر عبر النهر وأحرم لله شكراً » وفي موضع آخر[3] « ان الحكم بن عمرو الغفاري وكان والياً على خراسان وكانت له صحبة هو أوّل من صلى وراء النهر » وفي عهد معاوية ان سعيد بن عثمان أول من قطعه[4] وهناك رواية أخرى يحدثنا بها البلاذري[5] « ان يزيد بن معاوية ولّى سلم بن زياد فصالحه أهل خوارزم على أربعمائة ألف وحملوها إليه وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن العاص الثقفي . وكانت أوّل عربيّة عُبر بها النهر» .

وفي زمن معاوية استولى العرب على خراسان وولى معاوية عبيد الله بن زياد وهو لا يزال ابن خمس وعشرين سنة ٥٤هـ . فقطع النهر في ٣٤٠٠٠ مقاتل وقصد الى بخارى فارسلت « خاتون » ملكة بخارى الى الترك تستنجدهم واستولى العرب على « بخارى » و « رامدين » و « بيكند » . ثم ولّى معاوية سعيد بن

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٧٥ .
(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٧٦ .
(٣) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٦ .
(٤) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٧ .
(٥) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨١ .

عثمان بن عفان خراسان سنة ٥٥هـ فقطع النهر بجنوده ودخل مدينة بخارى ثم زحف الى « سمرقند » وما زال يضيّق عليها حتى فتحها . ويمدح يزيد بن مفرغ سعيد بن عثمان فيقول(١) :

« لهَفي على الأمر الذي ... كانت عواقبـه الندامَهْ
تركي سعيداً ذا النَّدى ... والبيتُ ترفعه الدِّعامه
فُتحت سمرقنـدُ له ... وبنى بعرصتها خيامَه
وتَبِعتُ عبد بني علا ... ج تلك أشراط القيامه

وفي هذه الحركات العسكرية استشهد قثم بن العباس بن عبد المطلب وكان مع سعيد بن عثمان. فلما بلغ خبر شهادته الى أخيه عبد الله بن عباس قال : شتّان ما بين مولده ومقبره(٢) . ولما توفي معاوية ولّى ابنه يزيد سَلْم بن زياد عاملاً على خراسان (٦١هـ) فسار الى « خوارزم » وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي ، وكانت أول عربية عبرت النهر . وأقام سلم بن زياد بالصغد ، وسرح جيشاً الى خجندة ، وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء نهر جيحون وكان فيهم اعشى هَمْدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيش وفيه يقول الأعشى :

« ليتَ خَيلي يوم الخجندةِ لم تُهـ ... زَمِ وغودرت في المكرّ سليبـا
تحضر الطَّيْر مصرعي وتروّحـ ... تُ الى اللهِ في الدماء خضيبا »(٣)

وفي زمن الحجاج بن يوسف وُلـّي المهلّب بن أبي صفرة خراسان في سنة ٨٠هـ ٦٦٩م . فغزا مغازي كثيرة في بلاد الترك وقاتل قتالاً شديداً . ويشير

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ١١ : ص ٢٤٧ .
(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٠ .
(٣) راجع ديوان الاعشى ص ٣١٢ .

شيخنا الجاحظ إلى طعن الترك فيقول(١) : فهو (أي التركي) السمّ الناقع والحتف القاضي لأنه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل . ولا يؤمن وهقه ولا انتساف الفرس واختطاف الفارس بتلك الركضة ولم يفلت من الوهق في جميع الدهر إلا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش بن هلال ، وعبّاد بن الحصين ، وفتح المهلب كثيراً من البلدان كما ورد في البلاذري وانتقضت « الختل » في أيّامه فدوّخها ، وفتح « خجندة » وأطاعت له « الصُغد » و « كش » و « نسف »(٢) .

رغم بذل العرب جهودهم الكاملة لفتح ما وراء النهر فقد كان تقدمهم بطيئاً جدّاً . وكانوا يعانون مقاومة شديدة من سكّانها الأتراك . ولم يمكنهم توطيد أقدامهم الى ان جاء قتيبة بن مسلم بن الباهلي والياً على خراسان ولّاه الحجاج ابن يوسف في سنة ٨٦هـ وأمره بفتح تلك البلاد؛ اذن فلنتطرق الى ما وراء النهر وفتحها على يد قتيبة القائد المظفر في هذه الفتوح .

بلاد ما وراء النهر وموقعها الجغرافي

هو اقليم تحده من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الجنوب الغربي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان وأشهر نواحيه بخارى وسمرقند وكش ونخشب ، وبيكند ، والصغانيان وفرغانة والصغد والشاش ، واشروسنة وخوجندة . كذلك يقول الاصطخري : « وأما ما وراء النهر فيحيط به من شرقيه فامر(*) ، وراشت

(١) راجع فضائل الاتراك (من رسائل الجاحظ) ج ١ : ٤٦ .
(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٨٦ .
(*) لعله دبامر .

وما يتاخم الختل من أرض الهنـد على خطٍّ مستقيم وغربيّه بلاد الغزيّـة ، والخرلخيّة ، من حد طراز ممتداً على التقويس حتى ينتهي الى فاراب وبيكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم حتى ينتهي الى بحيرتها وشماليّه الترك الخرلخية من أقصى بلد فرغانة الى الطّـراز على خط مستقيم »[١] .

وقد بسط الكلام جغرافيو المسلمين في مـا وراء النهر مثل الحَمَوي ، والاصطخري، وابن الفقيه، وابن خرداذبة ؛ فذكروا عيشة الاتراك وجودهم، وكرمهم ، وسماحتهم ، وتجارتهم ، ومتاعهم ، من الرقيق ، والمسك والزعفران، والاوبار ، والسمور ، والسنجاب ، والثعالب وغيرها من الحديد والخترة والبزاة التي تنقل كلها الى سائر الامصار من جملة ما يحتاج إليه الملوك والأمراء[٢] . ولعل هذه من أهم العوامل بجانب العوامل الأخرى التي ساقت العرب لفتح تلك البلاد بعدما غنموا خزائن كسرى بسقوط دولة الساسانيين .

الحالة السياسية

ألمعنا الى الحالة الاجتماعية والسياسية بين الاتراك في الفصل الأول إبّـان طلوع فجر الاسلام وقلنا اننا : بعدما انقرضت دولة « كوك ـ توركلر » التي أقامها الاتراك بأنفسهم لا نرى دولة قوية في آسيا الوسطى تجمع شمل الاتراك وتوحد عزمهم وارادتهم لمجابهة الخطر الذي أحاط بهم في جهة الشرق والغرب .

أما في الشرق فكان الصينيون يتحيّنون الفرصـة لتمزيق كلمة الاتراك وزعزعة دولتهم . وأما في الغرب فكان العرب بعدما وحّد الاسـلام قلوبهم وجعلهم أمة قوية اندفعوا خارج الجزيرة حتى وصلوا بـلاد الفرس واخذوا يدقّـون أبواب الترك بحملاتهم الجديدة حيث أنهم كانوا يعيشون بحالة انحلال عسكري وفوضى سياسية كما وصفها جب[٣] .

(١) راجع كتاب مسالك الممالك للاصطخري ص ٢٨٦ .
(٢) راجع بالتفصيل الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٣) راجع حركة الفتح الاسلامي ، شكري فيصل ص ١٦٠ .

« كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بـ « الخان » سيداً لها . وتدفع له الجزية ... وكانت امارة صغديان مقسمة الى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاداة مرنة ... وكان أقوى ما يصل بينها من رباط انما هو تجارة الحرير مع الصين وأهم مراكزها سمرقند ، وبيكند ، وكش ، وكانت سمرقند أوفرها حظاً من النجاح في عالم التجارة ، ومنها كانت ترسل البعوث التجارية الكثيرة الى بلاط ملك الصين ... وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباطٍ ثانٍ هو سيادة أسرة معينة فيها جميع الأُسَر الأخرى ولم يكن رباطاً وثيقاً .

... وكان الى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قُراه ... أما الأراضي الخاضعة للترك والتي كانت تجتاحها القبائل فلم تنشأ فيها حكومة مركزية ... ومن ثم كانت الحروب والمنازعات ظاهرة ملازمة لها . « وكل شيء في هذه الاوضاع الاجتماعية والتفكك السياسي في حياة هذه الولايات كان في صالح الفتح العربي ... » .

قتيبة بن مسلم وفتح ما وراء النهر

لقد قام العرب بهجمات عديدة على بـلاد ما وراء النهر لكنهم لم يحرزوا انتصاراً تاماً الا بعدما ظهر قتيبة بن مسلم الباهلي والياً على خراسان . فمنذ أيام عمر كان العرب يغيرون ويتجاوزون النهر ويحرصون على الفتوح ومـع ذلـك لم تسنح لهم الفرصة الصالحة التي يتحينونها بسبب القلاقل والاضطرابات والفتن التي ظهرت في زمن عثمان واستمرّت مدة طويلة وأدّت الى قتله وقتل كثير من المسلمين . ولم يرجع الأمن والاستقرار السياسي في البلدان الاسلامية إلا بعـد ارتقاء الوليد بن عبد الملك من خلفاء الأمويين على عرش الخلافة في سنة ٨٦هـ ٧٠٥م .

وفي الحقيقة كان عهد الوليد عهد فتح فاتسعت البلاد الاسلامية شرقاً وغرباً

وعاد الأمن والسلام وتواصلت الفتوح التي بدأت أيام الخلفاء الرشدين .

أصبح الحجاج والياً على العراق وانضمت الولايات الشرقية الى ولايته أيضاً . ولم تكن الثغور الشرقية مأمونة من غارات الاتراك بل كانت معرضة دائماً لهجرتهم الطبيعية من المناطق الداخلية في آسيا الوسطى . لأن هجرات الاتراك الى تلك الجهة كانت مستمرة من أوائل القرون الأولى قبل الميلاد الى القرن الخامس بعده . وفي القرن الخامس هاجرت إليها القبائل التي تسميها المصادر العربية الهيطل من بطون الاتراك .

وكان الحجاج يأمل افتتاح طريق التجارة التاريخية التي لعبت دوراً هاماً في ازدهار الحضارة الاسلامية أولاً وسدّ طريق هجرة الاتراك الى الغرب ثانياً فبهذه البواعث المهمة أراد الحجاج فتح تلك البلاد.وقد ساعدت الحالة الاجتماعية والتفكك السياسي بين الاتراك اذ ذاك في تنفيذ عزائم الحجاج على يد قائده العظيم قتيبة بن مسلم . فقد كانت انقرضت دولتهم في الشرق والغرب بدسائس الصينيين وزالت سطوتهم ، وأسوأ من هذا كلّه ان الوحدة بين بطون الاتراك تمزقت والروابط القومية تضعضعت حتى فقدوا منبع قوتهم ومصدر قدرتهم . فهذه الأحوال كلها سهلت للعرب فتح بلاد الترك واقامة سيادتهم بصورة يندر مثلها في التاريخ .

سقوط مدن ما وراء النهر : بيكند

لما وصل قتيبة الى مرو أعاد الأمن والصلح في تلك المنطقة وأعدّ جيشه لفتح ما وراء النهر ثم سار الى « خوارزم » و « سمرقند » و « بخارى » وقد كانوا كفروا بعد فتحها الأول وبلغ ما لم يبلغه المهلب . فلما وصل « الطالقان(*) »

(*) الطالقان : بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ .

أتاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان(*) وأعطاه الطاعة ثم سار قتيبة الى « اخرون » و « شمان » وهما من طخارستان فصالحه ملكها[1] .

وكان سقوط بيكند(**) في سنة ٨٧هـ أكبر انتصار أحرزه قتيبة في ما وراء النهر . لأن بيكند من أكبر مدن التجارة وأشهرها فيما وراء النهر وهي كالمحور لطريق التجارة الصينية . فلما سار قتيبة نحو هذه المدينة شاع خبره وسارع الاتراك من بخارى والصغد وغيرها لامداد « بيكند » حيث عزموا على ان يكون لهم وقعة حاسمة مع العرب فلذلك قطعوا الطريق ولذلك لم يصل الى قتيبة رسول ولا خبر الا بعد شهرين وأبطأ أيضاً خبره الى الحجاج الذي يشرف عليه في العراق .

ومضى قتيبة في تنفيذ خطته فحاصر المدينة واشتدت الحرب بين الفريقين وأخيراً طلب أهل بيكند الصلح ، فصالحهم واستعمل عليهم عاملين من قِبَله وارتحل عنها . وانتهز الاتراك فرصة غياب قتيبـة فحملوا على العرب وقتلوا عامله وعاد قتيبة مرة أخرى فنقب سورهم ودخلهم عنوة وقهراً ودمّر السور وقتل من كان بها من المقاتلة ، « وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى وما لم يصيبوا بخراسان مثله »[2] فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع الى « مرو » وبدأ يستعد لفتح بخارى .

---

(١) راجع الطبري جـ ٨ : ص ٦٠ .

(*) الصغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الاعمال بترمذ .

(**) بيكند : بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى . وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء خربت منذ زمان انظر : الحموي .

(٢) الطبري جـ ٨ : ص ٦٣ .

رسالة طرخون

Among Arabic Manuscripts; p. 142

كانت بخارى من أعظم مدن مـا وراء النهر وأكثرها غناء وأجلها يقول الاصطخري « فاني لم أرَ ولا بلغني في الاسلام بلدٌ أحسن خارجاً من بخارى لأنك اذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء . وليس بما وراء النهر وخراسان بلدة أهلها أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة وذلك مخصوص بهذه البلدة »[1] .

سار قتيبة نحو بخارى سنة ٨٩هـ . وكان ملكها يومئذ « وردان خذاه » فعبر النهر من « زم » فلقيه اتراك الصغد « وكش » ونسف في طريق المفازة(*) فقاتلوه وغلب عليهم . ومضى الى بخارى فنزل خرقانة(**) السفلى عن يمـين « وردان » فلقيه الاتراك واقتتلوا قتـالاً شديداً فظفر عليهم . وكان مسير قتيبة نحو بخارى بطيئاً جدّاً . لأن الاتراك يقطعون المفازة ولا يجد هو إليها سبيلاً ولهذا اضطرّ قتيبة للرجوع الى مرو[2] .

وفي السنة التالية عزم قتيبة على فتح بخارى لأن الحجاج كان يضيق عليه ويعاتبه من العراق . وخرج قتيبة غازياً نحو بخارى وحاصر المدينة واستمرت المحاصرة أربعة أشهر وبعد قتال عنيف سقطت بخارى ودخل قتيبة المدينـة

---

(١) راجع كتاب مسالك الممالك للاصطخري ص ٢٦٣ .

(*) المفازة : مساحة واسعة بين مدينة مرو وبين مدينة أمويه وهي ذات رمال وغضى . الأخبار الطوال : ٣٢٧

(**) خرقانة : في معجم البلدان ورد : خرقان قرية من قرى سمرقند . وخرقانة موضع؛ للحموي .

(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ٦٧ .

وقتلهم قتلاً ذريعاً وسبى منهم خمسين ألف رأس[١] . ثم سار الى « شومان »(*) فحاصرها وفتح القلعة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم سار الى « كش » و « نسف » ففتحها وامتنعت فارياب فأحرقها فسميت المحترقة[٢] .

وسير قتيبة أخاه عبد الرحمن من « كش » و « نسف » الى الصغد حيث كان ملكها « طرخون »(**) فقبض عبد الرحمن على طرخون مع ما كان قد صالح قتيبة عليه ودفع له رهناً ما كان معه . وقتل طرخون نفسه بعد ما تأثر بالهدنة التي املاها قتيبة نفسه وقال[٣] :

« – ليس بعد سلب الملك الا القتل فيكون ذلك بيدي احبّ اليّ من ان يتولاه غيري » فاتكأ على سيفه حتى خرج من ظهره » .

فلما سقطت بيكند ، وبخارى وغيرهما من مدن ما وراء النهر ولم يبق هناك أية مقاومة من سكانها والتحق به كثير من الامراء والملوك الذين يحكمون في حوض النهر واثخن فيهم وغلبهم إما صلحاً وإما عنوة وقهراً ، وجد الطريق أمامه ممهّداً لفتح سمرقند .

سمرقند

بعدما حوى قتيبة مدن خوارزم شاه كان من الطبيعي ان يتقدم الى فتح سمرقند . فأمر أخاه عبد الرحمن بالزحف الى سمرقند – مركز الصغد – وكان

---

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ٣ : ص ٣٥٦ .

(*) شومان : بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون وهو من الثغور الاسلامية وفي أهله قوة وامتناع عن السلطان ؛ راجع الحموي .

(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ٧٩ .

(**) طرخون : وقد ورد أيضاً « طرخان » ولعله لقب ملوك الاتراك الذين كانوا يحكمون في سمرقند Encyc. of Islam 4/129 . فنحن نرى حين تقدم العرب في فتح ما وراء النهر « طرخون » محلية يحكمون الأراضي المختلفة في ما وراء النهر (للمؤلف) .

(٣) راجع الطبري ج ٨ : ص ٨١ .

يضمر في قلبه ان تكون « خوارزم » و « الصغد » كقريظة والنضير من قبائل اليهود في المدينة. ثم لحق هو بأخيه وأخذ يحاصر سمرقند. واستنجد أهل سمرقند بالملوك في جوارهم وقالوا « ان العرب إن ظفروا بنا عادوا اليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لانفسكم ، فاجمعوا على ان يأتوهم وأرسلوا إليهم »[١] .

فنهض ملك الشاش وفرغانة لامداد أهل سمرقند وجهزوا جيشاً وولوا عليهم « ابن خاقان » وسار هذا الجيش حتى قرب من سمرقند فبعث إليهم قتيبة جنداً بقيادة أخيه صالح بن مسلم . واقتتلوا قتالاً عنيفاً « ولم يرَ قوم كانوا أشد من أولئك الاتراك »[٢] .

ولم يمكن سقوط سمرقند الابعد قتال عنيف ومحاصرة مديدة . لأن أهل سمرقند كانوا مثابرين على القتال . ونصب قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها واشتدّ القتال وأمر قتيبة رجاله ان يبلغوا ثلمة السور فجعلوا التِرسَة على وجوههم وحملوا فبلغوها ووقفوا عليها ورماهم أهل سمرقند بالنشاب وغير ذلك . وأخيراً دخل قتيبة المدينة وتعجب لجمالها وحسنها وقال لأصحابه : شبّهوها . فلم يأتوا فيها بشيء فقال : « كأنها السماء في الخضرة وكأن قصورها النجوم الزاهرة . وكأن أنهارها المجرّة »[٣] .

فصالح قتيبة أهل سمرقند على ألف ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام وان يعطوه في تلك السنة ثلاثين ألف رأس ، وان يخلوا المدينة لقتيبة فلا يكون فيها مقاتل الى ان يبني فيها مسجداً . واشترط لنفسه أيضاً ان يكون له أموال بيوت النيران وحليـة الأصنام . ويقول الطبري في ذلك[٤] « وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم وأخذ ما عليها من الحلية وأمر بها فأحرقت . فجاءه « غوزك » — ملك هذه المنطقة — فقال :

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ٨٥ .
(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ٨٥ .
(٣) راجع نهاية الأرب في فنون الأدب ج ١ ص ٣٦٧ .
(٤) راجع الطبري ج ٨ : ص ٨٥ .

« ان شكرك عليّ واجب لا تتعرض لهذه الأصنام . فان منها أصناماً من أحرقها هلك » فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي . فدعا بالنار ، فكبر ثم شعلها فاحترقت فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال » .

وارتحل قتيبة راجعاً الى « مرو » بعدما استخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً مع آلات الحرب . واتخذ تدابير حازمة للمحافظة على الأمن والسلامة وقال[١] « لا تدعن مشركاً (أي الترك) يدخل باباً من أبواب سمرقند الامختوم اليد وان جفّت الطينة قبل ان يخرج فاقتله وان وجدت معه حديدة سكيناً فما سواه فاقتله . وان غلقت الباب ليلاً فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله » .

ولم يكتف قتيبة بفتح سمرقند بل استمر في تحركاته العسكرية وعبر نهر جيحون ميمماً شطر بخارى . وجمع من أهل بخارى وكش ، ونسف وخوارزم « ٢٠٠٠٠ » مقاتل للقتال معه فوجههم الى الشاش(*) . وتوجه هو الى فرغانة . فاتى خوجندة ، ثم اتى « كاشان » — مدينة فرغانة — وأتاه الجنود الذين وجههم الى الشاش وقد فتحوا وأحرقوا أكثرها .

فلما كان في الشاش وقعت حادثة عظمى بالنسبة لقتيبة بن مسلم وهي موت الحجاج في هذه السنة ٩٥هـ/٧١٣م ، وهو الذي كان يشرف على حركاته العسكرية من العراق ويشجّعه في جميع مهامّه . الا ان قتيبة لم يتوقف في سيره بل مضى الى فرغانة وبعث جيشاً كثيفاً الى « كاشغر » وبذلك بلغت حدود الاسلام الى الصين . وهذا القائد المظفر لم يكن ليقنع بفتح ما وراء النهر بل حاول فتح الصين ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيق عزمه لأن الفتنـة ثارت حوله حتى قُتل في خراسان وقتل من كان معه من أهله واخوته في سنة ٩٦هـ/٧١٤م . نعم قتل قتيبة وهو ابن سبع وأربعين سنة بعدما حقق من الاعمال الجليلة ما يلي كما قال جب:

(١) راجع البداية والنهاية ج ٩ : ص ٨٦ .
(*) الشاش : — ما يقال له اليوم طشقند — مدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد الترك ؛ الحموي .

« كانت طخارستان الدنيا قسماً من الامبراطورية الاسلامية ... واعتبرت بخارى مفتوحة ابداً واستعمرت تدريجيّاً ... أما الصغد فظلّت تعتبر معادية تقوم فيها حاميات قوية في سمرقند وكش ... أهملت خوارزم كقوة عسكرية واتخذت معسكراً . بقيت الممالك وراء سيحون مستقلة وقوية نسبياً تؤيدها القوى التركية في الشمال الشرقي منها كما يؤيدها بعض التدخل من الصين ... لم تخضع اشروسنة ولكنها لم تكن فيما يظهر عقَبَة في وجه الجيوش الاسلامية ... واحتفظت البلاد بالأسر الحاكمة في كل مكان كممثلة للشعب المحكوم وأداة للادارة المدنية ... وأما الادارة الفعلية فقد تسربت من أيديهم الى يد الوالي او وكيل الحاكم العربي في خراسان »[1] .

حركات الفتوح بعد موت قتيبة

ولم تتوقف حركة الفتح الاسلامي بموت قتيبة بل استمر فيها الذين خلفوه بعده في ولاية خراسان . ففي عهد سليمان بن عبد الملك سار يزيد بن المهلب الى جرجان ضد الحاكمين من الاتراك سنة ٩٨هـ . فابتـدأ بقهستان وحاصرها . فطلب الصلـح « صول » – دهقان – قهستان على ان يؤمّنه على نفسه وماله ليسلّم له المدينة . فصالحـه يزيد بن المهلب ودخل المدينـة وغنم من الأموال والكنوز والسبي ما لا يحصى وقتل أربعة عشر ألف تركي[2] .

بعدما صالح يزيد « اصبهبذ » حاكم طبرستان – سار على أهل جرجان طمعاً في بلادهم وأموالهم « وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم ويأكل من ذلك الطحين خبزاً »[3] فأتاها وحاصرها واستمر في محاصرته

(١) راجع حركة الفتح الاسلامي ، شكري فيصل ص ١٦٩ .
(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ١١٩ .
(٣) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .

الشديدة أكثر من سبعة أشهر حتى خضع له الأهالي (أي الاتراك) ونزلوا على حكمه فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين الى يمين الطريق ويساره . وعلى ما جاء في الطبري « ان الذين قتلهم يزيد أربعون ألفاً »[1] فلذلك كان عمر بن عبد العزيز يسمي يزيد بن المهلب جباراً وقد كان يقول : « هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم »[2] لأنه أجرى الماء على الدم ونصب عليـه ارحاء ليطحن بدمائهم فطحن واختبز وأكله يزيد .

هكذا استمرت الحروب في ما وراء النهر بين العرب والاتراك مدة طويلة وكان العرب دائماً يلقون مقاومة عنيفة من الاتراك ولم تزل هذه المقاومة الشديدة الى ان جاء نصر بن سيار الكناني والياً على خراسان سنة ١٢٠هـ .

وفي الحقيقة كان نصر بن سيار عاقلاً حازماً شجاعاً مدبراً مجرّباً مكث والياً على خراسان الى سنة ١٣٠هـ . وكان قبل ولايته من أمراء الاجناد في خراسان بحيث عرف أحوال تلك البلاد وخصائصها الطبيعية . وغزا نصر ما وراء النهر في سنة ١٢١هـ وسار الى الشاش بجيش كثيف يبلغ عدده عشرين ألفاً من أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف .

ولما بلغ خبره الى « كورصول » - خاقان الترك – ألـّف جيشاً يبلغ عددهم خمسة عشر ألفاً لمجابهة نصر ووصل الى سواحل نهر سيحون واخذ مكانه أمام نصر وجعل يضيق عليه . الا ان القدر كان في عون العرب فأسر خاقان الترك بأيدي العرب في ليلته التي خرج فيهـا سرّاً هو ورفقاؤه للبحث عن نصر وموقعه الحربي[3] . فاعطى « كورصول » فدية للنجاة أربعة آلاف بعير من ابل الترك وألف بردون . فاستشار نصر أصحابه فأشاروا باطلاقه فلم يصوبهم وقال « لو أعطاني ما طلعت عليه الشمس ما أفلت من يدي » وأمر بقتله وصلبه على

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٢٩ .
(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ٢٥٦ .
(٣) راجع الطبري ج ٨ : ص ٢٦٩ .

شاطىء النهر . وهكذا قتـل « كورصول » الذي غزا اثنتـين وسبعين مرة وشهد بعضاً من أهم الحروب التي وقعت بين العرب والاتراك[1] .

وهكذا أمكن توطد اقـدام العرب فـيما وراء النهر وتبدّد حلم الاتراك باسترداد بلادهم التي احتلها العرب نهائياً وذلك سنة ١٢٣هـ . وفي سنة ١٢٥ هـ توفي هشام بن عبد الملك وتضعضع مركز الخلافـة . فأقام نصر بن سيّار في خراسان وأقلع عن غزواته في ما وراء النهر خوفاً من القلاقل والفتن. ثم ظهرت دعوة بني العباس وانتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وذلك سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وبانتهاء الدولة الأموية انتهت الفتوحات الاسلامية التي وصلت حدودها في الشرق الى الصين وفي الغرب الى الأندلس .

والمهم بعد الفتح هو سيرة الولاة ومعاملتهم للشعب المحكوم ، وسنحاول بحثه في الباب القادم ان شاء الله .

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ١ : ص ٢٨٦ .

الباب الثالث

سيرة ولاة العرب فيما وراء النهر واثرها في تكوين فكرة الاتراك عن الاسلام في الوهلة الاولى كما تنعكس في روايات الجاحظ بصددها

الدعوة الى الاسلام فيما وراء النهر

اذا استثنينا بعض الرجال الذين قاموا لنشر الاسلام غالباً بجهودهم الفردية ، فلم يكن ولاة العرب الذين يمثلون الدولة الاموية في خراسان يجدّون في نشر تعاليم الاسلام واحكامه ، كما انهم لم يلتزموا بها في سياستهم ومعاملتهم بين الامم والأقوام الذين عاشوا في البلاد المفتوحة ودخلوا تحت سلطتهم بعدمـا زالت دولتهم وغابت شوكتهم خاصة فيما وراء النهر ومدن التركستان .

استولى العرب على جميع مـا وراء النهر ، وفتحوا مدن التركستان الغنية وغنموا ما فيها . وكان ولاة العرب يطلبون الجزية والخراج ، ويحرصون على جمع الأموال بطريق غـير شرعي بالظلم والتشديد على سكان البلاد ، ولم يهمهم نشر الاسلام بين الأمم المحكومين أبداً. وأغرب من هذا كله «كان عمال بني أمية يشتدون في تحصيل الجزية ، فأخذ أهـل الذمة يدخلون في الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وفعل ذلك عمـال بني أمية في أفريقية وخراسان وما

وراء النهر . فانهم ظلوا الى أواخر عهد بني أمية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم[1] » .

عمر بن عبد العزيز

استمر ولاة العرب على هذا المنوال الى ان ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) وكان عمر بن عبد العزيز فاضلاً يؤثر الدين على الدنيا ، وينبذ السياسة القومية العربية جانباً ، يخاف يومه ويرجو غده كما يقول في الفخري[2] : « وكان من خيار الخلفاء عالماً زاهداً عابداً تقياً ورعاً سار سيرة مرضية ومضى حميداً » .

وكتب عمر الى ولاته ان ينشروا الاسلام بين الأمم المحكومين ويدعوهم الى هدي الله عز وجل ، ويضعوا الجزية عمن أسلم ويعاملوهم بالحلم والسلم ، يقول في رسالته : فضع الجزية عمن أسلم ، فان الله انما بعث محمداً (صلعم) هادياً ولم يبعثه جابياً . ولعمري لعمر أشقى من ان يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه . وبهذه السياسة الجميلة التي تستهدف انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة بين الأمم المغلوبين قد أمكن لكثير من الاتراك دخولهم في الاسلام .

رغم رسالة عمر السالفة لم ير الولاة بما وراء النهر لزاماً عليهم ان يغيروا سياستهم التي تعتمد على الجبر والشدّة بين سكان تلك البلاد . وكان عامل عمر على خراسان الجرّاح بن عبدالله الحكمي ، وكان لا يبالي بنشر الاسلام ويظلم الاتراك ويسفك دماءهم ، ولما قدم الى خراسان والياً كتب الى عمر رسالة يقول فيها[3] : « اني قدمت الى خراسان فوجدت قوماً (أي الترك) ، فليس يكفهم الا السيف والسوط » . ولعل الجملة الواحدة هذه تعطي لنا فكرة كافية عن

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان ج ٤ : ص ٨٨ .
(٢) راجع الفخري لابن طباطبا ص ١٠٢ .
(٣) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .

سيرة ولاة العرب فيما وراء النهر وسياستهم التي ساروا عليها . فقس أنت اذا كانت هذه عقلية رجل مثل الجرّاح الذي تلقى أوامر صريحة من عمر فكيف يستقر الأمن والصلح وتقل الثورات والقلاقل ضد الحكومة او يكثر الاقبال على الاسلام بين الناس .

وقد رد عمر بن العزيز على الجرّاح رداً صريحاً وعنيفاً حيث قال : « فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم والسلام[1] » .

ولا نعدم الدليل على استمرار الجراح في عدم الأخذ بسياسة العدل والحق ، فقد حكى لنا الطبري عن وفد من أهل خراسان قدموا الى حاضرة الخلافة واستقبلهم عمر بن عبد العزيز في أيام ولاية الجراح بن عبدالله الحكمي ، قال عمر (وهو جالس) لرجل من الوفد :

– أما انت من الوفد ؟ فقال :

– بلى . قال عمر :

– فما يمنعك من الكلام ؟ فقال :

– يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ! ومثلهم قد أسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج ! وأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول :

– « أتيتكم جافياً ، وأنا اليوم عصبي والله لرجل من قومي احب اليّ من مائة من غيرهم * » وبلغ من جفائه ان كُمّ درعه يبلغ نصف درعه ! وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ! قد عمل بالظلم والعدوان[2] » .

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٩ .
(*) وانت ترى من هذا كيف كان ولاة العرب يتعصبون للقومية العربية ويصرون عليها . للمؤلف
(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .

وبعدما سمع عمر بن عبد العزيز كلام الوفـد كتب الى الجرّاح : « انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع الجزية عنه ». وفرح الناس بهذا وسارعوا الى الدخول في دين الله أفواجاً ، ولكن العمال لم يرضوا باسلامهم وجاؤوا الى الجراح وقالوا:

— « ان الناس قد سارعوا الى الاسلام وانما ذلك نفوراً من الجزية فامتحِنهم بالختان ! » .

فوجد الجرّاح هذا الرأي موافقـاً لسياسة من أراد ان يفضح الناس الذين سارعوا الى الدخول في الاسلام وينظر هـل اختتنوا أم لا ؟ . فكتب الى الخليفة وأعلمه بذلك . ولما وصلت رسالته الى عمر كتب اليه كتابه الخالد الذي يفتخر به المسلمون في كل العصور وقـال : « ان الله بعث محمداً داعيـاً ولم يبعثه خاتناً » ومع ذلك لم يغض عمر بصره عنه وخصوصاً بعدما تأكد من أنه والٍ يستخف بالدماء ولا يبالي بنشر الاسلام ولا يعرف الا السيف والسوط فعزله . فلما بسط عمر عدله في البلاد المفتوحة خاصة فيما وراء النهر اجتمع أهـل الرأي من سكان سمرقند وجاؤوا الى عاملها وقالوا :

— « ان قتيبة غدر بنـا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العـدل والانصاف فأذن لنـا فليفد منا وفدٌ الى أمير المؤمنين يشكو ظلامتنـا ، فاذا كان لنا حق أعطيناه فإن بنا الى ذلك حاجة » فأذن لهم ، فوجهوا قوماً منهم فقدموا الى الشام . فلما سمع عمر بن عبد العزيز عن الوفد مـا أصابهم من قتيبة من اجتراء وتحامل في فتح بلادهم عنوة وقهـراً برغم الصلح الذي عقـده سعيد بن عثمان على مال يؤدونه للخليفة ، كتب الى سليمان بن أبي السَّري عامل سمرقند قائلاً : « واذا اهل سمرقند قد شكوا اليّ ظلمـاً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم . فاذا أتاك كتـابي فأجلِس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فاذا قضى لهم فاخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبـل ان ظهر عليهم قتيبة » . فأجلس لهم سليمانُ جميع بن حاضر القاضي . فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم ونيابذهم على سواء فيكون صلحاً جديداً.

فقال اهل الرأي وأصحاب الكلام فيما رواه الطبري : « هؤلاء القوم أقمنـا معهم وآمنونا وآمناهم [١] » .

سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم

ولكن ماذا حدث بعد موت عمر بن عبد العزيز ؟ هل الولاة اتبعوا طريقه وسلكوا مسلكه وسياسته التي تعتمد على الحلم والسلم والانصاف واعلاء شأن الحق والعدل ، ونشر الاسلام في البـلاد المفتوحة بين الأمم المغلوبة وخصوصاً بين الاتراك فيما وراء النهر ؟ أم انحرفوا عن الجادّة وصاروا أشداء على سكان هذه البلاد ، كما كانوا من قبل ، في حشد الأموال وطلب الجزية بعد اسلامهم ؟ والتاريخ مع الأسف انمـا يصدق من هذا السؤال الشق الأخير فقط . فنرى ان الدولة عادت الى سيرتها الأولى بعد ان مات عمر بن عبد العزيز . وبدأ العمال يظلمون الأتراك ويطلبون الجزية والخـراج منهم ، ولو كانوا مسلمين صادقين ، فكانت النتيجة ان ارتد كثير من أولئك الذين أسلموا بظلم العمال والولاة .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) تولى خراسان سعيـد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم* في سنة ١٠٢ هـ. وكان لا يبالي بأمور الدولة ، بل يعيش في ترف من الحياة ويتمتّع بنعيم الدنيـا ، ويترك تصريف الأمور الى عماله وأعوانه . فثارت القلاقـل والفتن التي أدت الى قتل كثير من الأتراك بسبب هؤلاء العمال الذين يعتدون على الناس وينسون الرحمة والشفقة .

ولما رفع الأتراك علم الثورة انضم اليهم كثير من الناس الذي يئنون من جور العمال حتى وصلوا الى سمرقند ، وهم يحلمون أن يطردوا العرب من بلادهم . وسار سعيـد « خذينة » مع جيشه على هؤلاء . فقطع النهر وغلب عليهم سنة

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٨ .

(*) وكان اهـل خراسان يلقبونه باسم « خُذَينة » ومعنـاه الدهقانة ربة البيت لانه كان رجلا ليناً مرناً . (المؤلف) .

(١٠٢ هـ) وبعدمــا تمت هزيمة الاتراك ، أمر سعيد جنوده ان لا يتبعوهم لأنهم « جباية أمير المؤمنين » يعني بـه أنه يأخذ منهم الأموال ، وان في استئصالهم ضياعاً لها . وفي رواية اخرى قال : « هم بستان أمير المؤمنين[1] » .

حسبك هذا دليلاً على سيرة ولاة العرب ونظرتهم الى البلاد المفتوحة في ما وراء النهر وسكانها . ولا نبالغ ان قلنا ان الولاة انما كان همهم لا لنشر الاسلام وتبليغ الرسالة بل كسب الأموال من مدن التركستان الغنية وحملها الى قصور الخلفاء والأمراء بعد ان يملأوا بيوتهم بتلك الثروة والمـال ، ولهذا لم تهدأ القلاقل والفتن في هذه البلاد المفتوحة أبداً .

أشرس بن عبدالله السلمي

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) تولى خراسان أشرس بن عبدالله السلمي (١٠٩ هـ) ، وعلى ما جاء في الطبري ان أشرس أراد ان يرسل جماعة الى سمرقند وغيرها فيما وراء النهر حتى يدعوهم الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية . فأشاروا عليه بأبي الصيداء صالح بن طريف والربيع بن عمران التميمي ، لأنهما عُرفا بين أصحاب أشرس وجلسائه بفضلهما وورعهما وتفانيهما في سبيل الله .

وتعاهد أبو الصيداء ذلك المسلم الغيور مع أشرس قبل مـا خرج في سبيل الدعوة على أن من أسلم لم تؤخذ منه الجزية ، فانمـا خراج خراسان على رؤوس الرجال . فصوب أشرس رأي صديقه وقبله . ولعـل أبا الصيداء لم يطمئن الى عهد أشرس ، لما كان يعرفه من سيرة الولاة والعمال فقال : « فاني أخرج فان لم يفِ العمال اعنتموني عليهم » .

فخرج أبو الصيداء في سبيل الدعوة ودعـا الناس من أهل سمرقند وما

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٠ ، الطبري ج ٨ : ص ١٦٥ .

حولها أن يدخلوا في الاسلام على ان توضع عنهم الجزيـة . فسارع النـاس الى الدخول فيه ، فجاء الخبر الى أشرس بأن الخراج قد انكسر ، فكتب اشرس الى عامل سمرقند : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقـد بلغني ان اهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وانما دخلوا في الاسلام نفوراً من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن اسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه » .

ثم إن أشرس عزل ذلـك العامل وولّى مكانه هانيء بن هانيء ليقوم هو بطلب الجزية والخراج من الذين أسلموا . فقـام ابو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم . واضطر هانيء ان يكتب الى أشرس قائـلا : « ان الناس قد أسلموا وبنوا المساجد » . فجاء دهاقين بخارى أيضاً الى أشرس وقالوا : « ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ! » فنقض أشرس عهده وكتب الى هانيء والى جميع العمال بخلاف وعده يؤكد عليهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه ، فأعادوا الجزية على من أسلم » .

كان ذلك ايذاناً بالقلاقل والفتن التي أدت الى قتـل كثير من الأتراك ، وذلك ان الناس امتنعوا من إعطاء الجزية وجهزوا للقتـال ، وامتنع من أهل الصغد سبعة آلاف فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند وعلى رأسهم أبو الصيداء وجماعة من أصحابه يناصرونهم . فكتب اشرس بوضع الخراج عنهم — خدعة حربية — فرجعوا وضعف امرهم، ثم طوردوا وأخذوا وحملوا الى مرو وحبسوا. وكان ابو الصيداء ورفاقه من جملة المسجونين . ومما جاء في الطبري[1] : « فألحّ هانيء والعمال في جباية الخراج واستخفوا بعظماء العجم (أي الترك) واقيمت عليهم العقوبات وحرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في اعناقهم واخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء » .

فمن اجل حرص الولاة وطمعهم في الأمـــوال بلغت الفوضى الى منتهى الدرجات واختل الأمن والصلح في مدن التركستان خصوصـاً بين اهالي الصغد

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٩٨ .

وبخارى فكفروا واستجاشوا الاتراك . وجمـع خاقان جنوده بتأييد من اهل فرغانة ودخل ما وراء النهر واسترد كثيراً من مدنهـا المحتلة ، وكان خاقان من حُلمه ان يطرد العرب من ما وراء النهر ويسترد جميع مدنها من ايديهم. ولكن الأقدار خانته هذه المرة ايضاً حتى دارت عليه الدائرة وقُتل . وذلك على ما جاء في الطبري : « ولاعب يومـاً بالنرد (نوع من اللعب) مـع « كورصول » – من أمرائه – فقمره كورصول . فتشاجرا فصك كورصول يد خاقان فكسره . فحلف خاقان ليكسرنّ يده . فتنحى كورصول وجمـع طائفة من رفقائه ثم بيّت خاقان فقتله (١١٩هـ ٧٣٧م) ». ويزيد الطبري «فلما بلـغ هشام ابن عبد الملك مقتل خاقان سجد لله شكراً » [١] .

خاقان الترك وولاة العرب

وما من شك ان موت خاقـان اراح هشام بن عبد الملك والعرب معه من هم عظيم . فان خاقان كان دائماً يتطوع لقيادة معارك شديدة ضد ولاة العرب ، مثل مسلم بن سعيد الكلابي ، وأسد بن عبدالله القسري ، وأشرس بن عبدالله السلمي ، والجنيد بن عبد الرحمن المري وغيرهم من مشاهير العـرب فيما وراء النهر . فقد سبق له ان هزم مسلم بن سعيد الكلابي في وقعة هائلة (سنة ١٠٦ هـ) لاذ منها مسلم بالفرار .

ثم جاء اسد بن عبدالله القسري (١٠٦ هـ) والياً على خراسان بعدما عزل مسلم وسار على سياسة التنكيل بالأتراك وخاصة الاغارة على اهـالي الختل[٢] . سارع خاقان الى ان يمدهم بقوته وزحف على أسد ، وقد كادت الحرب تنشب بين الفريقين لولا ان اسداً تراجع امام خاقان حتى وصل الى خراسان سالماً .

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ٢٣٩ .
(٢) راجع البداية والنهاية ج ٩ : ٣٢١ .

سفير هشام الى خاقان الترك

نعم ! هذا هو خاقان الذي اقضّ مضاجع العرب ، وان لم ينجح في طردهم من بلاد الترك المحتلة . وربما طمع هشام بن عبد الملك في استمالته اليه فأوفد اليه سفيراً يدعوه الى الدخول في الاسلام. ويفصل لنا معجم البلدان خبر هذا الوفد بلسان احد اعضائه حيث يقول[١] : « فدخلت عليه وهو يتخذ سرجاً بيده فقال للترجمان : مَن هذا ؟ فقال : رسول ملك العرب . فأمر بي الى بيت كثير اللحم قليل الخبز ، ثم استدعاني وقال لي :

– ما بغيتك ؟ فتلطفت له وقلت :

– ان صاحبي يريد نصيحتك ويراك على ضـلال ويحب لك الدخـول في الاسلام . قال : وما الاسلام ؟ فأخبرته بشرائطه وحَظْره وإباحته وفروضه وعبادته . فتركن أياماً . ثم ركب ذات يوم في عشرة أنفس مع كل واحد منهم لواء . وأمر بحملي معه فمضينـا حتى صعد تلاً وحول التلة غيضة . فلما طلعت الشمس امر واحداً من اولئك ان ينشر لواءه ويلوح بـه ، ففعل فوافى عشرة آلاف فارس مسلح كلهم يقول : جاه ! جاه ! حتى وقفوا تحت التـل وصعد مقدمهم فكفر للملك فما زال يأمر واحداً واحداً ان ينشر لواءه ويلوح بـه . فاذا فعل ذلك وافى عشرة آلاف فارس مسلح فيقف تحت التـل حتى نشر الألوية العشرة ، وسارت تحت التلّ مائة الف فارس مدجج . ثم قال للترجمان قل لهذا الرسول يعرّف صاحبه :

– « ان ليس في هؤلاء حجام ولا اسكاف ولا خيّال ، فاذا اسلموا والتزموا شرائط الاسلام من اين يأكلون » ؟

ولكي نفهم مغزى كلام خاقان هذا يجب ان نقرنه بروايات اخرى مماثلة

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ٥ : ص ٢٣ .

تؤكد لنا حرص الاتراك على الاحتفاظ بالروح العسكرية بينهم وحذرهم التام من الانغماس في الحياة المدنية ووسائل الترف ، فمثلاً في عهد « كوك – توركار » ، اراد خاقان اقامة معبود « بوذي » في عاصمة ملكه حتى يدين الناس به. ولكن وزيره « تونيو – قوق – خان » المار ذكره نبه الى خطر هـذا الأمر وضرره للمجتمع التركي وصرفه عن هـذا الرأي بقوله : « ان الديانة البوذية تؤثر تأثيراً سيئاً على خصائص الترك العسكرية »[1] وكذلك يتحدث الجاحظ عن الروم وحروبهم مع الفرس . ويعلق على غلبة الفرس على الروم فيقول[2] « ان سبب ذلك هو اعتناقهم النصرانية . والنصرانية دين يؤمن بالمسالمة وعدم الانتقام والمقاتلة . فلما دان الروم بها اصبحوا يميلون الى المسالمة فخسروا » . ثم يستشهد شيخنا على رأيه هذا بالاشارة الى احوال الترك فيقول[3] : « وان الترك غُلبوا حين اصبحوا يدينون بالزندقة – ولعل الجاحظ يقصد بذلك الديانة البوذية – والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك بعد ان كانوا انجادهم وحماتهم ، وكانوا يتقدمون الخرخية وان كانوا في العدد اضعافهم فلما دانوا بالزندقة – ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ من دين النصارى – نقصت تلك الشجاعة وذهبت تلك الشهامة » .

اذاً قول خاقان الترك لسفير هشام : « اذ ليس في هؤلاء حجام ولا خيال ... الخ » انما ينم عن الفكرة الخاطئة التي ارتسمت في اذهان الاتراك عن الاسلام من جراء سيرة الولاة ومعاملتهم للاتراك بعد اسلامهم ، ولعل عذر خاقان واضح في ظنه ان الاسلام يعني الالتزام بالتخلي عن الروح العسكرية ، لأن الولاة لم يكونوا يسمحون للمسلمين من الاتراك بالانخراط في سلك الجندية وتقييد اسمائهم في ديوان العطاء كما انهم لم يرضوا ابداً باسقاط الجزية عن المسلمين الاتراك حتى انسدت جميع ابواب العزّ والشرف في خدمة الاسلام امامهم ، ولم

(١) راجع تاريخ الترك في آسيا الوسطى لبارتولد ص ١٢ .

(٢) راجع الجاحظ والحاضرة العباسية : وديعة طه النجم ص ١٢٩ .

(٣) راجع الجاحظ والحاضرة العباسية : وديعة طه النجم ص ١٣٠ .

يبق لهم الا التكسب بالمهن الوضيعة وخدمة الجبابرة من الولاة في ذلّ ومهانة كالشاكرية لا غير .

ومن المعروف ايضاً ان الترك أمة قد جُبلت على الغزو والفروسية والجرأة والاقدام ومواصلة الحروب « ولو حصلت عمرهم وحسبت ايامهم ، لوجدت جلوسهم على ظهر دابتهم اكثر من جلوسهم على ظهر الارض » . ولذلك كان من الطبيعي ان يأبى امراء الاتراك التخلي عن هذه الميزة القومية واستبدالها بأية ديانة تحتم عليهم الخضوع والمسكنة . وهذا هو السر في عدم نجاح جهود المبشرين من اليهود والنصارى والبوذيين بين الاتراك كما قدر رأينا من قبل . ولنضف الى ذلك ان هذا هو السر في استكبار الاتراك واحجامهم عن الاسلام في الوهلة الاولى من فتح العرب لبلادهم لأن ولاتهم إنما مثلوا صورة للاسلام لا تختلف كثيراً عن صورة الديانات السالفة الذكر .

ونرى ايضاً انه توّما زال ذلك المانع النفسي الذي ألمعنا اليه بضمان حياة الجندية والعز والشرف في حوزة الاسلام لم يتلكأ الاتراك لحظة في الاقبال على الدين الحنيف ، بل تفانوا في خدمة الاسلام والخلافة الاسلامية ولا سيما منذ أيام المعتصم حين اصبحوا عماد الدولة وعتادها ضد اعداء المسلمين .

ولا يظن ظانّ ان الاتراك كانوا ينفرون من حدود الاسلام ويستثقلون اوامره ونواهيه ، بل العكس كانوا يتطلعون الى شريعة تضمن لهم الصلاح وعدم الاعتداء وحفظ الانفس والاموال والاعراض . ناهيك بهذا الصدد تلك المحاورة الطويلة التي جرت بين خاقان والجنيد والتي استمرت نحو ثلاث ساعات ،فقد روى الجاحظ : ان خاقان ملك الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن – امير خراسان في عهد هشام بن عبد الملك – وقد كان الجنيد هاله امره وتعاظمه جموعه . وفطن به خاقان فأرسل اليه :

– اني لم اقف هذا الموقف وأمسِك هـذا الامساك وانا أريد مكروهاً فلا تُرَع . ولو كنت اريد غلبة او مكروهاً لقد كنت انتسفت عسكرك

انتسافاً أُعجلك فيه عن الروية وقد ابصرت موضع العورة . ولولا ان تعرفَ هذه المكيدة فتعود بها على غيري من الاتراك لعرّفتك موضع الانتشار والخلل والخطأ في عسكرك وتعبيتك . وقد بلغني انك رجل عاقل ، وقد احببت ان اسأل عن شيء من أحكامكم لأعرف به مذهبكم . فاخرج اليّ في خاصتك لأخرج إليك وحدي . وأسائلك عما احتاج اليه بنفسي . ولا تحتفل ولا تحترس ، فليس مثلي من غدرَ وليس مثـلي يؤمن من نفسه ومن مكره وكيـده ، ثم ينكث بوعده . ونحن قوم لا نخدع بالعمـل ولا نستحسن الخديعة الا في الحرب ولو استقام امر الحرب بغير خديعة لمـا جوّزنا ذلك لأنفسنا . — ولعل هذه تعطي لك فكرة في اخلاص خاقان الترك في قضية الاسلام — .

فأبى الجنيد ان يخرج إليه إلا وحده . ففصلا من الصفوف وقال : سل عما أحببت فان كان عندي جواب أرضاه أجبتك وإلا اشرت عليك بمن هو أبصر بذلك مني . فسأل خاقان الترك :

— ما حكمكم في الزاني ؟ فقال الجنيد : الزاني عندنا رجلان ، رجل دفعنا إليه امرأة تغنيه عن حرم الناس وتكفه عن حرم الجيران . ورجل لم نعطه ذلك ولم نخل بينه وبين ان يفعل ذلك لنفسه . فاما الذي لا زوجة له فانا نجلده مائة جلدة ويحضر ذلك الجماعة من الناس لنشره ونحذره به ونعرفه في البلدان لتزيد في شهرته وفي التحذير منه ولينزجر بذلك كل من كان يهم بمثل عمله . فاما الذي قد أغنيناه فانا نرجمه بالجندل حتى نقتله . فقال خاقان الترك : حسن جميل وتدبير كبير . فسأله :

— فما حكمكم في الذي يقذف عفيفاً بالزنا ، فقال الجنيد : نجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة ولا نصدق له حديثاً . فقال خاقان : حسن جميل وتدبير كبير . فسأله :

— فما حكمكم في السارق ؟ فقال الجنيد : السارق عندنا رجلان . رجـل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتى يأخذها بنَقْب حيطانهم او بالتسلق

من أعالي دورهم . فهذا نقطع يده التي سرق بها ونقب بها واعتمد عليها . ورجل آخر يخيف السبيل ويقطع الطريق ويكابد على الأموال ويشهر السلاح فان منعه صاحب المتاع قتله. فهذا نقتله ونصلبه على المناهج والطرق . فقال خاقان « حسن جميل وتدبير كبير » فسأله :

— فما حكمكم في الغاصب والمستلب ؟ فقال الجنيد : كل ما فيه الشبهة ويجوز فيه الغلط والوجوه كالغصب والاستلاب والجناية والسرقة لما يؤكل او يشرب فانا لا نقطع فيما فيه شبهة ويحتمل لذلك وجه غير السرقة . فقال خاقان الترك « حسن جميل وتدبير كبير » فسأله :

— فما تقولون في الكذاب والنمام والضراط ؟ فقال الجنيد : عنـدنا فيهم الاقصاء لهم وابعادهم واهانتهم ولا نقبل شهادتهم ولا نصدق أحكامهم . فقال خاقان : أوليس إلا هذا ؟ فقال الجنيد : هذا جواب على ديننا . فقال خاقان الترك للجنيد :

— أما النمام عندي وهو الذي يرفع الحديث بين الناس اشاعة ، فاني أحبسه في مكانٍ لا يرى فيه أحداً . أما الضراط فاني أكوي استه واعاقب ذلك المكان منه . وأما الكذاب فاني أقطع الجارحة التي بها يكذب كما قطعتم اليد التي بها يسرق . وأما الذي يُضحك الناس ويُعوّدهم السُخف فاني أخرجه من سلطاني وأصلح باخراجه عقول رعيتي ؛ فقال الجنيد :

— انتم قوم تردون أحكامكم الى جواز العقول والى ما يحسن في ظاهر الرأي ونحن قوم نتبع الأنبياء ونرى انا لا نصلح ولا نقدر على تدبير العباد . وذلك ان الله تعالى أعلم بغيب المصالح وبسر الأمر وحقائقه ومحصوله وعواقبه والناس لا يعلمون ولا يرون الحزم إلا على ظاهر الأمور . وكم من مضيع يسلم وحازم يعطب . فقال خاقان الترك « ما قلت كلاماً أشرف من هذا ولقد ألقيت لي فكراً طويلاً »[1] .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٧ — ٨١ .

قد أخذنا هذه الروايات بتغير يسير من الجاحظ . والمحاورة بين خاقان الترك والجنيد قيمة جداً . فانها تطلعنا على عقلية خاقان وأصالة رأيه وسياسته وكياسته وحسن تقديره لأحكام الاسلام المتعلقة بحياة المجتمع . وفضلا عن ذلك فهي تطلعنا على بعض القوانين الجارية بين الاتراك في عهده . فلا غرو اذا تأثر الجنيد تأثراً عميقاً حتى قال[1] : « فلم أرَ أوفى ولا أنصف ولا أفهم ولا أذكى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار ما تحرك منه شيء إلا لسانه وما من شيء لم أحركه » ولا نعرف شيئاً عن أثر هذه المحاورة الطويلة في نفس خاقان انما نعرف : انه مع مزيد الأسف قد قتل على يد رجل من أمرائه ليلا كما مر ذكره .

فخلاصة القول : ان الاتراك كانوا مستعدين في ذلك العهد للدخول في الاسلام ولا يمنعهم من ذلك الا تشدد الولاة والأمراء وجور العمال بتحصيل الجزية والخراج بعد اسلامهم . وكان ولاة العرب وعمالهم لا يهتمون بنشر الاسلام في البلاد المفتوحة ولا يحترمون نفسية الأمم المغلوبة خصوصاً الاتراك . وكانوا يدعونهم « العلوج » ويصرحون بأنه « لا يصلح لهم الا السيف والسوط »[2] . ويتعصبون بالنزعة القومية الى حد ان الوالي لم يرَ بأساً بأن يتحدى فوق المنابر أمام ألوف من الناس بقوله : « وأنا اليوم عصبي والله لرجل من قومي (أي العرب) أحب إلي من مائة من غيرهم »[3] .

وكانت نتيجة هذه السيرة السيئة التي سار عليها ولاة العرب خصوصاً في عهد الأمويين ان الناس في ما وراء النهر ظنوا ان الاسلام دين العرب خالصاً . اذا أسلم أحد من الترك قالوا انه « صار عربياً » لا مسلماً ولا مؤمناً كما جاء في قول

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ٨١ .
(٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٩ والطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .
(٣) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .

دهاقين بخارى لاشرس « ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً »[1] لقد أثر هذا كله تأثيراً سيئاً في نفسية الاتراك . فهم ينفرون من الولاة والعمال رغم رغبتهم في الاسلام . لانهم كانوا لا يرون الوالي إلا « سيفا من سيوف الحجاج »[2] لا يبالي باسلامهم وارشادهم الى الحق انما يطمع في مالهم وثروتهم وأبنائهم مواليا له .

نصر بن سيّار

وبقي الأمر كذلك الى ان جاء نصر بن سيار والياً على خراسان سنة ١٢٠هـ وجدير بالذكر ان نصر كان عاقلا مدبراً حازماً معروفاً بحسن سياسته . ولا نبالغ اذا قلنا انه من أحسن الولاة سيرة بالنسبة الى الذين جاؤوا من قبله ولاة على خراسان وقد قال الشاعر فيه :

اضْحَتْ خُراسانُ بعد الخوفِ آمنةً ... من ظلم كلِّ غشوم الحُكمِ جبّار
لما أتى يوسفاً أخبارُ ما لقيت ... اختارَ نصراً لها نصرَ بن سيّار

أما أحوال ما وراء النهر قبل ما قدم نصر بن سيار فكانت كما وصفها ثابت قُطنة من جماعة أبي الصيداء الذين خرجوا في سبيل الله لتبليغ رسالته بين أهالي تلك البلاد في زمن أشرس والي خراسان قبل نصر بن سيار . يصف ثابت قطنة في قصيدته ما وراء النهر فيقول[3] :

ديارُ ليلى قِفارٌ لا أنيسَ بها ... دون الحجون وأين الحجن من داري
بين السماوةِ في حَزمٍ مُشَرّقةٍ ... ومُعْنِقٍ دُوننا اذيّةٌ جاري

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٩٨ .
(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ١٣٤ .
(٣) راجع الطبري ج ٢ : ص ١٥١١ (ط : ليدن - بريل) .

نُقارِعُ التركَ ما تَنفَكُّ نائحةٌ ... منّا ومنهم على ذي نجدةٍ شارِ
لا يَصرف الجُندَ حتى يَستَفيءَ بهم ... نهباً عظيماً ويحوي مُلكَ جبّارِ
وتَعثُرُ الخيلُ في الاقياد آونةً ... تحوي النّهابَ الى طُلّاب اوتارِ
وما تلبّستُ بالأمر الذي وقَعُوا ... بـه عـليَّ ولا دنّستُ اطماري
ولا عَصيتُ اماماً كان طاعته ... حَقّاً عليَّ ولا قارفتُ من عارِ

فلما قدم نصر الى خراسان وضع الخراج وأحسن الولاية والجباية وعمل على تحسين العلاقات مع سكان البلاد وتأثرت حميته الدينية لنشر الاسلام خصوصاً بعدما رأى دعايات المجوس والنصارى واليهود بين الناس وجهودهم لجلب الناس الى أديانهم الباطلة حتى قال في خطبته التي ألقاها في مرو[1] :

« الا ان « بهرامسيس » كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنم ويحمل أثقالهم على المسلمين ، الا ان «اشبداد بن جريجور » كان مانح النصارى ، الا ان « عقيبة اليهودي » كان مانح اليهود يفعل ذلك . الا اني مانح المسلمين امنحهم وأدفع عنهم واحمل أثقالهم على المشركين . الا انه لا يقبل مني الا ان توفي الخراج على ما كتب ورفع وقد استعملت عليكم « منصور بن عمر بن أبي الخرقاء » وأمرته بالعدل عليكم فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه او ثقل عليه في خراجه وخفّف مثل ذلك عن المشركين فليرفع ذلك الى منصور بن عمر يحوّله عن المسلم الى المشرك » .

فما كانت الجمعة الثانية حتى اتاه ثلاثون ألف مسلم ! كانوا يؤدّون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألف رجـل من المشركين (أي الاتراك) قـد ألقيت عنهم جزيتهم فردّ الجزية ذلك عليهم وألقاهـا عن المسلمين ثم صَنّف الخراج حتى وضعه مواضعه ووظّف الوظيفة التي جرى عليها الصلح .

(١) راجع الطبري ج ٢ : ص ١٦٨٨ (ط : ليدن ـ بريل) .

وقد صادف ولاية نصر بن سيار تعكر الجوّ السياسي في حاضرة الخلافـة (أي الشام) . وفي خراسان أخذ العباسيون ينشرون دعوتهم حتى قضي على الامويين في سنة ١٣٢هـ/٧٤٦م .

فلما قامت الدولة العباسية توقفت الفتوح وما يتبعها من الحركات العسكرية الى ان جاء المأمون والياً على خراسان . وكان المـأمون يغزو بلاد الترك من الصغد واشروسنة وفرغانة ويوالي عليها الغارات كما يشهد بذلك قول الشاعر في مدحه[1] :

وردت على « خاقان » خيلك بعدما ... كره الطعانَ وقـد اطلن عراكا
حتى وردن وراء « شاش » بمنزل ... تركتَ بـه نفـلاً له الاتراكا

ولكنه من جهة ثانية لم يهمل دعوتهم الى الاسلام . كتب إليه « كاوس » ملك اشروسنة يسأله الصلح على ما يؤديه على شرط ان لا يغزي المسلمين بلده فاجيب الى ذلك . فلما تولى المأمون الخلافة امتنع « كاوس » من الوفاء بالصلح فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب لغزو « اشروسنة » في جيش عظيم . فاستصرخ « كاوس » الترك فزحفوا لنجدته . ولكن أحمد بن أبي خالد اناخ على اشروسنة قبـل وصول الاتراك . فاستسلم كاوس وورد مدينـة السلام وأظهر الاسلام . وملّكه المأمون على بلاده . ثم ملك ابنه « خَيذَر بن كاوس » الملقب بالأفشين الذي سيأتي ذكره في هذا الكتاب .

وكان المأمون يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يسلم من الاتراك ويسني العطاء لمن أسلم . واذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم وإكرامهم وادرّ عليهم الأرزاق[2] ثم جاءت خلافة المعتصم الذي جلب الاتراك الى بغداد وألف جيشاً كثيفاً منهم من أهل الصغد وفرغانة واشروسنة والشاش وسنتكلّم عن هذا التطور في موضعه ان شاء الله .

(١) راجع شرح ديوان صريع الغواني ص ٣٣١ .
(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٦ .

الجزء الثاني

الاتراك في الخلافة الاسلامية من عهد الرسول الى اواخر ايام المهتدي من الخلفاء العباسيين

الفصل الاول

الاتراك في دار الاسلام
الى عهد المعتصم

الباب الأول

الاتراك في اوائل الاسلام الى آخر عهد الامويين

الاتراك في البلدان الاسلامية

ابنا في الفصول السابقة تاريخ الاتراك قبل الاسلام وذكرنا العلاقات الأولى بين العرب والترك في أعقاب الفتوحات العربية فيما وراء النهر . والآن سنتكلم عن مكانة الاتراك في الجامعة الاسلامية من الناحية السياسية والاجتماعية والتاريخية من أوائل الاسلام الى أواخر أيام المهتدي من الخلفاء العباسيين .

هل آل ياسر أصلهم تركي

المعروف ان المعتصم هو أول من جلب اخواله الاتراك من المناطق الداخلية فيما وراء النهر وأغدق النعم والعطايا عليهم وقلدهم المناصب العالية في الدولة العباسية . والحقيقة لو دققنا النظر في وثائق التاريخ ألفينا ان قدوم الاتراك في العواصم الاسلامية وخدمتهم للخلفاء بجانب الأمم الأخرى من الفرس والروم وانضمامهم الى الجيوش العربية يرجع الى زمن بعيد قبل المعتصم .

ومن المعلوم ان تقديم الجواري والحظايا والغلمان من جملة الهدايا الجميلة كانت عادة متبعة بين النـاس من قديم الزمان . وكثير من الأمراء والوزراء كانوا يتبعون هذه العادة ويقدمون الجواري الحسناوات الى أكابر الدولة خصوصاً من العناصر الأجنبيـة . ويروي شيخنا الجاحظ رواية قيمة عن غلمـان الاتراك ومنزلتهم عند ملوك الفرس والروم فيقول[1] : ان ابرويز انفذ رسولاً بهدية لم يسمع السامعون بمثلها الى ملك الروم بعقب محاربة «بهرام جوبين» يستنجده . وبعث إليه مائة غلام من أبناء الاتراك مختارين في صورهم ونفوسهم في آذانهم أقراط الذهب معلق فيهـا حبّ الدر على مراكب بسروج الذهب منظمـة باليواقيت والزمرّد . ووصل رسل ابرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فأنجده وأرسل إليه عشرين ألف فارس بالسلاح وبعث إليه بألفي ألف دينـار لارزاق جنده وألف ثوب منسوج وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة بأقبية الديبـاج المطيّر في آذانهن أقراط الذهب المزينـة بالدر والياقوت وعلى رؤوسهن أكلـّة الجوهر .

كذلك نجد جواري الاتراك وبناتهم مغبوطات بين الأمراء والملوك من العرب حيث أنهم كانوا يتهادون هؤلاء الجواري فيما بينهم من جملة الهدايا القيمة لأنهن

(١) راجع المحاسن والاضداد للجاحظ ص ٣٦٩ .

« قد جمعن الحسن والبياض والنّعمة ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة وقدودهن ما بين الرّبع والقصير ، والطول فيهن قليل ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل قلّ مـا يتفق في أولادهن وحش ولا رديّ التركيب ... وفيهن نظافة ولباقة قدورهم مَعِدهم يعوّلون عليها في الطبخ والنضج والهضم لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة ولا من له عجيزة عظيمة »[1] .

هذا وربما يتخلل أقوال مؤرخي العرب اشارات عابرة الى وجود بعض الاتراك في وسط العرب في عهد النبي حتى قبل هجرته الى المدينة . فهناك مثلاً البلاذري يقول عن سميّة أم عمار بن ياسر – تلك التي قد اشتهرت في التاريخ بأنها أول من استشهدت في سبيل الله بيد أبي جهل الجائر – انها[2] « كانت ... من أهل « زندورد »(*) من « كسكر »(**) تسمى في أهل بيتها « بامنج » (ياميح) فسرقها الكواء اليشكري أبو عبد الله بن الكواء وسماها « سمية » فكانت عنده الى ما شاء الله . ثم إنه سقي بطن الكوّاء . فخرج الى الطائف فأتى الحارث بن كَلَـدَة الثقفي وكان طبيب العرب فداواه فبرأ فوهب له سمية . ويقال انها كانت أمة لدهقان الابلّة فقدم الحارث الأبلة فعالج ذلك الدهقان فوهبها له فقدم بها الطائف » .

ويعلق الدكتور محمد حميد الله على رواية البلاذري التي نقلناها آنفاً فيقول

(١) راجع شرى الرقيق وتقليب العبيد (نوادر المخطوطات) ج ١ : ص ٣٧٦ .

(٢) راجع انساب الاشراف للبلاذري ج ١ : ص ٤٨٩ .

(*) زَندَوَرْد : بفتح أوله وسكون ثانيه ودال مهملة وواو مفتوحة وراء ساكنة ودال مهملة ؛ مدينة كانت قرب واسط مما يلي البصرة خربت بعمارة واسط ولها ذكر في الفتوح . وذكر ياقوت القصة ولكن لم يذكر اسم الجارية ، الحموي ١٠/١٥٤ .

(**) كسكر : – معناه عامل الزرع – كورة واسعة ويقـال ان حدّ كورة كسكر من الجانب الشرقي في آخر سَقي النهروان الى ان تصب دجلة في البحر كله من كسكر فتدخل فيه على هذه البصرة ونواحيها . وسميت كسكر بكسكر بن طهمورث الملك الذي هو أصل الفرس . الحموي ١٦/٤٦١ .

« ان پاميح لعل أصله ـ باموق Pamuk (القطن في اللغة التركية) فعربته العرب بسبب عدم وجود بعض الحروف في اللغة العربية حتى صار أهل بيتها يقولون « بابيخ » فبناء على ذلك نذهب الى القول : بأن سمية تركية الأصل قذفتها الحروب التي جرت بين الاتراك والفرس مراراً في التاريخ وبهذا أمكن قدومها بعد سلسلة من التنقلات الى الطائف »[1] .

ثم ان هناك بعض روايات تفيدنا ان جواري الاتراك وبناتهم وغلمانهم حتى دروع الاتراك وسيوفهم قُدّمت الى أكابر الدولة من جملة الغنائم التي غنمتها العرب في البلاد المفتوحة . ويخبرنا القاضي الرشيد عن درع خاقان وسيفه التي قدمت الى الخليفة عمر بن الخطاب فيقول[2] : وخرج القعقاع يومئذ في الطلب فلحق بفارسي يحمي الناس فقتله وأخذ منه عيبتين في احداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدرع ، منها درع كسرى ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع بهرام شوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان ، استلبها الفرس أيام غزاتهم خاقان وهرقل وداهر . وكذا الأسياف ومن بينها سيف خاقان . فاحضر القعقاع الجميع عند سعيد فخيره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام وأما سائرها فبُعث الى عمر .

جنود الاتراك في البصرة

فلما آلت الخلافة الى الأمويين واتسعت حدود الممالك الاسلامية في الشرق والغرب ازداد نزول الاتراك الى البلدان الاسلامية وتقربهم الى الخلفاء والأمراء . لأن بعض الولاة على خراسان كانوا ينقلون الاتراك من بخارى وسمرقند وغيرها من مدن التركستان وأسكنوهم في العواصم الاسلامية . وهؤلاء الاتراك كانوا

(١) Türkiyat Mecmuasi Cild XIV Sah 65

(٢) راجع كتاب الذخائر والتحف ، القاضي الرشيد ص ١٥٩ .

جيوشاً مستأجرة ربما لعبوا دوراً هاماً في الجامعة الاسلامية . فيخبرنا ياقوت ويقف عند كلمة « البخارية » في معجمه ويقول[1]«وهي سكة بالبصرة أسكنها عبيد الله بن زياد أهل بخارى الذين نقلهم من بخارى الى البصرة وبنى لهم هذه السكة فعرفت بهم ولم تعرف به » ولنضف الى ذلك قول البلاذري«لما مات زياد استعمل معاوية عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة . فقطع النهر في أربعة وعشرين ألف مقاتل سنة ٥٤هـ . وكان ملك بخارى قد افضى يومئذ الى امرأةٍ يسمونها « خاتون » فأتى عبيد الله الى بيكند وكانت خاتون بمدينة بخارى فأرسلت الى الترك تستمدهم العون. فجاءها منهم دهم فلقيهم المسلمون فهزموهم وحووا عسكرهم وأقبل المسلمون يخربون ويحرقون فبعثت إليهم خاتون تطلب منهم الصلح والأمان فصالحها على الف الف وقدم معه البصرة من أهل بخارى ففرض لهم »[2] ويضيء الطبري غموض هذه العبارة ويبين عددهم فيقول[3] « ان البخارية الذين قدم بهم عبيد الله بن زياد البصرة ألفان كلهم جيد الرمي بالنشّاب » « وأسكنهم سكة ففرض لهم العطـاء »[4] . ففي العقـد « وكانوا – أي هؤلاء العبيد – يجيدون الرمي بالنشّاب وأسكنهم سكة بالبصرة سميت بعد « بخارية زياد » نسبة إليهم »[5] .

ومن الجدير بالذكر ان قدامى الاتراك كانوا مشهورين بالرمي في الحروب ، يقول ابن حبيب: «رجال الحرب والنجدة،يُختار لذلك الترك والصقالبة لحرارة قلوبهم واعتبارُهم يكون بإيراد الأشياء المفزّعة بغتة . كإلقاء الحيات الخرق او طرح الأشياء التي لها صوت عظيم من علو بين أيديهم »[6] ويشير شيخنا الجاحظ

(١) راجع معجم البلدان للحموي جـ ٣ ص ٣٥٦ .

(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٧٨ .

(٣) راجع الطبري جـ٦ : ص ١٦٧ .

(٤) راجع معجم البلدان للحموي جـ ٣ : ص ٣٥٦ .

(٥) راجع العقد جـ ١ : ص ١٩١ .

(٦) راجع شرى الرقيق وتقليب العبيد (نوادر المخطوطات) جـ ١ : ص ٣٨٧ .

الى رماة الترك فيقول[١] « والتركي يرمي الوحش والطير والبرجاس والناس والمجثمة والمُثُل الموضوعة ويرمي وقد ملأ فروج دابته مدبراً ومقبلاً ويمنة ويسرة وصعداً وسفلاً ... وللتركي أربعة أعين : عينان في وجهه وعينان في قفاه ... والتركي ... فهو السم الناقع والحتف القاضي لأنه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل ولا يؤمن وهقه » . كذلك الثعالبي يعدّد خصائص البلدان التي اشتهرت بها ويذكر من بينها رماة الترك مع لصوص طرسوس وحكماء يونان [٢] . وابن فضلان يقول[٣] « ورأيت الترك يذكرون أنه افرسهم ولقد رأيته يوماً وهو يسايرُنا على فرسه اذ مرت وزة طائرة فأوتر قوسَه وحرّك دابته تحتها ثم رماها فاذا هو قد أنزلها » .

فلما اتصل الولاة بالاتراك وعرفوا ما فيهم من النجدة والفروسية والرماية في الحرب استجلبوهم الى مراكز الخلافة للاستعانة بهم اذا اقتضت الأمور . ولعل هؤلاء الجنود الذين نقلهم عبيد الله بن زياد من بخارى وأسكنهم في البصرة قد استعملوا للقضاء على بعض القلاقل الداخلية . فقد روى شيخنا الجاحظ في كتابه[٤] « جنى قوم من أهل اليمامة جناية فأرسل إليهم السلطان جنداً من « بُخاريةِ ابن زياد » فقام رجل من أهل البادية يُذمّر أصحابه فقال: يا معشر العرب ويا بني المحصنات . قاتلوا عن احسابكم ونسائكم والله لئن ظهَرَ هؤلاء القوم عليكم لا يَدعون بها لبِنَةً حمراء ولا نخلةً خضراء الا وضعوها بالأرض ولا اغرّكم من نُشّابٍ معهم في جِعاب كأنها ايور الفيَلة ينزعون في قِسيٍّ كأنها العَتَل تئطّ احداهن أطيطَ الزّرنوقِ يمغط احدُهم فيها حتى يتفرق شعر أبطيه ثم يرسل نُشّابَةً كأنها رشاء منقطع فيما بين احدكم وبين ان تفضح عينيه او يُصدع قلبه منزلة » .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٤٥ .
(٢) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢٠٣ .
(٣) راجع رسالة ابن فضلان ص ١٠٣ .
(٤) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ٧ : ص ١٧٥ .

أبناء ملوك الاتراك في المدينة

ونسمع أيضاً عن طائفة من أبناء ملوك الاتراك أنزلهم المدينة سعيد بن عثمان أيام ولايته على خراسان واستخدمهم في أشغال الحرث والزرع . فقد روي انه : لما جاء سعيد بن عثمان والياً على خراسان في عهد معاوية في سنة ٥٥ﻫ جهز جيشه فقطع النهر بهذا الجيش حتى انتهى الى بخارى . والملكة يومئذ ببخارى يقال لها « خنك خاتون »(*) فصالحها صلحاً معلوماً على ان تخلي له الطريق الى سمرقند . وأخذ منها رُهُناً على الوفاء ٣٠ — وفي البلاذري[١] ٢٥ ، ٤٠ ، ٨٠— غلاماً من أبناء الملوك مُرْداً كأن وجوهَهم السيوف . وسَهلت له الطريق .

فمضى سعيد بن عثمان الى سمرقند وقتل وسبى ٣٠٠٠٠ رأس . ثم رجع فلما انتهى الى بخارى قالت له الملكة خنك خاتون :

— اردُد عليّ الرهائن فقد سلّمك الله فقال :

— اني أخاف غدرك حتى أقطع النهر . فلما قطع النهر بعثت إليه :

— اردُدْهم قال :

— حتى أنزلَ مرو . فمضى بهم ولم يردُدْهم عليها . ومضى قافلاً الى المدينة فجعل أولئك الرهائن فلاّحين في نخل وحرث بالمدينة[٢] .

(*) خاتون : (ملكة بخارى) وقد صرح الطبري في حوادث سنة ٥٤ﻫ انها « قبج ـ خاتون » ١٦٧/٦ وفي كتاب الذخائر والتحف «فتح ـ خاتون» ص ١٦٩ وفي اسماء المغتالين « خنك خاتون » ص ١٦٦ . ويحدثنا البلاذري انها كانت ملكة في بخارى حين تقدم العرب فيما وراء النهر في زمن معاوية (ص ٥٧٧) وكانت زوجة ملك الاتراك المحلية واستقر الأمر بيدها بعد وفاة زوجها (الطبري ١٦٧/٦) . فلئن صحت قراءة هذه الكلمة « قبخ » او «قيغ» يمكن ان يذهب الى القول انها من أسماء قبائل الاتراك Encyc. of Islam 1/1293 .
(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٥٧٩ .
(٢) راجع أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات) ج ٢ : ص ١٦٦ .

إلا أن قصة هؤلاء الرهائن من أبناء ملوك الاتراك الذين غصبهم سعيد بن عثمان بالغدر والخيانة كانت لها نهاية فاجعـة : فقد أتاهم يوماً يتعهّد ماله ذلك . فاغتالوه فقتلوه بخناجرهم . وبلغ الخبر أهل المدينة فساروا إليهم فحصروهم في جبل هناك ولم يقدموا على حربهم حتى ماتوا في ذلك الجبل عطشاً . فقال خُليد عَينَين العَبْدي في ذلك :

يا عَيْنُ أذري دمعـةً   وابكي الشّهيدَ ابن الشّهيد
فلَقَدْ قُتِلْتَ بِغرَّةٍ   وجَلَبْتَ حتفَكَ من بعيد[1]

ابن خاقان في الشام

وفي زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥هـ) تولّى خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المرّي . وقد حارب الجنيد مراراً أهالي ما وراء النهر من الاتراك . ومرة سار فلما انتهى الى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم . فكاد الجنيد ومن معه يهلك . ثم أظهره الله فظفر الجنيد وأسر من الترك « ابن أخي خاقان » فبعث به الى هشام [2]. ونحن نجد نفس الرواية بالتقديم والتأخير في البلاذري وذلك[3] « انه حاربهم ووجه طلائع له فظفروا « بابن خاقان » وهو سكران يتصيّد فأخذوه فأتوا به الجنيد فبعث به الى هشام » . فأنت ترى الطبري يقول : « ابن أخي خاقان » والبلاذري يقول : «ابن خاقان» ولا يهمّنا اختلاف هاتين الروايتين اذ هما تتفقان على انه من الأسرة التركية الحاكمة أي من أسرة الخاقان . الا أننا لا نعرف شيئاً آخر عن هذا الطفل التركي الذي قـدم الى الشام .

(١) راجع أسماء المغتالين من الاشراف (نوادر المخطوطات) ج ٢ : ص ١٦٨ .

(٢) راجع الطبري ج ٢ : ص ١٥٢٩ (ط : ليدن - بريل) .

(٣) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٣ .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

ولنقف أخيراً عند يزيد بن الوليد بن عبـد الملـك بن مروان من الخلفـاء الأمويين . وقـد كانت بنت خاقان ملك الترك من أمهاتـه . وفي ذلك تقول المصادر :

اصاب قتيبة بخراسان بالسُغد جارية من ولد يزدجرد فقال لاصحابه :

— أترون ابن هذا يكون هجيناً ؟ فقالوا: نعم ! يكون هجيناً من قبل أبيه. فبعث بها الى الحجاج فقدّمها الحجاج الى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد. ولذلك كان يزيد يفتخر بكونه أعرق الناس في الملك والخلافة من كلا طرفيه لأنه هو خليفة ، وابوه خليفة وجده خليفة وابو جده خليفة وعمومته خلفاء . وأمه : شاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار، وأمها من بنات شيرويه بن أبرويز، وأم شيرويه مريم بنت قيصر ملك الروم، وأم فيروز بنت خاقان ملك الترك[1] ويفتخر يزيد بهذا قائلاً[2] :

أنا ابن كسرى وأبي مروان   وقيصر جدي وجدّي خاقان(*)

(١) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٦٤ .

(٢) راجع الطبري ج ٦ : ص ٤٦ .

(*) وفي فضائل الاتراك جاء ما يلي :

« وكان الاتراك لا يزالون يحاربون الفرس حتى تزوج كسرى ابرَوَيز خاتون بنت خاقان يستميله بتلك المصاهرة ويدفع بأسه عنه . وكانت خاتون بنت خاقان عند ابرويز فولدت له شيرويه وقد ملك شيرويه بعد ابرويز » ويزيد الجاحظ انه: لما صار الى الافتخار في شعره بالنجدة والثقافة بالحرب لم يفخر الا بخاقان فقط :

فان كنت أرمي مقبلاً ثم مدبراً   وأطلع من طودٍ زليق على مُهْرِ
فخاقان جدّي فاعرفي ذاكِ واذكري   اخابيره في السّهل والجبل الوعرِ

فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٨٢ .

الاتراك في الجيوش العربية في عهد الأمويين

أما الاتراك في الجيوش العربية ، فلا نعدم من الأدلة التاريخية ما يرشدنا الى القول بأن جموعاً كثيرة من الاتراك انضمت الى الجيوش العربية في أثناء الفتوحات التي قام بها قوّاد العرب في بلاد الترك واستعانوا بكثير من هؤلاء في انتصاراتهم التي احرزوها في فتح ما وراء النهر . فممن اتخذ هذه الخطوة أولاً سعيد بن عثمان من قوّاد العرب في عهد الأمويين . وذلك ان سعيد بن عثمان لما ولّاه معاوية على خراسان ألّف جيشاً من سكان ما وراء النهر من الاتراك بعد ان قام بفتح سمرقند . واتبع فاتحو العرب في آسيا الوسطى سنّة سعيد بن عثمان في أثناء تحركاتهم العسكرية التي قاموا بها في فتح هذه البلاد واستجاشوا كثيراً من الاتراك . يشهد بذلك قول جب : «ولا يبعد اذا كان ما ذكرناه حقاً أن يكون سعيد بن عثمان هو الذي سنّ هذه السنّة بعد فتح سمرقند . كما لا يبعد ان يكون ذلك النظام قد عمل به في أماكن أخرى شملتها الفتوح العربية لتكون هذه الجيوش على أهبة الاستعداد لتلبية نداء قوّادهم اذا دعت الحاجة الى ذلك . وهذا يعلّل السرعة التي تمّ بها فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم »[١] .

وأما قتيبة بن مسلم ذلك القائد المظفر فانه استجاش كثيراً من الاتراك في فتوحاته فيما وراء النهر . وكان من شروطه بعد ان قام بفتح سمرقند عنوة ان يعطوا في تلك السنة «٣٠٠٠٠» رأس[٢] . ولما سقطت بخارى سبى قتيبة منهم «٥٠٠٠٠» رأس[٣] . ولعله جند بعض هؤلاء للخدمة العسكرية بجانب الجيوش العربية كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن[٤] « ولم تكن الاصلاحات التي

(١) راجع تاريخ الاسلام ، حسن ابراهيم حسن ج ١ : ص ٣٠١ .

(٢) راجع الطبري ج ٨ : ص ٨٧ .

(٣) راجع معجم البلدان ، الحموي ج ٣ : ص ٣٥٦ .

(٤) راجع تاريخ الاسلام ، حسن ابراهيم حسن ج ١ ص ٣٠١ .

قام بها قتيبة بعد أن تم له فتح بخارى مقصورة على الشئون المدنية بل تعدّتها الى الجيش . وكانت روح العصبية التي أملت على العرب ان يستأثروا بحقوقهم كاملة باعتبارهم طبقة محاربة قد قللت الى حدٍّ بعيد من عدد الفرس في الجيوش الاسلامية . وكانت جيوش خراسان في ذلك الوقت تتألف على الوجه الآتي : من أهل البصرة والعالية من المقاتلة « ٩٠٠٠ » ومن بكر « ٧٠٠٠ » ومن تميم « ١٠٠٠٠ » ومن عبد القيس « ٤٠٠٠ » ومن الازد « ١٠٠٠٠ » ومن الكوفة « ٧٠٠٠ » ولم يكن مع هؤلاء الـ « ٤٧٠٠٠ » عربي سوى « ٧٠٠٠ » من الموالي وكانوا من الديلم . على ان قتيبة ألزم أهالي بخارى بعد ان فتحها لأول مرة كما ألزم غيرها من أهالي البلاد المفتوحة ان يمدّوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية تتراوح عادة بين « ١٠٠٠٠ » و « ٢٠٠٠٠ » رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية .

وفي زمن هشام بن عبد الملك غزا نصر الى ما وراء النهر في سنة ١٢١هـ . وسار الى الشاس بجيش كثيف يبلغ عدده «٢٠٠٠٠» من أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف على ما رواه الطبري[١] .

الاتراك في حرس الخليفة

وكذلك جنود الاتراك في حرس الخليفة كانوا يقومون بحراسة قصره وسلامة ذاته منذ أوائل عهد الأمويين فمثلاً :

لما آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي (٦٥ — ٨٦هـ) كان تجنيد الاتراك قد تم منذ زمان . ومرة أرسلهم عبد الملك على الذين يشعلون نار الفتنة ويفسدون الناس ويضلونهم عن سبيل الله ومن جملتهم الحارث بن عبد

(١) راجع الطبري ج ٨ : ص ٢٥٢ .

الرحمن بن سعيد الدمشقي المتنبىء الكذاب الذي نزل بيت المقدس يدعو الناس الى نبوّته . وأخذ عوام الناس يجتمعون حوله فلم يلبث حتى كثر أصحابه وأتباعه وزاد نفوذه وصارت الحالة ببيت المقدس تزعج الخليفة في الشام. فأرسل عبد الملك إليه طائفة من جنده الاتراك للتنكيل به كما يقول ابن كثير المؤرخ الكبير[١] :

« فلما وصل هؤلاء الاتراك الى بيت المقدس أمر قائدهم من نائب القدس ان يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعته . فاذا أمر باشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والازقّة حتى لا يخفى أمره . فذهب ذلك القائد نفسه فدخل الدار التي يسكن فيها الحارث فقال لبوّابه :

— استأذن على بني الله ! فقال البواب :

— في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح . فصاح القائد :

— « أسرجوا » فاشعل الناس من شموعهم حتى صار الليل كأنه نهار . فدخلوا عليه — ثم قال للفرغانيين من اتراك الخليفة :

— فأخذوه فقيّدوه . وجعل الحارث يقول « قُلْ ان ضَلَلتُ فانّما اضل على نفسي وان اهتَدَيتُ فبما يُوحي إليّ رَبي انّه سَميعٌ قريبٌ » [٢] ، وقال لاولئك الاتراك « أتقتُلونَ رَجُلاً ان يَقُول ربي الله »[٣] . فقال هؤلاء الاتراك بلسانهم ولغتهم :

— هذا كرآننا فهات كرانك (أي هذا قرآننا فهات قرانك) فلما انتهوا به الى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة .

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ : ص ٢٧ .
(٢) سورة سبأ الآية ٥٠ .
(٣) سورة غافر الآية ٢٨ .

فهذه الرواية تدل بجلاء على ان الاتراك كانوا في عهد عبد الملك بن مروان ومن يتبعه من الخلفاء يلعبون دوراً عسكريّاً في جيوش الخليفة وانهم كانوا يخدمونه بالصدق والوفاء .

أما مكانة الاتراك في المجتمع الاسلامي خاصة بعدما انتهت الدولة الأموية وقامت محلها الدولة العباسية ، فسنحاول الجواب عنها في البحث القادم ان شاء الله .

الباب الثاني

الاتراك في المجتمع العباسي الى اواخر ايام المأمون

الخلفاء العباسيون والاتراك

لما انقرضت دولة الامويين وآلت الخلافة الى العباسيين كثر عدد الاتراك في قصور الخلفاء وبيوت الامراء وزاد نفوذهم في بلاط الخليفة وذلك لأنهم رغم قلتهم كانوا يتعهدون حراسة قصور الخلفاء ويتولون امر سلامتهم الشخصية . وبمرور الاعوام بلغت سلطة الاتراك في المجتمع العباسي خصوصاً في عهد المعتصم والخلفاء الذين جاؤوا بعده الى حد ان اصبح الخليفة تحت تصرفهم ، ان شاؤوا ابقوه وان شاؤوا تركوه وان شاؤوا خلعوه كما قال بعض شعراء العصر [١] :

« اصبح الترك مالكي الامر والعا لم ما بين سامع ومطيع »

(١) راجع مروج الذهب ، المسعودي ج ٢ : ص ٣٣٦ .

كاد المؤلفون يتفقون على ان المعتصم هو اول من جلب الاتراك من المناطق الداخلية من ما وراء النهر وقلدهم المناصب في الدولة والّف جيشاً ملكياً منهم ، الا أننا اثبتنا في البحوث السابقة ان استخدام الاتراك في الجيش يرجع الى اوائل عهد الامويين . امـا في الدولة العباسية ، فالمنصور اول من اتخذ الاتراك من الخلفاء العباسيين . يقول السيوطي [١] :

« انه – اي المنصور – اول من استعمل مواليه على الاعمال وقدمهم على العرب . وكثروا بعد ذلك حتى زالت رياسة العرب وقيادتها ». ولا تصرح هذه الرواية التي اوردها السيوطي عن قومية هؤلاء الموالي والغلمان الذين قدموا الى الخليفة وخدموا في قصره . لكننا عثرنا على رواية اخرى اوردها الثعالبي في كتابه هي صريحة في ان « اول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور . اتخذ حماداً ، ثم اتخذ المهدي مباركاً ثم اقتدى بها الخلفاء وسائر الناس [٢] » . فلعل غرض السيوطي بالغلمان والموالي في قصر المنصور هو الاتراك لا غير كما صرح بذلك الثعالبي .

نعم ! اتخذ المنصور (١٣٦ – ١٥٨ ه) حماداً في قصره والتفت اليه حتى صار من جلسائه ، ولم يلبث ان تقرب من الخليفة واحرز منصباً هاماً في بلاطه وساعدت الحوادث في اعلاء شأنه حتى اصبح المنصور يثق به في مهات اموره ، ويودعه علم اسرار دولته . ولا نبالغ اذا قارنا حماداً والخليفة المنصور بالفتح بن خاقان والخليفة المتوكل . فقد روى الطبري ان المنصور كان له سَفَط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه احداً وكان حماد التركي يقدم اليه ذلك السفط اذا دعا به . فانظر كيف كان المنصور يحتفظ بالسفط الذي

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٨٨ .
(٢) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢٠ .

يحتوي على اسرار دولته وعلم آبائه ، مـا كان وما هو كائن الى يوم القيامة ، ولا يأمن على فتحه ومفتاحه احداً في بلاطه الا حماداً التركي[1] .

ولما وضع المنصور أسس النظـام السياسي الذي قامت عليه الدولة العباسية واحدث مناصبها اختـار حماداً التركي حاجباً له وولاه مهات اموره واقتدى به الخلفاء الذين جاؤوا بعده بأن يولوا الحجابة غالباً رجلاً من الاتراك * .

المهدي (١٥٨ — ١٦٩ ﻫ)

ولما تولى المهدي الخلافة (١٥٨ – ١٦٩ ﻫ) سار على سنـة ابيه المنصور واستخدم الاتراك دون العرب والفرس في مناصب الدولة . وممن برز في عهـده

---

(١) راجع الطبري ، ج ٩ : ص ٣١٩ .

(*) الحجابة : منصب من المناصب في الدولة العباسية . والحاجب موظف كبير مهنته ادخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الاسلامية في أيام العباسيين فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة ويستبد بالنفوذ دون الوزير .

وعلى ما فهمنا من المصادر ان الخلفاء العباسيين كانوا يتصورون ان الحاجب احد وجهي الملك في التعبير عن رأفته وغلظته . ولذلك كانوا يختارون ممن كان « سهل الطبيعة معروفاً بالرأفة مألوفاً منه البر والرحمة ومن شروط الحاجب أيضاً ان يكون جميـل الهيئة حسن البسطة ذا قصد في نيته وصالح أفعاله » (كتاب الحجاب : للجاحظ ٣٩/٢) ولعل هذه الفكرة دفعت الخلفاء العباسيين الى ان يختاروا حجابهم من الاتراك . وذلك ان الاتراك كانوا في ذلك العهد معروفين بشدة أبدانهم وتركيب طبيعتهم وبهاء منظرهم تلك الصفات التي لا تقوم الحجابة الا بها . والآن سنذكر في هذا الموضع الخلفاء العباسيين وحجابهم من الاتراك فمثلاً : المعتصم : استحجب وصيفاً ثم حماد بن دنفش ، والواثق ، حاجبه ايتاخ(*) ووصيف . والمنتصر : حاجبه وصيف ، ثم بغا ثم اوتامش . والمستعين : حاجبه اوتامش واوتامش هذا كاتبه . والمعتز : حاجبه سماح بن صالح بن وصيف . والمهتدي : حاجبه باك باك التركي وصالح بن وصيف . والمعتمد : حاجبه موسى بن بغا ثم جعفر بن بغا ثم بكمتر. (العقد ج ٥ : ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦) . (*) (الطبري ٣٣/١١) وانت ترى من هذا مدى توسع نفوذ الاتراك في الدولة العباسية .

« شاكر التركي » — احد قواد جنود الاتراك في جيش الخليفة[1] — و « المبارك التركي[2] » . وانمـا نال الاتراك ثقة الخلفاء لمـا عرف عنهم من الاخلاص في الولاء والتفاني في الخدمة . فقد روى الجاحظ[3] « قيل لمبـارك التركي وعنده حماد التركي انكم من مذجح. قال: ومذجح هذا من هو ذلك ، ومـا نعرف الا ابراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام وامير المؤمنين » . ولعل هذا يدلنـا على درجة اعتصام الاتراك وتمسكهم بالولاء للخليفة العباسي . اذ انهم لا يعرفون بعد ابراهيم (صلعم) ، غير أمير المؤمنين .

وفي زمن المهدي دخل كثير من ملوك الاتراك في ما وراء النهر تحت طاعته مع ملوك الأمم الأخرى. ذكر اليعقوبي ان المهدي وجه رسولا الى الملوك يدعوهم الى طاعته فأجاب اكثرهم الى الدعوة ومن جملتهم[4] : ملك كابل شاه يقال له « حنحل » وملك طبرستان : « الاصبهبذ » ، وملك الصغـد : « الأخشيد » ، وملك طخارستان : « شروين » ، وملك بامبان : « الشير » ، وملك فرغانة : « فرزان » ، وملك اشروسنة : « آفشين » ، وملك الخرلخية : « جبغوية » ، وملك سجستان : « رتبيـل » ، وملك الترك : « طرخان » ، وملك التبت : « صهورون » ، وملك السند : « الراي » ، وملك الصين : « بغبور » : وملك الهند : « وابراح وهوفور » ، وملك التغزغز : « خاقان » . ولكن مع الاسف لم يأت اليعقوبي بأية تفاصيل أخرى في هذا الشأن .

الهادي (١٦٩ — ١٧٠ ﻫ)

ولما آلت الخلافة الى الهادي (١٦٩ – ١٧٠ ﻫ) ، كان المبـارك التركي من

---

(١) راجع كتاب الوزراء والكتاب ، الجهشياري ص ١٥١ .

(٢) راجع لطائف المعارف ، الثعالبي ص ٢٠ .

(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٥ .

(٤) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧ .

نخبة قواده، وكانت له خدمات في الجند لا يغض النظر عنها وخاصة في التنكيل بالحسين بن علي الذي خرج في المدينة في سنة ١٦٩ هـ [١] . وأنشأ المبارك حصناً حصيناً بقزوين سمي على اسمه (مدينة المبارك)[٢] او المباركية[٣] ونزلها طائفة من الاتراك .

الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ)

وفي زمن الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) امكن لكثير من الاتراك – الجواري منهم والغلمان – ان يتصلوا بالخليفة ويدخلوا في قصره ويتقربوا اليه . وبصرف النظر عن الجواري التركيات اللائي قدمن الى الخليفة وانجبن له المأمون والمعتصم من ابنائه كان هناك عدد من الاتراك اشتهروا في المناصب العالية ببلاطه منهم : ابو سليم فرج الخادم التركي . وكان فرج الخادم من قواد الاتراك وقد برز في عهد الرشيد وعمر مدينة طرسوس وأكمل بناءها فنزلها الناس في سنة ١٧٠هـ[٤] . وابو سليمان التركي . قد ولاه الرشيد الثغور وعمر مدينة عَيْنُ زَرْبى ، حوالي سنة ١٩٠هـ ثم استولى الروم عليها فخربوها[٥] .

وكان الحرس الملكي في عهد الرشيد مؤلّفاً من الجنود الأتراك على غرار ما كان في عهد الخلفاء من قبله . وهؤلاء هم الذين كانوا يستقبلون الوفود والرسل الوافدين من البلدان المختلفة . ويحدثنا ابن عبد ربه عن وفد من أحد ملوك الهند الى الرشيد يحمل هدايا من سيوف قلعية وكلاب سيورية وثياب من الهند

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٤ وما بعدها .
(٢) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٧ : ص ٧٩ .
(٣) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٧ : ص ٥١ .
(٤) راجع البداية والنهاية ج ١٠ : ص ١٦١ ، أيضاً الطبري ١٠/٥٠ .
(٥) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٤ : ص ١٧٧ .

وان الرشيد أكرم وفادتهم « فأمر الاتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم الا الحدق . واذن للرسل فدخلوا عليه »[١] .

الامين (١٩٣ – ١٩٨ هـ)

وكان عهد الامين (١٩٣ – ١٩٨هـ) الذي استخلفه الرشيد مليئاً بالفتن والاضطرابات بسبب خلع أخيه المأمون وتولية ابنه موسى العهد من بعده ونكثه العهد والميثاق الذي أخذه الرشيد .

وفي سنة ١٩٧هـ حاصر طاهر وهرثمة وزهير بن المسيب الأمين محمداً ببغداد[٢] . فكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها .

ويذكر الخُرَيمي(*) – الاديب التركي – تلك الوقائع ويصف الاتراك الذين كانوا في جند الأمين فيقول[٣] :

بل هل رأيتَ السيوفَ مُصلَتَةً   اشهَرَها في الاسواقِ شاهِرُها
والخيل تستَنُّ في ازقَّتِها   بالتركِ مسنونةً خناجرُها

المأمون والاتراك (١٩٨ – ٢١٨ هـ)

وكان المأمون والياً في خراسان قبل ما آلت اليه الخلافة . ويقول البلاذري عن صلته بالأتراك في ذلك العهد : انه كان يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يُسلم من الاتراك ، ويسني العطاء لمن أسلم . واذا ورد ملوك الترك بابه بالغ

(١) راجع العقد ج ٨ : ص ٢٦١ – ٢٦٢ .
(٢) راجع الكامل في التاريخ ج ٥ : ص ١٥٧ .
(*) انظر بالتفصيل الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٣) راجع الطبري ج ١٠ : ص ١٧٩ .

في تشريفهم وأدرّ عليهم الأرزاق[١] . وبهذا أمكن اتصاله بكثير من الاتراك وقد ألف جيشاً منهم قبل ما تفضي إليه الخلافـة . ويحدثنا الجاحظ عن بعض غزوات المأمون بحيث يدلّنا على ان الاتراك كانوا من جنده الخاص . فانـه يقول[٢] : « رأيت في بعض غزوات المأمون سماطي جنـدٍ على جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارسٍ من الاتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر واذا هم قد اصطفّوا ينتظرون مجيء المأمون . وقد انتصف النهار واشتدّ الحرّ فورد عليهم وجمع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او أربعة . وجميع تلك الأخلاطِ من الجند قد رَموا بنفوسهم الى الأرض الا ثلاثة او أربعة » .

وقد ارتقى الاتراك في عهد المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ) الى المناصب الخطيرة في الدولة . ومن جملتهم « طولون » – الذي أسس أبناؤه الدولة الطولونية في مصر – وكان طولون (حوالي سنة ٢٠٠هـ) في جملة من أرسلهم ابن اسد الصمامي – من عمّال المأمون في خراسان – من المماليك، متناسب الأعضاء قوي البنية . فأعجب به المأمون فألحقه بحاشيته ، وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير الستر[٣] . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان موضع ثقة الخليفة لأمانته واخلاصه في المحافظة على حياته الشخصيّة . ودام طولون في هذا المنصب في عهد المعتصم .

وفي خلافة المأمون ورد كاوس التركي ملك اشروسنة مدينة السلام وأظهر الاسلام . وملّكه المأمون على بلاده[٤] . ثم ملك ابنه « خيذر بن كاوس » الملقب بالأفشين ، وستأتي أخباره في موضعه .

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٦ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (وسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦١ .
(٣) راجع تاريخ مصر الحديث ، جرجي زيدان ج ١ : ص ١٨٠ .
(٤) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٦ .

وكان الأفشين من نُخبة قوّاد المأمون وله خدمات كثيرة بقمع الثورات التي وقعت في بلدان الخلافة . وفي سنة ٢١٥هـ سار الافشين الى مصر للقضاء على الثوار الذين اخلّوا بالأمن والصلح . وبعد حروب عديدة ظفر الافشين بالبيما – وهي من أرض مصر – ونزل أهلها بالأمان على حكم المأمون . فلما استقر الأمن والسلم رجع الى عاصمة الخلافة وذلك سنة ٢١٧هـ[١] .

الا انه برغم ما بذله المأمون من جهد لم تنته الثورات بل توسع نطاقها يوماً فيوماً . وكان العلويون مصدر القلق والاضطراب حتى أخذت بعض الأماكن تستقلّ عن الدولة ، كذلك ثار أهل بغداد وولّوا ابراهيم بن المهدي الخلافـة حينما كان المأمون بمرو ، على ما فصّله الطبري[٢] . وشق نصر بن شبث عصا الطاعة على أمير المؤمنين وكان يتعصب للامين ، وظهر بابك الخرّمي يدعو الناس الى البغي والفساد ، فاجتمع الناس حوله وكثر أصحابه الى حدّ ان أصبح يهدد دولة المأمون . ووجه المأمون محمد بن حميد لقتال بابك فقتل محمد بن حميد وذلك سنة ٢١٤هـ ، وعقد المأمون لعبدالله بن طاهر على الجبال وحرب الخرّمية[٣] فلم ينتصر ولم تزل هذه الأخطار متفاقمة الى ان جاء عهد المعتصم .

بحث هام عن خصائص الاتراك في مجلس المأمون

وتحت ضغط تلك الحوادث التي أشرنا إليها مجملاً أخذ المأمون ورجال الدولة من الوزراء والأمراء يحسون بحاجة شديدة الى اتخاذ عنصر جديد من غير العرب والفرس . وبازدياد القلق والفتنة التي التهبت نيرانها في أرجاء الخلافة ازدادت

(١) راجع كتاب الولاة وكتاب القضاة ، الكندي ص ١٨٩ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٢٥٨ وما بعدها .
(٣) راجع المعارف لابن قتيبة ص ٣٩١ .

حاجة الخليفة الى التنكيل بالثوار وازالة الأخطار التي أحاطت بالدولة فلم يجد هناك عنصراً آخر الا الاتراك .

وفي الحقيقة ان الأمراء والوزراء كانوا ينظرون الى الاتراك في ذلك العهد على الوجه الآتي : انهم حديثو العهد بالاسلام وقلوبهم سليمة لا يفسد الهواء طبيعتهم ، وعقولهم وأفكارهم وآراؤهم صافية خالصة . وبجانب هذه الخصال الحميدة اشتهروا ببطولتهم ونجدتهم وشجاعتهم بين سائر الأمم في الجامعة الاسلامية . اذن كان كل شيء يدعو الى الاستعانة بالأتراك في أمور الدولة وخاصة في الجيش .

ومن ناحية أخرى كان المعتصم من المتحمسين الأولين لتجنيد الاتراك في جيوش الخلافة حتى في أيام المأمون قبل ما تفضي إليه الخلافة . فقد كتب المعتصم الى أخيه المأمون في سنة ٢١٤هـ يأمره باتخاذ الاتراك وجلبهم الى عاصمة ملكه[1] . على كل حال فان فكرة جلب الاتراك نظراً الى تشتت أهواء العرب والفرس وفتور هممهم هي التي جعلت خصائص الاتراك موضع بحث في المجالس العامة والخاصة ، كما حدث ذلك في مجلس المأمون .

ضمّ المجلس جماعة ممن يغشى دار الخلافة من الوزراء والقواد ومن بينهم محمد ابن الجهم ، وثمامة بن أشرس ، والقاسم بن سيار ، وحميد بن عبد الحميد ومعه بخشاد الصغدي ، وأبو شجاع شبيب بن بخار خداي البلخي ، ويحيى بن معاذ ، وذو اليمينين طاهر بن الحسين وغيرهم من الاشراف وكبار رجال الدولة[2] .

وعندما افتتحت الجلسة خرج رسول المأمون فقال لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين متفرقين ومجتمعين ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته وليقل أيما أحب الى كل قائد منكم اذا كان في عدته من صحبه وثقاته ان

(١) راجع المعارف لابن قتيبة ص ٣٩١ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٤٠ .

يلقى مائة تركي او مائة خارجي »[1] . هذه هي القضية التي طرحها المأمون أمام الأعضاء للمناقشة فيما بينهم ، ولعل غرضه من ذلك هو التثبت من حسن رأيه في الاتراك لاغير . فأجاب الحاضرون في المجلس جميعاً :

« نلقى مائة تركي أحب إلينا من ان نلقى مائة خارجي » . الا ان حميد بن عبد الحميد خالفهم في رأيهم وقال :

« بل ألقى مائة خارجي أحب اليّ لأنني وجدت الخصال التي فضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامّة في الخارجي . ووجدتها تامة في التركي . ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة . ثم بان التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلّق . على ان هذه الأمور التي بان بها التركي عن الخارجي أعظم خطراً وأكثر نفعاً مما شاركه الخارجي في بعضها »[2] ثم استرسل حميد في تبيين الخصال التي يتفوق بها الاتراك على سائر الناس ولاسيما الخوارج فقال :

الأولى : الشدة ، فان التركي فيها أحمد أثراً وأجمع أمراً وأحكم شأناً لأن التركي من أجل ان تصدق شدّته ويتمكن عزمه ولا يكون مشترك العزم ولا منقسم الخواطر قد عوّد برذونه الا ينثني وان ثناه ان يملأ فروجه للأمر يديره مرّةً او مرّتين ، والا فانه لا يدع سننه ولا يقطع ركضه . وانما أراد التركي ان يوئس نفسه من البَدَوات ومن ان يعتريه التكذيب بعد الاعتزام لهَوْل اللقاء وحبّ الحياة ؛ لأنه اذا علم انه قد صيّر برذونه الى هذه الغاية حتى لا ينثني ولا يجيبه الى التصرّف معه إلا بأن يصنع شيئاً بين الصفّين فيه عطبه ، لم يقدم على الشدّة الا بعد إحكام الأمر والبصر بالعورة[3] .

والخارجي عند الشدّة انما يعتمد على الطّعان والاتراك تطعن طعن الخوارج،

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٤٠ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٤١ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ص ٤٤ .

وان شد منهم ألف فارس فرموا رشقاً واحداً صرعوا ألف فارس . فما بقاء جيش على هذا النوع من الشدّة .. والخوارج والاعراب ليست لهم رماية مذكورة على ظهور الخيل ، والتركي يرمي الوحش والطير والبُرجاس ، والناس والمجثمة والمُثُل الموضوعة .. وللخارجي عيب في مستدبر الحرب وللخراساني عيب في مستقبل الحرب . والتركي اذا ادبر فهو السمّ الناقع والحتف القاضي لأنه يصيب بسهمه وهو مُدْبر كما يصيب به وهو مقبل(١) .

والثانية : الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السُّرى وقطع البلاد فعجيب جداً .. فانّ الشَّغَريين والخُصيان والخوارج لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وَفوْا بتركي واحد . والتركي لا يبقى معه على طول الغاية الا الصميم من دوابّه . واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القومُ عشرة أميال سار عشرين ميلا . لأنه ينقطع عن العسكر يمنةً ويسرة ويُسرع في ذُرى الجبال ويَستبطِن قُعور الأودية في طلب الصيد ، وهو في ذلك يرمي كلَّ ما دَبَّ ودَرَج وطار ووقع(٢) .

واذا طالت الدُّلجة واشتدّ السير ، وبَعُد المنزل ، وانتصف النهار واشتدّ التعب وصمت المتسايرون فلم ينطقوا وشغل الناس الكلال ترى التركي في تلك الحال وقد سار ضِعف ما ساروا وقد تعبّ منكبيه كثرةُ النَّزْع ، يرى قرب المنزل عيراً او ظبياً او عرض له ثعلب او أرنب فيركض ركض مبتدىء مستأنف كأن الذي سار ذلك السَّير وتعب ذلك التعب غيره(٣) .

والثالثة : ويفخر الخارجي بأنه اذا طَلَبَ ادرك واذا طُلبَ لم يُدرك والتركي ليس يُحوج الى ان يَفوتَ ؛ لأنه لا يُطلب ولا يرام ومَن يروم ما لا يطمع فيه(٤) .

---

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٤٥ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٤٧ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٤٩ .
(٤) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٥١ .

وبعد ذلك أشار حميد الى الخصال التي تميز بها الاتراك فضلاً عن الخوارج فقال :

– أولاً – قد علمنا ان العلة التي عمّت الخوارجَ بالنجدة استواء حالاتهم في الديانة واعتقادُهم ان القتال دين(١) ، « ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على مُلك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والحرم ولا على حَمية ولا على عَداوة ولا على وطن ومنع دار ولا مال وإنما يقاتل على السَّلب والخيار في يده .. وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فانما يأخذ العفو من قُوّته ولا يحتاج الى مجهوده . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يطمع فيه أحد »(٢) .

– وثانياً – وقناة الخارجي طويلة صمّاء ، وقناة التركي مِطرَدٌ أجوف . والقَنيُ الجوّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ في الحمل(٣) .

– وثالثاً – وليس في الأرض قوم إلا والتساندُ في الحروب والاشتراك في الرّياسة ضارٌ لهم الا الاتراك . على ان الاتراك لا يتساندون ولا يتشاركون وذلك أنّ الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلاف الرأي والتنافُس في السِّرّ والتحاسد بين الأشكال والتواكل فيما بين المشتركين . والاتراك اذا صافّوا جيشاً ان كان في القوم موضع عورة فكلهم قد أبصرَها وعرَفها ، وإن تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع وكان الرأي الانصرافَ ، فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليسوا هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنما

---

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥١ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٢ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٢ .

شأنهم إحكام أمرهم ، فالاختلاف يقلُّ بينهم[١] .

ونحن نفهم من سياق الكلام ان أعضاء المجلس انتهوا بتصويب أفكار حميد ابن عبد الحميد حول هذه القضية حتى قال ذو اليمينين طاهر بن الحسين «ما أحسن ما قال حميد اما انه لم يقصّر ولم يفرط »[٢] فلما انتهى مجلس المأمون وبلغ خبره إليه قال « ليست بالترك حاجة الى حكم حاكم بعد حميد . فان حميداً قد مارس الفريقين »[٣] .

ويظهر من بعض المصادر ان المأمون طرح هذه القضية غير مرة في مجلسه وناقشها مع كبار رجال الدولة في بلاطه حتى يكوّن رأيه في العنصر الذي يصلح تجنيدهم في جيوش الخلافة . فقد روى ابن طيفور[٤] ان المأمون ، والمعتصم ، وآخر من القواد اختلفوا في ذكر الشجعان من القواد والجند والموالي فقال المأمون :

— « ما في الدنيا أحد أشجع من عجم أهل خراسان ولا أشد شوكة ، ولا أثقل وطأة على عدوّ ». وقال المعتصم :

— « ما في الدنيا سود الرؤوس أشجع ولا ارمى ولا أثبت على الاعداء من الاتراك وبحسبك انهم بازاء كل أمة من أعدائهم فهم ينتصفون منهم ويغزونهم في بلادهم ولا يغزوهم احد » ، فقال القائد :

— « ما في الدنيا قوم اشجع من أبناء خراسان المولدين ولا أفتك منهم فانهم هم الذين أدخلوا الاتراك في السواجير ، وآباؤهم هم الذين قادوا الدولة . وهم قاموا بحرب امير المؤمنين ثم اطاعوه فاستقامت الخلافة بهم » ، فقال المأمون :

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٥ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٦ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥٦ .
(٤) راجع تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٨٠ .

— « ما تصنعون باختلافنا ؟ هذا نصر بن شبث(*) نرسل اليه فنسأله عن أشجع من لقي من جندنا وقوّادنا من القوم جميعاً» . فامر بنصر فاحضر وسأله عما اختلفوا فيه . فقال :

« يا أمير المؤمنين الحق أولى ما استعمل ، كل هؤلاء قد لقيت ، أما الاتراك ، فانما التركي بسهامه فاذا انفذها أخذ باليد . وأما العجمي فبسيفه فاذا كلَّ استبسل ، وأما الأبناء فلم أر مثلهم لا يكلّون ولا يملون ولا ينهزمون يقاتلون في شدة البرد في الازار الخلق بلا درع ولا جوشن ولا مِجَنّ مرة بالسيف ومرة بالرمح ومرة بالسهام يخوضون الثلج في الأنهار ويخوضون في الهجير النار لا يكلون ولا يملون . فقال القائد : حسبنا بك حَكَما بيننا » .

ومن المهم أيضاً ملاحظة ان المأمون لم يتمكن من تحقيق فكرته بسبب كثرة القوّاد العرب حوله وتعصّبهم للقوميـة العربيـة مع كون المأمون أمـه تركية[١] انما تحققت فكرة جلب الاتراك في أيام المعتصم حينما تطوّرت الاوضاع من الناحية الاجتماعية والسياسية بحيث نشأت ازمة عدم الثقة بين الخليفة من جهة والعرب والفرس من جهة أخرى ، كما سنرى في الباب التالي .

(*) نصر بن شبث : ممن شقوا عصا الطاعة في عهد المأمون . وكان عربيّاً يتعصّب للأمين وينقم على المأمون لاتخاذه العناصر الأخرى دون العرب انصاراً له . (الطبري ١٠/٢٥٨ وما يليها في حوادث سنة ٢٠٥ — ٢١٠هـ) .
(١) راجع جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٧٠ .

الفصل الثاني

جلب الاتراك الى عاصمة الخلافة

الباب الأول

المعتصم والاتراك

(٢١٨ — ٢٢٧هـ)

افتتح المعتصم دوراً جديداً في افساح المجال أمام الشعوب الاسلاميّة المختلفة للمساهمة في السياسة والادارة حسب ميزتها الطبيعية . لأنه سار على الطريق التي رسمها له أخوه المأمون في كثير من الأمور فاستعان بكثير من الاتراك وجلبهم من ما وراء النهر الى عاصمة ملكه وأجزل الهبات والعطايا لهم وقيّد أسماءهم في الديوان وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب وأمعن في شرائهم حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً ، وألّف منهم جيشاً كثيفاً لتثبيت دعائم دولته وولّاهم حراسة قصره وسلامة شخصه .

وهؤلاء الأتراك أثروا تأثيراً بالغاً في الشئون السياسية والاجتماعية في دار

الخلافة واستولوا على الجيش أولاً وعلى الحكومة ثانياً وخدموا خدمة كبيرة لا ينكر قدرها في اخماد نار الفتن والقلاقل التي ظهرت في البلدان الاسلامية والتنكيل بالثوّار الذين ربما قطعوا الطريق ونهبوا أموال الناس وعاثوا في الارض فساداً .

وكان هؤلاء الاتراك دائماً رهن اشارة الخليفة يؤيدون سلطانه وينفذون أمره ويقاومون الاخطار التي تهدد الدولة في الداخل مثل بابك الخرمي او في الخارج مثل البيزنطيين الذين وقفوا بالمرصاد للقضاء على الدولة العباسية .

وقد توافرت الأدلّة على ان فكرة جلب الاتراك لم تكن جديدة على المعتصم بل برزت عنده بدافع من الأوضاع التي بدأت تتطور بسرعة منذ عهد المأمون . يقول البلاذري وهو قريب العهد من هذه الحوادث[١] « وكان المأمون يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يُسلم من الاتراك ويسني العطاء لمن أسلم واذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم واكرامهم وأدرّ عليهم الأرزاق . ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته في الترك أكثر من الخلفاء السابقين، وجلب الاتراك من ما وراء النهر وألف جيشاً كثيفاً منهم من أهل الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش حتى صار جلُّ شهود عسكره من جند ما وراء النهر . وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » .

فبما ان المعتصم جلب الاتراك بعد فكر ورويّة في مصالح الدولة بالنسبة الى الأوضاع الداخلية والخارجية . يتحتّم علينا ان نبحث بامعان واسهاب عن العوامل التي دفعته الى استقدام الاتراك والاستعانة بهم في الجيش والادارة .

---

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٦ .

اسباب جلب المعتصم الاتراك الى حاضرته

ذهب المؤرخون الى ان العوامل الرئيسية التي اضطرت المعتصم والخلفاء الذين جاؤوا بعده الى جلب الاتراك والاستعانة بهم هي :

– أولاً – نجدة الاتراك وبطولتهم ، يقول جرجي زيدان في ذلك[1] :
« وكان الاتراك يومئذٍ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوّة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوغى . ففكر المعتصم في ذلك فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد أهل بداوة وبطش ، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخيَّرُ منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ويبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عندهم عـدة آلاف وفيهم جمال وصحة» .

– وثانياً – ضعف ثقة الخلفاء بالعرب والفرس . يقول الدكتور شلبي[2] :
« أما الفرس فانهم سلكوا الى الاستبـداد بالسلطان وقـد ظهر منهم ذلك في ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألواناً من التنكيل . وأما العرب فقد ادركوا بأن سلطانهم قد زال بزوال دولة الامويين بسيوف الفرس مما دفع نصر ابن شبث للثورة في وجه المأمون دفاعاً عن العرب . وقد اضطر المعتصم في ضغط هذه الأحداث ان يبحث عن عنصر يعتمد عليه وتتوافر الثقة فيما بينهما » .

– وثالثاً – الحاجـة الى جيش قوي يقوم بحراسة الدولة : يقول الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن في ذلك[3] : « ولما ولي المعتصم الخلافة رأى ان دولته الواسعة لا بد ان يقوم بحراستها جيش قوي . فاستكثر من الاتراك فولّاهم

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان ج ٤ : ص ١٧٧ .
(٢) راجع التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الدكتور شلبي ج ٣ : ص ١١٩ .
(٣) راجع التاريخ الاسلامي ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ج ٢ : ص ٢٣٩ .

حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء » .

– ورابعاً – تحرّي المعتصم عن اداة طيعة فعالة لقمع القلاقل التي أصبحت تهدد الدولة : وفي ذلك يقول الدكتور شلبي[1] : فقد كان على المعتصم ان يخوض غمار حروب طويلة ومعارك شديدة ضد الزُطّ وبابك الخرّمي والروم ولهـذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة لينتصر بهم في هذه الحروب . من أجل هـذا فتـح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش الخلافة .

– وخامساً – خوف المعتصم من ظهور الفتنة بين الجنود : وفي ذلك يقول الاستاذ أحمد امين[2] « ان كثيراً من الجنـد (من الفرس والعرب) لـما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس . وذكر الطبري ان الجند لما بويع لأبي اسحاق – المعتصم – بالخلافة طلبوا العباس وبايعوه بالخلافة . فارسل أبو اسحاق الى العباس فاحضروه فبايعه العباس ثم خرج الى الجند فقال :

ما هذا الحب البارد ! قد بايعت عمّي وسلمت الخلافة اليه فسكن الجند » .
ويزيد أحمد أمين : «لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من غير أن تدعوه الى التفكير العميق ، حتى لا يتكرر مثله ، ففكّر ان يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب فهداه تفكيره الى الترك » .

– وسادساً – فلنتذكر عاملاً آخر وهو : ان الحذر من ردة فعل الأمويين وأنصارهم دفع بني العباس الى الاعتماد على الفرس أوّلاً ثم على الاتراك في شئونهم الخطيرة[3] .

(١) راجع التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الدكتور شلبي ج ٣ : ص ١٢٠ .
(٢) راجع ظهر الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ٤ .
(٣) راجع الجاحظ ومجتمع عصره ص ٢٢ .

وأخيراً لا ننسى ان المعتصم كان يرغب في الاتراك منذ صغره ويجمعهم في قصره . وهؤلاء الموالي كانوا يقومون بخدمته الشخصية ، والمعنى انـه نشأ بـين الاتراك وجالسهم وصحبهم قبل ما آلت اليه الخلافة. ويقول الكندي : « أقبل المعتصم الى مصر – لما عقد للمأمون عليها في سنة ٢١٣ – في أربعة آلاف من اتراكه »(١) .

ولعل أم المعتصم هي التي كان لها أعظم الأثر في توجيهه وجهة الحب للاتراك لكونها من الأصقاع التركية واشتراكها في تربيته حسب تقاليد الاتراك قبل ارتقائه العرش . ولا يخفى علينا انه كان في قصر الرشيد من الجواري والحظايا عدة آلاف ، اشتهرت منهن من التركيات « ماردة » من السغد(٢) كانت من أحظى النساء عند الرشيد انجبت له المعتصم الخليفة العباسي وقامت بتربية ابنها منذ صغر سنّه . ولهذا كان في طباع المعتصم سمات من أجداده الاتراك من ناحية البدن والروح ، أعني الشجاعة والنجدة والقوة وما يتبعها من الخصائص التي اشتهر بها الاتراك . ويقول السيوطي(٣) « وكان المعتصم يتشبه بملوك الأعاجم – أي خواقين الاتراك – ويمشي مشيهم » . وقال ابن أبي دُواد « وكان المعتصم يخرج ساعده اليّ ويقول :

يا أبا عبدالله عضّ ساعدي بأكثر قوتك، فأمتنع ، فيقول : انه لا يضرني ، فأروم ذلك فاذا هو لا تعمل فيه الأسنّة فضلاً عن الأسنان »(٤) .

وشاءت الأقدار أيضاً أن يمرّ المعتصم بتجارب عديدة اثبتت له حسن رأيه في الاتراك ولا سيما ثباتهم في الحرب والشدة، فمثلاً عندما كان المأمون في خراسان ثار أهل بغداد وولوا ابراهيم بن المهدي الخلافة . واضطرّ المعتصم ان ينضمّ اليه

(١) راجع كتاب الولاة وكتاب القضاة ، الكندي ص ١٨٨ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٩ .
(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٢ .
(٤) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٢ .

فوجه ابراهيم بن المهدي المعتصم على الذين يخالفونه ومن جملتهم مهدي بن علوان الحرُوريّ في سنة ٢٠٣هـ . وفي الحرب التي وقعت بين المعتصم وبينه انهزم جنده وتركوه الاجماعة من موالي الاتراك . وهؤلاء مع قلة عددهم ثبتوا وصبروا حول المعتصم وحملوا أوزاره الى ان انتهت الحرب(١) . هـذه الحادثة وأمثالها أثرت تأثيراً بالغاً في المعتصم حتى ركن الى الاتراك وفكر في الاستكثار منهم لما كان أميراً . وفعـلا كتب الى أخيه المأمون باتخاذ الاتراك في جيوش الخلافة(٢) .

عدد الاتراك في جيوش المعتصم

ولما ارتقى العرش سنحت له فرصة لجلب الاتراك الى عاصمة ملكه . فلم يكتف باشترائهم في أسواق بغداد بل كتب الى واليه في خراسان ان يرسل من هؤلاء الاتراك من بلاد ما وراء النهر الداخلية . يقول الاصطخري في ذلك(٣): « بلغني ان المعتصم كتب الى عبد الله بن طاهر كتاباً عرّض تهدُّده فيه . وأنفذ الكتاب الى نوح بن أسَد فكتب اليه ان بما وراء النهر ثلاث مائة ألف قرية ليس فيها من قرية الا خرج منها فارس وراجل لا يبين على أهلها فقدهم ... وبلغني ان بالشاش وفرغانة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور . وهم مع ذلك أحسن الناس لكبرائهم وألطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالاً، وكانت الاتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والاقدام وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزيّ السلطاني فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء

(١) راجع الطبري ، ج ١٠ : ص ٣٤٥ .
(٢) راجع المعارف لابن قتيبة ص ٣٩١ .
(٣) راجع كتاب مسالك الممالك للاصطخري ص ٢٩١ .

عساكرهم مثل الفراغنة(*) والاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة » .

وفضلا عن الشراء والزام الخدمة العسكرية فان المعتصم رغّب امراء الاتراك وأبناء خواقينهم في القدوم اليه . وممن جاء منهم بهذا الطريق « جُفْ ابن يَلتكينْ » . ويقول ابن خلكان فيه[1] : « وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليه من فرغانة جماعة كثيرة . فوصفوا له « جُفّ » وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب . فوجه المعتصم من أحضرهم . وحضروه فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع بسر من رأى . وقطائع « جف » الى الآن معروفة هناك » .

وهكذا كثر الاتراك في زمن المعتصم . يقول السيوطي « هو أول الخلفاء ادخل الاتراك الديوان وكان يتشبه بملوك الأعاجم (أي خواقين الاتراك) ويمشي مشيهم . وبلغت غلمانه الاتراك بضعة عشر ألفاً – في أوائل عهده[2] » والمسعودي يقول[3] « أربعة آلاف تركي » ولعله اخطأ في تقدير عدد الاتراك في جيش المعتصم . ويذكر الكندي[4] كما ذكره ابن تغري بردي[5] : ان المعتصم خرج من بغداد في أربعة آلاف من أتراكه وسافر حتى قدم مصر في أيام يسيرة – وذلك سنة ٢١٣هـ في خلافة المأمون .

وبمرور الأيام تقاطرت ألوف من الاتراك الى بغداد – خصوصاً بتشجيع الولاة – بعد ان سمعوا ان إخوانهم انضموا الى جند الخليفة وأخذوا يعيشون عيشة راضية . واجتمع لدى المعتصم « سبعون »[6] بل « ثمانون »[7] ألف تركي.

(*) اهل فرغانة .
(١) راجع وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٤ : ١٤٧ .
(٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٢ .
(٣) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٧٢ .
(٤) راجع كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٨٨ .
(٥) النجوم الزاهرة ج ٢ : ص ٢٠٨ .
(٦) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٠ : ص ١٧٤ .
(٧) النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٣٣ .

والى ذلك أشار علي ابن الجهم بقوله :

أمامي من له سَبعون ألفاً   من الاتراكِ مُسرعةُ السِّهام(*)

ولما جاء عهد المتوكل بلغ عدد الاتراك في جيش الخليفة أكثر من مائتي ألف تركي . فقد روى الطبري « ان المتوكل وجه زيرك التركي الى محمد بن البعيث بن حلس(**) في مائتي ألف فارس من الاتراك فلم يصنع شيئاً فوجه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية – فرقة من جنود الاتراك – فلم يغن شيئاً فوجّه إليه بُغا الشرابي في أربعة آلاف ما بين تركي وشاكري ومطربي »[1] . هذا فيما يتعلق بكثرة عدد الاتراك . أما منزلتهم في بلاط الخليفة وتقدير عامة الناس لخدماتهم فلا أدلّ على ذلك من رسالة الجاحظ الخاصة بالأتراك . ومدح الجاحظ المعتصم بصدد اصطناعه الاتراك فقد قال عقب انقضاء عهد المعتصم[2] : « أشهد ان المعتصم كان أعرفهم حين جمعهم واصطنعهم » وفي موضع آخر[3] : « فصاروا –أي الاتراك– للاسلام مادّة وجنداً كثيفاً وللخلفاء وقاية وموئلا وجُنّةً حصينةً وشعاراً دون الدثار » ومع ذلك هجا دعبل الخزاعي (من أكبر الشعراء العلويين المعروفين بالتعصب لآل البيت) المعتصم وقال[4] :

(*) الأغاني ٣٠٥/١٠ « امام من له عشرون ألفاً – من الاتراك مُشرعة السهام » .
(**) هو الذي هرب بعدما سجنه الخليفة الى « مرند » – منطقة في اذربيجان – فتحصن فيها واتاه من أراد الفتنة من كل ناحية وهال أمره . وبعد حروب طويلة غلب عليه بغا الشرابي – احد قواد الاتراك – وامر المتوكل بضرب عنقه لما جاء به أسيراً الى سامراء . وذلك سنة ٢٣٥ والطبري ٣٥/١١ .
(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣٢ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) جـ ١ : ٦٢ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٧٥ .
(٤) راجع دعبل ابن علي الخزاعي ص ٢٣٤ .

وقام إمامٌ لم يكن ذا هدايةٍ فليس له دينٌ وليس له لبُّ
ملوكُ بني العبّاس في الكُتبِ سبعةٌ ولم تأتِنـا عن ثامنٍ لهم كُتُبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيـاراً اذا عُـدّوا وثامنهم كلبُ
واني لأُعلي كلبهم عنكَ رِفعـةً لانكَ ذو ذنـبٍ وليس لهم ذنبُ
لقد ضاع أمر الناس اذ ساس ملكهم وصيف وأشناس وقد عظم الكرب
وهَمُّكَ تركيّ عليـه مهانـةٌ فانت لـه أمٌ وأنت لـه أبُ

إمعان النظر في ملاحظات الجاحظ

كتب الجاحظ رسالة نادرة في فضائل الاتراك بمناسبة دخولهم في جيوش الخليفة وخلّفها اثراً ساطعاً في حقل الأدب حيث لا يمكن غض النظر عنهـا للذين يهتمون بدراسة الترك في عهـد المعتصم . وفي الحقيقـة كان الجاحظ من المتحمّسين الأوّلين لجلب الاتراك واستقدامهم من ما وراء النهر واقامة ركن قوي منهم بين أركان الجند . ومن أجل ذلك كتب رسالة مستقلة في مناقب الاتراك وفضائلهم « من أحاديث رواها ووعاها وأمور شاهدها ورآها وفضائل تلقّفها من أفواه الرجال وسمعها »[1] من البطولة والنجدة والشجاعة والفروسية والحرب والمقاتلة وما يستتبعها من الخصال الحميدة التي تعدّ من الصفات العسكرية اللازمة .

وضع الجاحظ رسالته على ما يبدو لنا في أوائل خلافة المعتصم . فانه يقول في صدرها « هذا كتاب كنت كتبته في أيام المعتصم »[2] واهتم اهتماماً بالغاً بأن يكون كتاباً قصداً ومذهباً عدلاً ولا يكون كتاب إسرافٍ في مـدح قومٍ واغراقٍ في هجاء آخرين ، وان كان الكتاب كذلك شانه الكذب وخالطه

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٩ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٦ .

التزيّد وبني أساسه على التكلف وخرج كلامـه مخرج الاستكراه والتغليق . فاذن لا قيمة له عند من يقرأه ويستفيد منه . ولذلك اجتنب الجاحظ فيـه « مذاهب الجدال والمراء واتباع الهوى »[1] .

وبعدما أكمل الجاحظ كتابتها أراد أن يقدم تلك الرسالة الى المعتصم بالله الخليفة العباسي لعدّة أغراض مهمة :

١ — اقامة الاتراك ركناً قوياً بين أركان الجند .

٢ — تهيئة الجوّ السياسي لذلك بـين الوزراء والأمراء والقواد في بلاط الخليفة .

٣ — حمل الناس على قبول الأتراك وإقناعهم بالحاجة الى خدمتهم .

وربما كانت الرسالة ترمي الى أغراض ثانوية منها :

١ — الاتصال بالخليفة والتقرب اليه .

٢ — اظهار المحبة للاتراك وتقوية موقف الخليفة ضد المتعصبين للقومية العربية .

٣ — استمالة قلوب أسيادة من الاتراك حتى ينال منهم حظوة من الناحية المادية والمعنويّة .

فبهذه الأماني كتب الجاحظ رسالته وأراد ان يقدمها الى الخليفة إلا انها مع مرير الأسف « لم تصل إليه لأسباب يطول شرحها » وسكت هو عنها . فلما كان عهد المتوكل وزالت الموانع التي ظهرت في عهد المعتصم أعاد الجاحظ النظر في رسالته مرة أخرى بحسب الظروف السياسية والاجتماعية آنذاك وقدمها الى

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٠ .

الفتح بن خاقان التركي ، وكان من أكبر الرجال في بـلاط الخليفة ووزير المتوكل العباسي والغالب عليه في مهمات أموره .

ونحن سنقف في كتابنا هذا على هذه الرسالة المشهورة « فضائل الاتراك » او «رسالة الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » في موضعها بالتفصيل في البحث القادم .

الباب الثاني

الاتراك في بغداد

تعليم الاتراك وتربيتهم في بلاط الخلفاء

وأخذ الاتراك يتدفقون على بغداد في عهد المعتصم . وألف المعتصم من هؤلاء الاتراك جيشاً ملكياً وأمر بقيد أسمائهم في ديوان الجيش واسقط العرب والفرس منها ثم أدخلهم في جيشه المحارب ، واستطاعوا بشجاعتهم وبطولتهم ان ينالوا تقدير الخليفة وأن يصلوا الى القمة في أمور الحرب بروحهم العسكرية . وارتفع شأن هؤلاء الاتراك في عهد المعتصم والخلفاء الذين جاءوا بعده حتى ظهر أكبر القوّاد من بينهم كالأفشين، واشناس، وايتاخ، ووصيف ، وبغا الكبير وأمثالهم. وكان لهم نصيب وافر في الانتصارات ضد الزُطّ ، وبابك الخرّمي والروم في موقعة عمورية .

ولا يخفى علينـا ان الأمراء والقوّاد كانوا يعنون عناية خاصـة بتدريب الاتراك وتربيتهم على منهج الكتاب والسنة . فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان لكل طائفة من الاتراك فقيه يحضر اليهم كل يوم ويعلمهم القرآن واللغة والخطّ والأدب والاخلاق على ما جـاء في الشريعة الاسلاميّة ، وملازمة الصلاة . فاذا شبّ التركي علّمه الفقيه شيئاً من الفقه مما يحتاج إليه في

حياته من المعاملات والعقوبات والنكاح وغير ذلك . فاذا ارتقى الى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشّاب ولعب الرمح ونحو ذلك من التدريب العسكري . واذا ركب الاتراك لرمي النشاب او اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يدنو منهم . فاذا أتقن فنون الحرب تنقل في أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء . ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وقد ينبغ منهم الفقهاء والأدباء والشعراء والحساب[1] .

وكان المعتصم يُعنى بأخواله الاتراك عناية خاصة ويخاف من اختلاطهم بالعرب وغيرهم من الأمم الأخرى ويَفصِلهم عن بقية جنده لئلا يتأثروا به ، وكان حريصاً على استبقائهم على دمائهم الصافية وفطرتهم الأصلية . فلما بنى سامرّاء كما قال المسعودي « أفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم الا الفراغنة وجعل محلاتهم بعيدة عن الاسواق والزحام »[2] ولم يكتف بذلك بل ذهب في سياسته هذه الى حد أنه اشترى لهم الجواري فزوجهم منهن ومنعهم من ان يتزوّجوا ويصاهروا الى أحد من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوّج بعضهم الى بعض وأجرى لجواري الاتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن احد منهم يقدر ان يطلق امرأته ولا يفارقها . وفضلا عن ذلك ألبس المعتصم أتراكه زيّاً خاصاً لكي يُعرفوا به[3] .

---

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان ج ٤ : ص ١٨١ .

(٢) راجع مروج الذهب ، المسعودي ج ٢ : ص ٢٧٢ .

(٣) راجع مروج الذهب ، المسعودي ج ٢ : ص ٢٧٢ .

عيش الاتراك في دار الخلافة

لما قدم الاتراك الى دار الخلافة افتقدوا الجوّ الذي تعوّدوه وعاشوا فيه من قبل في سهول آسيا الوسطى حيث انهم كانوا في حرّية تامة بعيدين عن القيود والحدود التي تـُعدّ من ضروريات البيئة الحضرية وحياة المدن الراقية .

وجوّ بغداد وما حولها بحسب كونها حاضرة الخلافة كان حضريّاً فقد ازدهر فيها العلم والأدب والفن والشعر وصارت مهبط العلماء ومنزل البلغاء ومأوى الادباء والفصحاء الذين وفدوا اليها من أقطار العالم . إلا ان هذا الجوّ لم يوافق طبيعة الترك العسكرية حتى ضاقت عليهم الأرض وأخذوا يتجوّلون في الأسواق ويتدرّبون بسلاحهم ويولدون الهيجان بين الناس . وكثيراً ما كانوا يركبون على خيولهم في شوارع بغداد ويركضونها كأنهم في سهول آسيا الوسطى لأن الاتراك كما أشار الجاحظ « قوم يشتدّ عليهم الحصر والجثوم وطول اللبث والمكث وقلة التصرّف والتحرك . واصل بنيتهم انما وُضع على الحركة وليس للسكون فيها نصيب . وفي قوى أنفسهم فضلٌ على قوى أبدانهم . وهم أصحاب توقـُّد وحرارة واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم سريعٌ لحظهم ، وكانوا يرون الكفاية مَعجزة وطول المُقام بلادة والراحة عُقلة والقناعة من قِصر الهمّة وأن تـَركَ الغَزْوِ يورث الذِّلـّة »[1] .

ولذلك لم يألف أهل بغداد هؤلاء الاتراك ولم يحسنوا جوارهم . وفضلا عن ذلك دبّ الحسد في قلوب بعضهم خصوصاً بعدما رأوا المعتصم يعتني بأخواله الأتراك عناية خاصة وينفق عليهم الفضّة والذهب ويُجزل العطايا ويبذل النعم ويغدق عليهم المال . ومن آثار حقدهم أنهم كانوا يأخذون الاتراك وينكـّسونهم عن دوابهم ويقتلونهم حينما شذّ الاتراك عن جماعتهم . ولذلك كان الاتراك يشكون مراراً الى المعتصم أهل بغداد وسوء معاملتهم . ويقول الطبري بصدد خروج

---

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦٥ .

المعتصم الى القاطول[1]: كان غلمانه الاتراك لا يزالون يجدون الواحدَ بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها . وذلك انهم كانوا يركبون الدّواب فيتراكضون في طريق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة فيأخذهم الأبناء فينكّسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجرح بعضهم ، فشكت الاتراك ذلك الى المعتصم .

وبمرور الأعوام كثر النزاع بين الاتراك وبين أهل بغداد الى حد ان أصبح الناس يشكون الى الخليفة هذه الحالة المزعجة كما يقول ابن طَباطَبا[2] « فركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم :

– يا أبا اسحاق ! فأراد الجند ضربه ، فمنعهم المعتصم وقال له :

– ما لك يا شيخ ؟ فقال :

– لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شرَّ جار ، جئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت صبياننا وأرملت نساءنا والله لنقاتلنّك بسهام السَحَر ! – يعني الدعاء – . والمعتصم يسمع ذلك كله . فدخل منزله ولم ير راكباً الا في يوم مثل ذلك اليوم فركب وصلّى بالناس العيد وسار الى موضع سامرا فبناها » .

اذن فلنقدّر أن ازدحام الاتراك في بغداد وجريهم بخيولهم في شوارعها كان شيئاً طبيعياً بالنسبة الى هؤلاء الذين كانوا قبل قدومهم الى عاصمة الخلافة يعيشون في بلادهم على ظهور خيولهم مرتحلين من الصحاري الى المروج . ويقول شيخنا الجاحظ[3] : « ولو حصلت مدّة عمر التركي وحَسَبْتَ أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض » وفي موضع آخر[4] « ولم تكن

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .
(٢) راجع الفخري ص ١٨٨ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٤٨ .
(٤) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ٧١ .

همهم غير الغزو والغارات والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وتدويخ البلدان » . ويقول أيضاً[1] « أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم » .

فهَبْ قوماً وُضع اصل بنيتهم على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب كيف يتركون خصالهم الطبيعية التي امتازوا بها بين سائر الأمم حتى يخالطوا أهل بغداد ويرضوا بحياة المدن الراقيـة التي تميت الروح العسكريّة وتورث حبّ الراحة والتمتـع بالحيـاة ؟ أو ليس المعتصم جلبهم لأنهم عُرفوا بالشجاعـة والنجدة والفروسية والصبر على القتـال كما عُرفوا بصحّة الأبـدان وتركيب الطبائع ؟ اذن فلا مانع لدينا من ان نلتمس لهؤلاء عذراً كما ان لاهل بغداد حقاً في الشكوى ضدّهم .

سامراء : المدينة التي أنشئت للاتراك

وفي الحقيقة لم تمض مدة حتى اضطرّ المعتصم الى انشاء المدينة الجديدة التي سميت « سُرَّ من رأى »(*) خاصة للاتراك لأول مرة في التاريـخ في الدولة العباسية في عهد المعتصم .

علّـل المؤلفون انتقال المعتصم من بغداد الى سامرّاء بسبب الاتراك الذين كانوا يُزعجون الناس بركضهم على الخيول في شوارع بغداد. إلا ان هناك من الدلائل

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ٧١ .
(*) نصادف في المصادر اسماء مختلفة لهذه المدينة ومنها « سامرّاء » وهو اعمها ، و « سُرّ من رأى » و « سُرّ من اراء » وحتى « ساء من رأى » . وقيلت نكتة وهي : لما عمرّت سامرّاء وا كملت واتسق خيرها سميت « سُرور من راء » ثم اختصرت فقيل «سر من راى» فلما خربت وتشوهت خلقتها واستوحشت سميت « ساء من رأى » ثم اختصرت فقيل « سامرّاء » (معجم البلدان) .

والقرائن ما يشير الى ان المعتصم أمر ببنـاء العاصمة الجديدة لخوفه من جنود العرب والفرس وعدم ثقته بهم دون الاتراك . ومما هو جدير بالذكر أنه لما مات المأمون أراد الجند ان ينصب للخلافة ابنه العباس بـدلاً عن المعتصم . يقول الطبري « ان الجند شغبوا لما بويع لأبي اسحاق بالخلافة فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة فأرسل أبو اسحاق الى العباس فاحضره فبايعه ثم خرج الى الجند وقال :

— ما هـذا الحب البارد قـد بايعتُ عمي وسلمت الخلافة اليه ؛ فسكن الجند »[1] ، ومن الطبيعي ان يكون لهذه الحادثة الخطيرة أثر عميق في نفس المعتصم حتى يأخذ الحيطة والحذر فيما يتعلق بالمستقبل ويقول « اطلبوا لي موضعاً اخرج اليه وابني فيه مدينة وأعسكر به . فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على ان آتيهم في البـر وفي الماء »[2] فوقع اختياره على سامرّاء فبناها وخرج اليها .

وبجانب هذا السبب الرئيسي نستطيع ان نذكر كثرة الاتراك وازدحامهم في دار الخلافة التي لم تكن تتسع لمثل تلك الجموع التي حشدها المعتصم . ويذكر الحموي ان عدد الاتراك في جيش المعتصم بلغ سبعين ألفاً فيقول[3] : « لما ضاقت بغداد عن عسكره — وكان اذا ركب يموت جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطها — فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا :

— يا أمير المؤمنين ما شيء أحب إلينا من مجاورتك لأنك الامام والحامي للدين وقد أفرط علينا أمر غلمانك وعمّنا أذاهم فإما منعتهم عنا او نقلتهم عنا . فقال المعتصم :

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٠٤ .
(٢) راجع الفخري ص ١٨٨ .
(٣) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٠ : ص ١٧٥ .

— اما نقلهم فلا يكون الا بنقلي ولكن افتقدهم وانهاهم وازيل ما شكوتم منه . فنظروا وإذا الامر قد زاد وعظم ، وخاف منهم الفتنة ووقوع الحرب وعادوه بالشكوى وقالوا :

— ان قدرتَ على نصفتنا والّا فتحوّل عنّا والا نحاربك بالدعاء وندعو عليك بالاسحار . فقال : هذه جيوش لا قدرة لي بها . وساق من فوره حتى نزل الى سامرّاء ». وأمر بانشاء عاصمة جديدة للدولة العباسية على شاطىء دجـلة تقع من شرقيها على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد وتبعد عنها ستين ميلاً من ناحية الشمال . وندب المعتصم وزيره أحمـد بن خالد الكاتب سنة ٢١٩هـ لاختيـار الموضع وقال له[1] :

— يا احمد اشتر لي بناحية سامراء موضعاً أبني فيه مدينة فاني أتخوّف ان يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني — أي الاتراك — حتى أكون فوقهم فان رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم . فأعطى له مائة ألف دينار .

وان هذا الوزير قصد ذلك الموضع وابتاع ديراً للنصارى بخمسة آلاف درهم وموضع البستان الخاقاني بجواره بخمسة آلاف درهم كما ابتاع بعض الأراضي والدور المجاورة لذلك الموضع . ثم اطلع الوزير الخليفة على عقود البيع فخرج الى هذا المكان في أواخر سنة ٢٢٠هـ ونزل في المضارب التي أقيمت على شاطىء نهر القاطول . ثم قصد موضع سامراء واقام فيه ثلاثة أيام فأعجبه موقعه لأنه يسهل منه الوصول الى بغداد براً وبحراً اذا خرج أهلها عن طاعته . ولما خرج المعتصم الى القاطول استخلف ببغداد ابنه هارون الواثق[2] .

وكان السفاح قبل المعتصم قد شرع في بناء مدينة جديدة في ذلك الموضع وأراد المنصور الاستمرار في بنائها بعدما فرغ من تأسيس بغداد . وجاء الرشيد

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .

وبنى هناك قصراً وحفر عندها نهراً فسماه القاطول . وبقيت مدينة القاطول لم تستتم . ثم بنى المعتصم في ذلك المكان قصراً وهبه لمولاه أشناس القائد التركي ، فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده مدينة سامراء حاضرة خلافته الجديدة .

شرع المعتصم في انشاء عاصمته الجديدة في سنة ٢٢١هـ . فوضع أساس قصره فأحضر الفعلة والعمال والصنّاع وأرباب المهن من سائر الامصار الاسلامية واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومواضعهم في بلادهم ومجاورتهم للفراغنة والاشروسنية[١]. وافرد للتجار وارباب الحِرَف والصناعات أسواقاً خاصة . ونقل الى هذه المدينة من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار والثمار وشيّد في طرفها مسجداً جامعاً .. وحمل المعتصم – أيضاً – القراطيس الى سامراء مع تربتها ومائها وأمرهم باتخاذه هناك[٢] . وأمر بانشاء أربعة قصور حول قصره . ووهب تلك القصور لأربعة من قواد الاتراك وهم أشناس ، وايتاخ وبغا ووصيف ، وولّى كل واحد من هؤلاء القوّاد مع ألف نفر من الاتراك حراسة قصره وسلامة شخصه . وقد صرف شيخنا الجاحظ فصلاً من عمره في بغداد وسامراء وشاهد كثيراً من عجائب الدهور فيها وخالط الاتراك وجالس كبارهم وحكى في مؤلفاته شيئاً من ذكرياته الخالدة التي تتعلق بجنود الاتراك[٣] .

وانشئت مبانٍ كثيرة في عهد المعتصم وابنه الواثق ثم جاء المتوكل فأقام بالهاروني وبنى به أبنية كثيرة وأقطع الناس في ظهر سامراء فاتسعت منازل الناس بذلك وبنى هنا مسجداً جامعاً أعظم النفقة عليه وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها وينظر إليها من فراسخ ، وما زال قصر المعتصم وجامع

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٧٣ .
(٢) راجع التبصر بالتجارة للجاحظ ص ٤٢ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦٢ .

المتوكل الكبير قائمين الى الآن . وبنى المتوكل في سامراء ضريحاً للمرة الأولى[١] . وكان الخلفاء الى ذلك الوقت يُدفنون حيث يموتون بلا تكلّف اقتداء بالرسول ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الاهتمام الكثير بالمكان الذي يموتون او يدفنون فيه .

ولم تزل سُرّ من رأى في صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل . ويقول عبد الله بن المعتز في رسالته الى صديق له – حيث هو يصف سامراء – في جنود الاتراك[٢] : عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمدّ بالنقع حوافرُها ، قد نشرت في وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق وامسكها تحجيل كأسورة اللُجين ونوّطتْ عُذراً كالشّنوفِ ، في جيش يتلقف الاعداء اوائله ولم تنهض أواخره وقد صبّ عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر .

ثم ان سامرّاء أفل نجمها عقب نهاية خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٨٩هـ بحيث لم يبق لها شيء من مكانتها السابقة بعد القرن الثالث الهجري. ولم يبق في سامراء الا قبر علي الهادي الامام العاشر والسِرداب الذي اختفى فيه محمد المنتظر وقبور الخلفاء : قبر الواثق ، وقبر المتوكل ، وابنه المنتصر ، وأخيه المعتز ، والمهتدي والمعتمد بن المتوكل ، وما أبلغ قول الحموي[٣] « وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا اعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً فسبحان من لا يزول ولا يحول » .

(١) راجع تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٥٠ .
(٢) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٠ : ص ١٧٧ .
(٣) راجع معجم البلدان ج ١٠ : ص ١٧٦ .

انتصارات الاتراك في عهد المعتصم ؛ بابك الخرّمي

بعدما ألف المعتصم جيش الاتراك توجه به لاخماد الفتن والقلاقل التي استولت على المملكة الاسلامية من الداخل والخارج . ومنها فتنة بابك الخرمي التي قضى المعتصم عليها بالاتراك بقيادة الافشين التركي .

يقول المؤرخون ان بابك ظهر في أيام المأمون حوالى سنة ٢٠١[1] ودعا الناس الى دين جديد أساسه الحلول – اي تقمص الارواح – حتى اصبحت طائفته من الفرس تعيث في الارض فساداً وتخيف السبيل وتبيح الحرمات . فبعث المأمون اليه جنوداً لم يكتب لهم النجاح واوصى ولي عهده المعتصم ان يجد للقضاء عليه .

وفي عهد المعتصم تفاقم قلق اهل بغداد من بابك الخرمي ودخلت اذربيجان تحت حوزته واعانه ملك ارمينية وامبراطور الدولة البيزنطية . وانتشرت جيوشه ودخل الرعب في نفوس اهالي البلاد الواقعة بين اذربيجان وايران . يقول البلخي[2] : « وانضوى اليه القطّاع والخرّاب والدعار واصحاب الفتن وارباب النحل الزائفة ، وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين الف فارس سوى الرجالة . واحتوى على مدن وقرى ، واخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهماك في الفساد وقلة الرحمة والمبالاة وهزم جيوشاً كثيرة للسلطان وقتل عدة من قواده . وذكر في بعض الكتب انه قتل حوالي الف الف انسان من بين رجل وامرأة وصبي » .

فلما تولي المعتصم الخلافة جعل همه قمع بابك لانه اصبح خطراً على مملكته فأعدّ حملة كبيرة وجهّز جيشه الاتراك بقيادة قائده التركي الافشين بن خيذر

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٠٧ .
(٢) راجع كتاب البدء والتاريخ ، البلخي ج ٦ : ص ١١٥ – ١١٦ .

ابن كاوس سنة ٢٢٠ هـ. ووجهه لحرب بابك الخرمي حتى يقضي عليه[1] ثم قواه المعتصم ببغا التركي مع الاموال والرجال[2] . وفي سنة ٢٢٢ هـ. ارسل المعتصم جعفر بن دينار الخياط مدداً له ثم امده بايتاخ التركي ومعه ثلاثون الف الف درهم عطاء للجند وللنفقات[3] .

وبعد حروب طويلة انتصر الافشين على بابك وأسره هو وأخاه وكان فيما يروي الذهبي[4] « قوي النفس شديد البطش صعب المِراس . وقد عاش هذا الملعون وأفسد البلاد والعباد وامتدت أيامه نيفاً وعشرين سنة ، وأراد ان يقيم ملة المجوس بطبرستان » ، فلما وصل الخبر الى بغداد ضجّ الناس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور وكتبوا الكتب الى الأمصار بالفتح . بينما سار الافشين ببابك حتى اتى سر من رأى ، وذلك سنة ٢٢٣ هـ.

فلما صار الأفشين ببابك الى سامرّاء ترك المعتصم في قصره بالمطيرة . وفي اليوم التالي قعد له المعتصم واصطفّ الناس من باب العامة الى المطيرة ، واراد الخليفة ان يشهره ويريه الناس . فأمر بتهيئة الفيل وأمر به فجعل في قباء ديباج وقلنسوة سمّورٍ مدوّرة وهو وحده . فقال محمد بن عبد الملك الزيات في ذلك[5] :

قد خُضِبَ الفيلُ كعاداته   يحمِلُ شيطانَ خراسانِ
والفيلُ لا تُخْضَبُ اعضاؤه   الا لذي شأنٍ من الشانِ

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٠٨ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .
(٣) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١٧ .
(٤) راجع العبر في خبر من غبر للذهبي ج ١ : ص ٣٨٣ .
(٥) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٢ .

فاستشرف النـاس من المطيرة الى باب العامة ، فأدخل من دار العامـة الى امير المؤمنين فأمر سيّافه ان يقطع يديه ورجليه . وامر ايضاً بذبحه وشق بطنه ووجّه برأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرّا عند العقبة [١].

وهكذا زال خطر بابك الخرمي الذي اصبـح يهدد الدولة منــذ ايام المأمون . فتوّج المعتصم الافشين وألبسه وشاحين بالجوهر ووصـله بعشرين الف الف درهم منها عشرة آلاف الف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في اهل عسكره ، وعقد له على السند[٢][*] ، وادخل عليه الشعراء يمدحونه وأمر للشعراء بصلات . ومنهم ابو تمام الطائي ، وقد مدح الافشين بمدائح كثيرة منها[٣] :

بذ الجـلادُ البذّ فهو دفـينُ ... ما إن بهـــا الا الوحوش قطينُ
لم يُقرَ هذا السيفُ هذا الصبر في ... هَيجاء إلا عزّ هـــذا الدينُ
قد كان عُذرة سؤددٍ فافتضّها ... بالسيف فحلُ المشرقِ الأفشينُ

وقال اسحق بن خلف الشاعر في قصيدته التي مدح فيها المعتصم[٤] :

عزّت بأفشينٍ حُسامكَ أمـة ... والدينُ ممتسكٌ بـه استمساكا
لـمـا أتاك بـبِبابَـكٍ توّجتَـهُ ... وأحقّ مَن أضحى له تاجـا كا

---

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٣ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٤ .
(*) هذا هو الافشين التركي قائد جيوش المعتصم ودعامة دولته وسيف نصرته . وبعد ان سبقت له خدمته العالية منذ أوائل عهد المأمون في الدولة العباسية اتهم بالزندقة وألفت محكمة لمحاكمته بغرض سياسي . فحُكم عليه بالموت فرُد الى السجن ومنع عنه الطعام والشراب الى ان مات مسموماً . ثم أخرجت جثته فصلبت بالموضع الذي صلب فيه بابك الخرمي واحرقت بالنار (انظر بالتفصيل الجزء الثالث من هذا الكتاب) .
(٣) راجع ديوان ابي تمام ج ٣ : ص ٣١٨ .
(٤) راجع الاخبار الطوال ، الدّينوري ص ٤٠٥ .

فتح عمورية ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م.

ومن الانتصارات التي احرزها الاتراك في عهد المعتصم على البيزنطيين فتح عمورية . ومن المعلوم ان الحروب بين الروم والمسلمين بدأت منذ عهد النبي (صلعم) واستمرت الى ان جـاء المعتصم . وكان الروم اخذوا يهددون الدولة في عهد المأمون بإثارة الفتنـة والقلاقل . وفي عهد المعتصم اصبحت العلاقات بين الروم والعرب اسوأ مما كانت عليه . يقول الطبري [١] : « فلما ضيّق الأفشين على بابك وقهره كتب بابك الى ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل : ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليّ حتى وجه خيّاطه – اي جعفر بن دينار – وطباخه – أي ايتاخ – ولم يبق على بابه احد ، فان اردت الخروج اليه فاعلم انـه ليس في وجهك احد يمنعك » .

وقد ألّف تيوفيل بن ميخائيل جيشاً كثيفـاً من نحو ١٠٠،٠٠٠ نفر من عسكره ، واتخذ زِبطرة – مسقط رأس المعتصم – هدفـاً لهجومه محاولاً من وراء ذلك تخليص بابك من الأفشين . فأغار عليها وأحرقها وأسر من فيهـا من المسلمين كما يحدثنا ابن الاثير[٢] : انه قتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار كذلك على اهل مَلَطية وغيرها من حصون المسلمين ومثّل بمن صار في يده من المسلمين وسمل عيونهم وقطع انوفهم وآذانهم وفعل في بلاد الاسلام ما فعل .

فلما بلغ ذلك الخبر الى المعتصم استعظمه ، وكان من بين من اسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة فصاحت :

– وامعتصماه ! فلما انتهى الخبر بذلك أجابها وهو جالس على سريره : لبيك ! لبّيك يا أمّاه ! ونهض من ساعته وصاح في قصره : النفير ! النفير ! ثم ركب دابّته .

---

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٤ .
(٢) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٤٧ .

وفي الحقيقة وجّه المعتصم كل همه الى القضاء على امبراطور الروم والثأر منه، فجهز جيوشه الجبارة بكل ما تحتاج اليه من السلاح والعُدَد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقِرب وآلة الحديد والنِفط وغير ذلك[1]. وسلم القيادة العليا الى القواد الاتراك بحيث كان على مقدمته اشناس التركي ، وعلى ميمنته ايتاخ التركي ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة . وفيهم الافشين ، ووصيف التركي ، وغيرهم من الاتراك . ولما تم تجهيز الجيش سأل المعتصم :

– أي بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل له : « عمورية ، لم يعرض لها احد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي عين النصرانية ، وهي اشرف عندهم من القسطنطينية[2] » . وسار المعتصم نفسه على رأس هذه الجيوش الباسلة . ولما دخل بلاد الروم وجه الافشين الى انقرة . فلما فتحها الله عليه صار الى عمورية ، اذ لم يكن شيء مما يقصد اليه من بلاد الروم اعظم من هاتين المدينتين .

فلما سقطت انقرة صيّر المعتصم العسكر ثلاثة عساكر : اشناس التركي في الميسرة ، والمعتصم في القلب ، والأفشين في الميمنة ، وامر كل عسكر ان يكون له ميمنة وميسرة كذلك ، وامرهم جميعاً ان يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من وجدوا فيها السَبي[3]. ثم توجه المعتصم الى عمورية مع سائر الجنود . فكان اول من وردها اشناس التركي ، ثم جاء الافشين فحاصروا المدينة وبعد معركة شديدة سقطت عمورية . وثأر المعتصم وانتقم لمن نُكّل بهم من المسلمين والمسلمات وتركها للنهب والتدمير والاحراق اربعة ايام كاملة . فلم يترك منها الا حطاماً وذلك سنة ٢٢٣ هـ. ٧٣٨ م.

اجمعت المصادر على ان الاتراك ابدوا شجاعة منقطعة النظير في القتال

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٥ .
(٢) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٤٧ .
(٣) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٤٩ .

وخاصة في رمي السهام بينما رجعت المصافية والفراغنة والمغاربة وكادوا يتقهقرون امام الروم . ومرة نظر المعتصم وهو واقف على دابّته الى حرب الافشين واصحابه الذين يقاتلون كالأسد حول السور في حصار عمورية ، فلم يكتم حيرته حتى قال[1] :

– ما كان احسن الحرب اليوم !

ويمدح الحسين بن الضحاك الافشين ويذكر وقعته التي كانت بينه وبين ملك الروم ويقول[2] :

اثبتَ المعصوم عزّاً لأبي ··· حسَنٍ اثبت من ركنِ إضمْ
كل مَجدٍ دون ما أثله ··· لبني كاؤس املاكِ العجمْ
انما الأفشين سيفٌ سلّه ··· قدر اللهُ بكف المعتصمْ
لم يَدع بالبذّ من ساكنه ··· غير أمثال كأمثال إرَمْ
ثم اهدى سلماً بابكه ··· رهن حجلين نجيّاً للنّدمْ
وقرى توفيل طعناً صادقاً ··· فضّ جمعَيه جميعاً وهزمْ
قتل الاكثر منهم ونجا ··· من نجا لحماً على ظهر وضمْ

وسنة ٢٢٥هـ خرج المعتصم الى « السن »(*) واستخلف اشناس التركي مقامه . وفي نفس السنة أجلس المعتصم اشناس على كرسي وتوّجه ووشّحه[3] .

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٤٩ ، الطبري ١٠/٣٤٠ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٤٣ .
(*) السنّ : وهي مدينة على شاطىء دجلة ، عامرة وعندها يصبّ الزاب الأصغر الى دجلة وبينها وبين الحديثة عشرة فراسخ، تقويم البلدان ٢٨٩ (ويرجح العلامة الميمني ان يكون صواب هذه اللفظة « آلس ») .
(٣) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٦٣ .

ولم تزل منزلة الاتراك عالية الى ان مات المعتصم في سنة ٢٢٧هـ . وتروي لنا بعض المصادر أنه قال قبيل وفاته برغم انه لم يكن شاعراً ولا أديباً(١) :

قرّب النحام واعجلْ يا غلامْ   واطرحِ السرجَ عليه باللّجامْ
اعلِم الاتراكَ اني خائضٌ   لجّةَ الموتِ فمن شاء أقامْ

الاتراك بعد المعتصم : الواثق
(٢٢٨ — ٢٣٢هـ)

ولما مات المعتصم ولي ابنه الواثق الخلافة سنة ٢٢٧هـ وسار على طريق أبيه في الاعتماد على الاتراك ، واستعملهم لاخماد نار الفتن التي ظهرت في ارجاء المملكة حتى زاد نفوذ الاتراك وعددهم في عهده . وكان اشناس ووصيف وبغا من نخبة قواده ، وخدموه بالصدق والوفاء ونالوا منه الجاه والمنصب . فالواثق نفسه « استخلف سنة ٢٢٨هـ على السلطة اشناس التركي وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً وهو أول خليفة استخلف سلطاناً بعد ان كثر الترك في أيام أبيه »(٢) وأسند الواثق ايضاً لأشناس أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب .

ولقد واجه الواثق ايضاً اخطاراً عديدة في زمنه داخل المملكة خاصة في الجزيرة وتغلب عليها بقواد الاتراك وجنوده . فحوالي سنة ٢٣٠هـ عاث بنو سليم وغيرهم من البدو في بلاد الحجاز وشقوا عصا الطاعة « ونصبوا رجلاً من سليم يقال له « عزيزة الخفافي » وسلّموا عليه بالخلافة »(٣) وامتد أذاهم الى كثير من الناس وقطعوا الطريق واوقعوا بجند والي المدينة المنورة . فأرسل اليهم

(١) راجع فوات الوفيات ج ٢ : ص ٥٣٤ .
(٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٦ .
(٣) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ٤٨٠ .

الواثق جيشاً من الشاكرية والاتراك والمغاربة بقيادة بغا الكبير أبي موسى التركي «وأمره ان يقتل كل من وجده من الاعراب »(١) فشخص قبل اوان الحج ، فاجتمعت قيس من كل ناحية وأكثرهم بنو سليم ورئيسهم « عزيزة » فلقيهم فقاتلوه ، فقتل منهم بغا نحو خمسين رجلا، وأسر مثلهم، وقبض على عدد منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . وكانوا يقولون حين أخذهم بغا :

« يا بُغيةَ الخيرِ وسيفَ المُنتبه   وجانبَ الجورِ البَعيد المشتَبه
مَنْ كان منا جانياً فلست بـه   افعل هَداك اللهُ ما امرتَ به »

ثم سار بغا لاخضاع بني مرة ، فانتهز هؤلاء فرصة غيابه وحاولوا الخروج من حبسهم وثاروا في المدينة وخرجوا على أهلها . فوثب أهل المدينة فقتلوا عامتهم وحمل بغا الباقين في الاغلال .

واشتدت الفتن والاضطرابات يوماً فيوماً بين قبائل الحجاز وشمال الجزيرة وبلغت الفوضى الى منتهى الدرجات . وكان بغا يبذل كل ما في جهده لتأديب القبائل الذين يعيثون في البلاد فساداً ، يدعوهم الى السمع والطاعة لأمير المؤمنين حينا ، ويبذل لهم الأمان حيناً ، يستحلفهم بالأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم . وحوالي سنة ٢٣٢هـ ثار بنو نمير وقطعوا الطريق وأغاروا على الناس فكتب الواثق الى بغا يأمره بحربهم وتخليص الناس من شرهم(٢) .

ومضى بغا نحو اليمامة وتوجه الى « الشُّريف » ثم سار الى « حظيان » ثم الى « مرأة » من عمل اليمامة وأرسل إليهم رسله يعرض عليهم الأمان ويدعوهم الى السمع والطاعة ، وكانوا يقولون لمن يدعوهم الى طاعة أمير المؤمنين :

— قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم . ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٤٨٠ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢١ .

– أي الاتراك – تقاتلنا بهم والله لنُرينـّك العبر، ونحو ذلك من القول [1] .

فلما رأوا قلة عدد بغا ومن حوله من عسكره اجترأوا وحملوا عليه ، الا ان بغا تغلب عليهم على الرغم من قلة جنده . وبعد انهزامهم أرسل بنو نمير وفداً الى بغا يطلبون الأمان. فأعطى لهم ما أرادوا فصاروا اليه فقيّدهم وأشخصهم معه . ثم انهم، على حد قول الطبري، شغبوا في الطريق وحاولوا كسر قيودهم والهرب . فأمر بغا باحضارهم واحداً بعد واحدٍ . فكان اذا حضر الواحد يضربه ما بين الاربعمائة الى الخمسمائة وأقل من ذلك وأكثر [2] .

ثم عاد بغا الى سامرّاء بعد ان أقرّ الأمن في الجزيرة الشمالية وذلك سنة ٢٣٢هـ وفي تلك السنة نفسها توفي الواثق . وكان لموته قصة غريبة رواها الثعالبي حيث يقول :

« لما اشتدت علة الواثق دخل ايتاخ لينظر هل مات أم لا ؛ فلما دنا منه نظر اليه الواثق بمؤخر عينه ففزع وخرج القهقرى فسقط على سيفه حتى اندقّ هيبة منه لنظرة الواثق اليه . فلم تمض الا ساعة حتى مات الواثق . فعزل في بيت ليغسل فجاءت فأرة فأكلت عينه التي نظر بها الى ايتاخ . فكثر تعجب من رأى ذلك من أكل فأرةٍ عيناً فزع من لحظها له ايتاخ حتى تراجع فسقط على سيفه فانكسر » [3] .

وسيبتدىء دورٌ جديد بموت الواثق الا وهو « عهد الاتراك في الدولة العباسية » ، وسنفصل القول فيه في البحث القادم ان شاء الله .

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٢ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٣ .
(٣) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ١٤٥ .

الفصل الثالث

عهد الاتراك في الدولة العباسية

الباب الأول

الاتراك والخلفاء العباسيون الى عهد المهتدي

المتوكل والاتراك (٢٣٢ – ٢٤٧هـ)

كان عهد المتوكل مفتتح دور جديد في الدولة العباسية نتجت عنه تغيرات هامة في حياة المجتمع في دار الخلافة، ونستطيع ان نسمّيه عصر اضطهاد الخليفة للاتراك وغلبتهم السافرة له على زمام الدولة في الجيش والحكومة والادارة .

ولا يخفى علينا ان المتوكل كان من أبناء المعتصم الذي جلب أخواله الاتراك من المناطق الداخلية من ما وراء النهر. وكانت أم المتوكل أيضاً تركية خوارزمية اسمها شجاع [1] من سروات النساء سخاءً وكرماً على حدّ قول الخطيب

(١) راجع جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٧٢ .

البغدادي[١] وقد تربت منذ حداثة سنها في قصر المعتصم واشتركت في تربية ابنها المتوكل واعداده لاعتلاء العرش . إلا ان المتوكل لما تولّى الخلافة لم يلتفت الى الاتراك ولم يحسن معاملتهم بل أخذ يضغط على هؤلاء الاتراك ويظهر عدم ثقته بهم ويدبّر مؤامرة لقتل كبارهم وابعادهم عن المناصب التي تمكنوا فيها منذ عهد المعتصم . يقول المسعودي « وجفا – أي المتوكل – الموالي من الاتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم »[٢] وبهذا فقد الخليفة صداقتهم القديمة ومودتهم الدائمة للبيت العباسي .

فمن الواضح ان المتوكل لم يرقه استئثار الاتراك بالحل والعقد دون الخليفة ، فلذلك عزم على التنكيل بقوّاد الاتراك وازالتهم عن مقامهم ولا سيما اذا بدرت منهم بوادر تنذر بالشرّ . فقد روى الطبري انه « لما مات الواثق اجتمع كبار القوّاد ورجال الدولة وفيهم : أحمد بن أبي دواد ، وايتاخ ، ووصيف ، وعمر بن فرج، وابن الزيّات، وأحمد بن خالد أبو الوزير، فتناظروا فيمن يولونه، فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق – وهو غلام أمرد – فألبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة رُصافية فقال لهم وصيف التركي :

– أما تتقون الله !تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة؟! وانتهى الأمر ببيعة المتوكل »[٣] .

اذن لم يكن للمتوكل همّ بعدما آلت الخلافة اليه غير ازالة الرجال والقواد الذين عزموا على البيعة لابن الواثق . ومن تصرفه في هذا الباب عزل محمد بن عبد الملك الزيات عن ديوان الرسائل وحبسه ثم قتله بعذاب أليم . ويعلل الطبري قتله فيقول[٤] : « ولما توفي الواثق أشار محمد بن عبد الملك الزيات بابن الواثق للخلافة وتكلم في ذلك . فكان سبب هلاك ابن الزيات » .

(١) راجع تاريخ بغداد ج ٧ : ص ١٦٦ .
(٢) راجع التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣٠٣ .
(٣) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٦ .
(٤) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٨ .

إيتاخ التركي وقتله

ولم يكتف المتوكل بقتل ابن الزيات بل أراد أيضاً ان يقتل ايتاخ التركي الذي أراد البيعة لابن الواثق . فخرج المتوكل بعدما اسندت له الخلافة متنزهاً الى ناحية القاطول « فشرب ليلة فعربد على ايتاخ فهمّ المتوكل بقتله . فلما أصبح المتوكل اعتذر الى ايتاخ وقال : أنت أبي وربيتني »[١] .

وبهذه المناسبة نقول ان ايتاخ كان غلاماً خزرياً لسلام الابرش طبّاخاً فاشتراه المعتصم في سنة ١٩٩هـ ، وكان لايتاخ شجاعة وبأس ، فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم اليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة . وولّاه المعتصم معونة سامرّا ؛ كل من أراد المعتصم والواثق قتله فعند ايتاخ كان قتله وبيده حبسه ، منهم محمد بن عبد الملك الزيّات وأولاد المأمون من سندس وصالح بن عجيف وغيرهم .

فلما ولي المتوكل الخلافة كان ايتاخ يشرف على جيش المغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة[٢] وكان المتوكل يخاف من نفوذ ايتاخ وينتهز فرصة لقتله فأراد ان يقتله في القاطول كما مرّ فلم يمكنه الحصول على مراده ولم يجد بدّاً من الاعتذار ربما هداه تفكيره الى تجريد ايتاخ من مكانه ومنصبه حتى يسهل قتله . والطريق الى ذلك ارسال ايتاخ للحج الى الأماكن المقدسة حتى يبعد عن جنده ومقامه ، ولذلك دسّ المتوكل اليه رجلاً من جلسائه يشير على ايتاخ بالاستئذان للحج[٣] فأذعن له ايتاخ بدون ان يشعر بكيد المتوكل له .

نعم ، أراد المتوكل كيده فأذن له بالحج وصيّره أمير كل بلدة يدخلها، وخلع

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٨٢ .
(٢) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٢٨٢ .
(٣) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣٣ .

عليه وركب جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان بشر كثير ، وقد صير المتوكل الحجابة الى وصيف عقب مفارقته للحج. أما بقية القصة فننقلها من الكامل كما يلي :

فلما عاد ايتاخ التركي من مكة كتب المتوكل الى اسحق بن ابراهيم يأمره بحبسه . وانفذ المتوكل كسوة وهدايا الى طريق ايتاخ ، فلما قرب ايتاخ من بغداد خرج اسحق الى لقائه وكان ايتاخ أراد المسير على الانبار الى سامراء ؛ فكتب اليه اسحق : ان أمير المؤمنين قد أمر ان تدخل بغداد وان يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وان تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم وتأمر لهم بالجوائز . فجاء الى بغداد فلقيه اسحق بن ابراهيم . فلما رآه اسحق أراد النزول له فحلف عليه ايتاخ ان لا يفعل ، وكان في ثلثمائة من غلمانه وأصحابه . فلما صار بباب دار خزيمة وقف اسحق وقال له :

— أصلح الله الأمير يدخل ! فدخل ايتاخ ووقف اسحق على الباب فمنع أصحابه من الدخول عليه ووكل بالابواب وأقام عليها الحرس ، وأخذوا معه ولديه منصوراً ومظفراً وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد ، فحبسوا ببغداد ، وقيد ايتاخ وجعل في عنقه ثمانون رطلاً — وعذّبوه — وذلك انهم كانوا أطعموه ومنعوه الماء الى ان مات من العطش سنة ٢٣٥هـ[١] .

وكان من نتائج هذه السياسة التي سار عليها المتوكل فتح الطريق الى الاضطرابات والقلاقل التي انذرت بتدهور الدولة العباسية في دار السلام. فلم يرد المتوكل قتل ايتاخ فقط بل أراد به إلغاء شأن الاتراك واسقاط سلطتهم ونفوذهم في أمور الدولة . وقتل ايتاخ كان بداية لخطّة مدبّرة سار عليها المتوكل من غير ان يحسب حساباً لعواقبه الوخيمة . ولكن هذه المؤامرات أثرت تأثيراً

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٥ ص ٣٨٣ .

سيئاً في نفوس الاتراك فاعتزل بغا البطل الكبير في بيته وأخذ يعيش بالوهم وآلت معظم الأمور الى وصيف التركي الذي حل محلّ ايتاخ وزاد نفوذه حتى صار من أكبر قواد الاتراك .

قتل المتوكل بالله الخليفة العباسي

ولم يلبث الخليفة ان خاف من نفوذ وصيف ومنزلته بين الاتراك حتى أراد التنكيل به أولاً ثم قتله كما فعل قبل ذلك بايتاخ التركي «فأمر بانشاء الكتب بقبض ضياع وصيف باصبهان والجبل واقطاعها الفتح بن خاقان فكتبت وصارت الى الخاتم فبلغ ذلك وصيفاً »[١] . ولم يكتف المتوكل بقبض أموال وصيف بل تقدم خطوة أخرى وهي « ان المتوكل والفتح بن خاقان عزما على ان يفتكا بالمنتصر — ابن المتوكل — ويقتلا وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ووجوههم »[٢] .

ومن الجدير بالذكر ان المتوكل كان يسيء معاملة ابنه المنتصر ويميل هو والفتح ابن خاقان الى المعتز . وكانا يحقران المنتصر ويعذبانه بأنواع العذاب . وكثر عبث المتوكل على ما جاء في الكامل في آخر أيامه بابنه المنتصر حتى ان المتوكل قال مرة للفتح بن خاقان :

— برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله (صلعم) ان لم تلطمه — أي المنتصر — فقام اليه فلطمه مرتين . ثم أمر يده على قفاه ثم قال لمن حضره :

— اشهدوا علي جميعاً اني قد خلعت المستعجل — أي المنتصر — ثم التفت اليه فقال: سميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك المنتظر ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر :

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٥ : ص ٣٠١ .
(٢) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٥ : ص ٣٠٢ .

— لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي . فقال المتوكل :

— اسقوه ، ثم أمر بالعشاء فاحضروا ذلك جوف الليل[1] .

فالغرض ان المتوكل لم يتورّع عن تدبير المؤامرات والفتك بابنه فضلاً عن القواد ورجال الدولة في بلاطه وبذلك هيّأ هو نفسه أسباب سقوطه وفتك أعوانه به. وسرعان ما أخبر المنتصر بمؤامرة أبيه فحرض قوّاد الاتراك ان يدبروا مؤامرة مضادة قبل ان يقتلهم المتوكل جميعاً .

فدبر وصيف مؤامرة مع أصدقائه من الاتراك وفيهم بغا الصغير — المعروف بالشرابي — وباغر التركي وغيرهما فقتلوا المتوكل والفتح بن خاقان معه . وتروي لنا المصادر رواية في كيفية قتل المتوكل وهي : دعا المتوكل في ليلته التي قتل فيها بالمائدة وكان بغا الصغير قائماً عند الستر. وذلك اليوم كانت نوبة بغا الكبير. فدخل بغـا الصغير الى المجلس فأمر الندماء بالانصراف الى حُجَرهم ، فقال له الفتح :

— ليس هذا وقت انصرافهم ، وأمير المؤمنين لم يرتفع . فقال بغا :

— ان أمير المؤمنين أمرني انه اذا جاوز السبعة ان لا أترك أحداً ، وقد شرب أربعة عشر رطلاً . وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة فأخرجهم ولم يبق الا الفتح وعثعث وأربعة من خدامه الخواص وأبو أحمد بن المتوكل . وكان بغا الشرابي أغلق الأبواب كلها الا باب الشط واذ أقبل باغر التركي ومعه عشرة أنفار من الاتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم نحو المتوكل حتى صعد باغر التركي وآخر معه من الاتراك على السرير . وقد ضربه باغر بالسيف — الذي كان المتوكل دفعه اليه — على جانبه الايمن فقدّه الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحّى ولا يزول ثم طرح

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٣٠٢ .

بنفسه على المتوكل فماتا جميعاً سنة ٢٤٧هـ[1] . ويقول البحتري في غدر المنتصر بأبيه وفتكه به في قصيدته :

أكان وليّ العهدِ اضمرَ غَدرَةً   فمن عَجَبٍ ان وُلّي العهدَ غادرُهْ

فلا مَلّكَ الباقي تُراثَ الذي مضى   ولا حَمَلت ذاك الدعاء منابره

وهذه نتيجة طبيعية لسياسة المتوكل التي سار عليها ، فلم يعتمد على الاتراك وجفاهم وكان يعاملهم بالشدّة ويتحين الفرصة للتنكيل بهم . وقتـل مكراً وخداعاً ايتاخ الذي سبقت خدمته من أوائل عهد المعتصم الى عهده ، وتنكر لوصيفٍ وصادر أمواله وأخيراً أراد ان يفتك بابنه ويقتل بغا ووصيفا وغيرهم. ويعلل أحمد امين قتل المتوكل فيقول[2] : « ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعـده . ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الاتراك . وكان في قتـله حيـاة الاتراك وسلطانهم وانذار عام للبيت المالك ان من اراد ان يلي الخلافة فليذعن اذعاناً تاماً للاتراك . وهكذا كانت هذه الحادثة مصرعَ الخلافة ومجد الاتراك . فكان الخليفة بعده خاتماً في اصبعهم او أقل من ذلك » .

الاتراك والمنتصر بالله (٢٤٧ ـــ ٢٤٨هـ)

تولى الخلافة بعد المتوكل ابنه المنتصر بالله وبويع له في الليلة التي قتل فيها أبوه واحضر أخويه أبا عبد الله المعتز بالله وابراهيم المؤيد فأخـذ عليهما البيعة وعلى جميع من حضر من الناس . وركب الى دار العامة وأعطى الجنـد رزق عشرة

(١) راجع مروج الذهب ج ٢ : ص ٣٠٨ ؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ : ص ٣٠٢؛ الطبري ج ١١ : ص ٦٥ .

(٢) راجع ظهر الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ١١ .

أشهر(١) وأعلن ان الفتح بن خاقان قتل ابا جعفر المتوكل فقتله به(٢) ! وبايع الناس له بالخلافة فأمر بدفن المتوكل والفتح بن خاقان وبعث نسخ البيعة الى الامصار .

وقد أثبت الاتراك قوتهم ونفوذهم حينما فرضوا على المنتصر ارادتهم بخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بسبب انهم كانوا يخشون بأسهما حينما تؤول الخلافة الى أحدهما . والحقيقة ان أحمد بن الخصيب – وزير المنتصر – هو الذي أوحى بهذه الفكرة الى الاتراك حيث انه قال لوصيف وبغا(٣) :

– انا لا نأمن الحدثان أن يموت امير المؤمنين فيلي الأمر المعتز فلا يبقي منا باقية ويبيد خضراءنا والرأي ان نعمل في خلع هذين الغلامين قبل ان يظفرا بنا .
فصوّب الاتراك رأيه وألحّوا على المنتصر وقالوا :

– يا أمير المؤمنين تخلعهما من الخلافة وتبايع لابنك عبد الوهاب . فدعاهما المنتصر والاتراك واقفون عنده وقال(٤) :

– أترياني خلعتكما طمعاً في ان أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له ؟ والله ما طمعت في ذلك قط واذ لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي احب إليّ من ان يليها بنو عمي . ولكن هؤلاء – لعله يعني الاتراك – ألحّوا عليّ في خلعكما فخفت ان لم أفعل ان يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما . فما ترياني صانعاً أقتله . فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم . فكانت اجابتهم الى ما سألوا أسهل عليّ . وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه انه خلع نفسه من البيعة وذلك سنة ٢٤٨هـ .

(١) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٣ .
(٢) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٧٠ .
(٣) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٧٥ .
(٤) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٧٧ .

وفعلاً تحققت مخاوف الاتراك ، وذلك ان المنتصر مات بعد مدة قليلة ولم تتجاوز مدة خلافته ستة أشهر وهو ابن خمس وعشرين سنة عام ٢٤٨هـ . وذكر انه لما حضرته الوفاة قال(١) :

فما فَرِحَت نفسي بدُنيا أخذتها ... ولكن الى الربّ الكريم أصيرُ

الاتراك والمستعين بالله (٢٤٨ – ٢٥٢هـ)

ولما توفي المنتصر استوحش الاتراك من أبناء المتوكل وخافوا من سوء عاقبتهم فاجتمع كبارهم وفيهم بغا الصغير، وبغا الكبير، واوتامش ، فاستحلفوا قواد الاتراك والمغاربة والأشروسنية على ان يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش التركي(٢) . والحقيقة : كان العباسيون لا يأمنون جانب الاتراك كما كان الاتراك يعملون على تولية الخلافة من يطمئنون اليه من أمراء البيت العباسي . ولذلك لم يرضوا بأن يولوا أحداً من أولاد المتوكل . وأخيراً اجتمع رأيهم على أحمد بن المعتصم . واطمأن قوّاد الاتراك اليه قائلين(٣) :

– هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف لنا ذلك ، فأشار عليهم أحمد بن الخصيب – الوزير – ان يبايعوه « وأنكر بعض القوّاد البيعة وجرى بين الاتراك والأبناء منازعات حتى تحاربوا ثلاثة أيام ثم ضعف أمر الأبناء »(٤) فبايع الناس أحمد بن المعتصم ولقبوه المستعين بالله .

ولما تولى المستعين الخلافة عقد لأوتامش على مصر والمغرب ، واتخذه وزيراً له

(١) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٨١ .
(٢) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٨٢ .
(٣) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٨٣ .
(٤) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٤ .

« وغلب على أمره اوتامش ، وشجاع بن القـاسم – كاتب اوتامش – وأحمد بن الخصيب حتى لم يبق لاحد معهم أمر»[١] ولم يلتفت الى وصيف وبغا من أهم القواد وأكبرهم برغم انهم أرادوا خلافة المستعين وهيئوا له العرش .

فلم يرعَ اوتامش بعدما علا شأنـه وقوي امره عند الخليفة حقّ هذين الرئيسين عظيمي الجاه والمنصب بل تصدّى للحط من شأنهما « فأطلق الخليفـة يد أوتامش ، وشاهك الخادم في بيوت الأموال واباحهما فعل ما أراد فعله فيها وفعل ذلك أيضاً بأمّه نفسها فلم يمنعها من شيء تريده . فكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق انما يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة الأنفس »[٢] .

فلم يلبث ان تذمرت الاتراك والفراغنة وقُتل اوتامش بأيدي الجنود الذين قادهم وصيف وبغا وأمدهم أهل بغداد . ويقول اليعقوبي[٣] : وبثّ الجند بسرّ من رأى مرة أخرى وتحاربوا وتحاملوا على اوتامش وقالوا :

– أخذ أرزاقنا وأزال مراتبنا .

وخرجت عصبة من الاتراك والموالي الى الكرخ فخرج اليهـم اوتامش ليسكنهم فقتلوه ، وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم في سنة ٢٤٩هـ . وأخذ وصيف وبغا الصغير وباغر التركي زمام الدولة بأيديهم وغلبوا على الخليفة في معظم أمره . وهذا الشعر يدلنا على مدى سطوة الاتراك على الخليفة وموقف المستعين من وصيف وبغا ، يقول الشاعر[٤] :

خليفة في قَفَصٍ بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببّغا

(١) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٦ .
(٢) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٨٦ .
(٣) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٦ .
(٤) راجع مروج الذهب للمسعودي جـ ٢ : ص ٣١٩ .

على كل حال ما زال القواد من الاتراك عماد الدولة وعدة الخليفة في اخماد الفتن والقلاقل الداخلية . فان عامل دمشق نوشري بن طاجيل التركي كان له فضل في قمع ثورات حمص والشام[١] كما ان موسى بن بغا الكبير استنقذ حمص من فتنة بني كلب ، كذلك لعب كلكاتكين التركي(*) دوراً هاماً في هزيمة يحيى بن عمر أبي الحصين الذي استفحل أمره حتى قتل في سنة ٢٤٩هـ[٢] .

مع ذلك لم تمض مدة طويلة حتى وقع الخلاف بين هؤلاء الثلاثة من القوّاد : وصيف ، وبغا ، وباغر التركي – بسبب الجو السياسي الخانق الذي أفقـد القواد ثقة بعضهم بالبعض الآخر . ودخل المزورون واوقعوا الخلاف فيما بينهم فانقسموا الى أحزاب متقاتلة .

ومن الجدير بالذكر ان باغر كان « شجاعاً بطـلا معروف القدر في الاتراك يتوقاه بغا وغيره ويخافون شره»[٣] وأخذ يفكر في تدبير مؤامرة لقتل المستعين وبغا ، ووصيف التركي معه ويقول الطبري[٤] : « فجمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل او بعضها مع غيرهم . فلما جمعهم ناظروا ووكّدوا البيعة عليهم كما وكدوها في قتل المتوكل فقالوا : نحن على بيعتنا . فقال باغر :

– الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفاً ونجيء بعليّ بن المعتصم او بابن الواثق فنجعله خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين –يعني وصيفا وبغا– اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن في غير شي ؛ فاجابوه الى ذلك » .

واتصل خبر هذه المؤامرة الخطيرة التي دبرها باغر التركي بمسامع الخليفة فأنهاه الى بغا ووصيف . فتعاقد هذان القائدان – المسميان بالأميرين – على

(١) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٦ .
(*) ولعله كلبائكين ، الطبري ٩٧/١١ .
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ٢ : ص ٤٩٦ .
(٣) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٩٤ .
(٤) راجع الطبري جـ ١١ : ص ٩٥ .

أخذ باغر واثنين من الاتراك وتنحيته من الدار وحبسه حتى يتم التحقيق في المؤامرة .

وللأسف هاج عساكر باغر ولا سيما بعد ان وصلت اليهم الأخبار ان الخليفة حبسه . فحاصروا قصر الخليفة ووثبوا على اصطبل السلطان فأخذوا ما كان فيه من الدّواب فانتهبوها وركبوها وحاصروا الجوسق بالسلاح. ولكن قـُتِلَ باغر بأمر من وصيف وبغا في سنة ٢٥١هـ وذلك ما كان يطلبه المستعين[١]. وقال أحمد بن الحارث اليامي في قتل باغر والفتنة التي أعقبته[٢] :

لعمري لئن قـَتـَلوا باغـراً	لقد هاج باغرُ حرباً طحونا
وفرَّ الخليفةُ والقائدان	بالليـل يلتمسان السَّفينا
ولكن دليلٌ سعي سعيةً	فأخزى الإلهُ بها العالمينا(*)
فليت السفينـة لم تأتنـا	وغرّقها الله والراكبينا
واقبلت التركُ والمغربون	وجاء الفراغنةُ الدّارعونا
تسيرُ كراديسهم في السلاح	يرَوحونَ خيلاً ورجلا ثـُبينا

فلم ينته الأمر بقتل باغر بل ضجت عساكره واضطرّوا الخليفة ان يلجـأ بطريق النهر مع قائديه وصيف وبغا الى بغداد . ومنع الناس عساكر باغر من الانحدار اليها وأخذوا ملاحاً قد اكرى سفينته للخليفة فضربوه مائتي سوط وصلبوه على دقل سفينته[٣] ويقول الشاعر في هرب المستعين الى بغداد[٤] :

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٩٥ .
(٢) راجع معجم الأدباء ج : ص ٦٢ ؛ والطبري ج ١١ : ص ٩٦ .
(*) دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا الشرابي احد المزورين الذين اوقعوا الخلاف بين قواد الاتراك . الطبري في حوادث سنة ٢٥١ ج ١١/٩٤ .
(٣) راجع الطبري ، ج ١١ : ص ٩٧ .
(٤) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ١ : ص ٤٠٩ .

ثم تولى المستعين بعده	فحاز بيت ماله وجنده
ثم اتى بغداد في محرم	احدى وخمسين برأي مبرم

فلما رأى الاتراك ان الخليفة هرب الى بغداد خلعوه وبايعوا ابن عمه المعتز ابن المتوكل بعدما أخرجوه من محبسه . ومن ثم قامت الحرب بينهما . وساق المعتز جيشاً كثيفاً من الاتراك يناهز عددهم خمسين[٢] ألفاً على بغداد بقيادة أخيه أبي أحمد الموفق . وحاصروا بغداد ودامت الحرب عدة أشهر . وأخيراً انهزم المستعين واضطره قائداه – وصيف وبغا – الى خلع نفسه وتقديم الخلافة الى المعتز وذلك سنة ٢٥٢هـ[١] ، ولعل هذا الشعر يوافق حال المستعين أيضاً :

يا احزَمَ الناس رأياً في تخلفه	عن القتالِ خَلطت الصَفوَ بالكدَرِ
لما رأيتَ سُيوفَ الترك مُصلتةً	علمتَ ما في سيوف الترك من قدرِ
فصرتَ مُنحجزاً ذُلاً ومَنقَصَةً	والنُجحُ يَذهَبُ بين العجزِ والضَّجر

ويقول أحمد أمين في انهزام المستعين « وكان من حظ الترك أن غلبوا أخيراً ودخلوا بغداد منتصرين فكانت هذه خطوة أخرى في سبيل سيادة الاتراك »[٣] وانصرف أبو أحمد الموفق من بغداد الى سامرّاء فخلع عليه المعتز وتوج بوشاحين وخلع على من كان معه من قوّاده . وقد خرج الخليفة المعزول الى واسط(*) ، واختار الاتراك أحمد بن طولون التركي – قبل ولايته بمصر – ليصحبه فأحسن

(١) راجع تاريخ أبي الفداء ج ٢ : ص ٤٣ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ١٣٧ .
(٣) راجع ظهر الاسلام ، أحمد امين ج ١ : ص ٢١ .
(*) واسط : مدينة بين البصرة والكوفة . شرع الحجاج في عمارتها في سنة ٨٤هـ وفرغ منها في سنة ٨٦هـ . فكان عمارتها في عامين في العام الذي مات فيه عبد الملك بن مروان ، معجم البلدان ٣٤٨/١٩ .

اليه وأطلق له الحريّة في التنقل والصيد[1] . وقال محمد بن مروان حين خلع المستعين وصار الى واسط[2] :

ان الخلافة كانت لا تُلائِمه — كانت كذاتِ حليل زوجت متَعا
ما كان أقبحَ عند الناسِ بيعتَه — وكان أحسنَ قولُ الناسِ قد خلعا

الاتراك والمعتز بالله (٢٥٢ — ٢٥٥هـ)

كان المعتز يضمر في نفسه استخلاص الدولة من نفوذ الاتراك « ولكن الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاؤوا أبقوه وان شاؤوا خلعوه[3] » وفضلاً عن ذلك لم يكن عنده جيش يحميه ولا قوة تعينه في التنكيل بالأتراك وابعادهم عن الادارة . وهذه الرواية تدلنا على مدى نفوذ الاتراك وسطوتهم في الدولة العباسية . يقول ابن طَباطَبا[4] « لما جلس المعتز على سرير الخلافة فقعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم :

— انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة . وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : انا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ولم يهلك ؟ قال :

— مهما اراد الاتراك . فلم يبق في المجلس الا من ضحك » .

وكانت العلاقات بين هذا الخليفة ورؤساء الاتراك اسوأ مما كانت عليه مع الخلفاء

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٣٢٩ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ١٣٩ .
(٣) راجع الفخري ص ١٩٧ .
(٤) راجع الفخري ص ١٩٧ .

قبله . واختل الأمن في بغداد وظهرت القلاقل والفتن في البلدان الاسلامية بسبب ضعف سلطة الخلافة ، الا ان الاتراك ظلوا يخدمون الدولة ويؤيدون سلطة الخلافة في أرجاء المملكة مهما كانت الظروف السياسية خانقة .

ووجه المعتز محمدبن المولد التركي الى فلسطين لما انتهى اليه خبر عيسى بن شيخ الذي يثير الفتنة[1] . ولما ظهر الروم في ملطية وشنوا الغارات ونهبوا ما فيها ، أرسل الخليفة مزاحم بن خاقان اليها[2] . وأقام موسى بن بغا التركي بهمذان لاخماد نار الفتنة . ووجهه المعتز الى ناحية الكوكبي بن الارقط ، فكانت بينهما وقائع فانهزم الكوكبي . وزحف موسى بن بغا الى عمران بن مهران — المتغلب بأصبهان — فحاربه ثم انصرف واستخلف على البلد ورجع الى همذان[3] .

ومع ذلك فقد الخليفة ثقة رؤساء الاتراك بمؤامرة دبرها مراراً لقتلهم فلم ينتصر عليهم . فكان لا يتلذذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في الليل ولا في النهار ، خوفاً من هؤلاء الاتراك وخصوصاً من قائده بغا الكبير أبي موسى التركي . وكان يقول : « لا ازال على هذه الحالة حتى اعلم لبغا رأسي او رأسه لي » . وقد بلغ خوفه من بغا الى حدّ ان قال : « إني اخاف ان ينزل علي بغا من السماء او يخرج علي من الارض »[4] .وجعل يسرف في ارزاق الجنود حتى يزول ما علق في اذهان الاتراك وقوادهم من ان الخليفة قد عزم على قتل رؤوس الاتراك. وبذلك نفدت الاموال التي ترد الى السلطان وقد تأخرت اموال البلدان ايضاً بسبب كثرة الاضطرابات والقلق في دار الخلافة .

فوثب الاتراك والفراغنة والأشروسنية بكرخ سر من رأى ، وطلبوا ارزاقهم المتراكمة لأربعة اشهر ، فخرج اليهم وصيف ليسكنهم فرموه فقتلوه

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٠ .
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠١ .
(٣) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠١ .
(٤) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٣٣٦ .

وحزّوا رأسه في سنة ٢٥٣هـ[١] . وقام محله بغا الصغير وتفرد بالتدبير حيث ان المعتز تنكر له وآثر صالحاً وبابكيال من الاتراك . وصيّر الى بابكيال اعمال المعاون بمصر . فوجه اليها بابكيال من قِبَله احمد بن طولون التركي[٢] الذي اسس الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ) .

ولم يلبث بغا حتى قتل بأيدي رؤساء الاتراك الذين اثارهم بابكيال التركي ، يقول اليعقوبي : « وبلغ ان بغا قد عزم على الوثوب به فدبّر على قتله . فلما بلغه ذلك هرب فصار الى ناحية الموصل وهو يقدّر ان اكثر الاتراك وغيرهم يستلحقونه ، فلم يلحقه احد فانصرف راجعاً في زورق فأخذه اصحاب المالح . وكوتب المعتز بخبره فأمر بضرب عنقه . فضُربت عنقه ونهبت داره ونفي ابنه فارس الى المغرب وذلك سنة ٢٥٤هـ »[٣] .

وقد امتاز صالح التركي من ابناء وصيف بين الاتراك «واجتمع اليه اصحاب ابيه فصار في منزلته. وضعف امر المعتز حتى لم يكن له امر ولا نهي»[٤].فطلب الاتراك بقيادة صالح بن وصيف ارزاقهم المتراكمة من الكتاب الذين يراوغون الجنود منذ شهور . يقول الطبري[٥] : ان الكتّاب لما فعل بهم الاتراك ما فعلوا ولم يقروا لهم بشيء صاروا الى المعتز يطلبون ارزاقهم ، وقالوا له :

– اعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف . فارسل المعتز الى أمّه يسألها ان تعطيه مالاً ليعطيهم فأرسلت اليه : « ما عندي شيء * » .

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٢ .
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٣ .
(٣) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٣ .
(٤) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٣ .
(٥) راجع الطبري ج ١١ : ص ١٦١ .
(*) – ومن الجدير بالذكر: ان ام المعتز قبيحة « كانت من أصحاب اليسار وذات ثروة من المال وفي استطاعتها ان تدفع للجنود أرزاقهم وهي لا تتجاوز خمسين ألف دينار ، وبهذا تنقذ ابنها المعتز وتخمد نار الفتنة وتسكن الجنود الذين ينتظرون أرزاقهم منذ شهور ويرجع الأمن والصلح في دار الخلافة. لكنها رفضت طلب ابنها فأرسلت إليه « ما عندي شيء »=

فلما رأى الاتراك ان المعتز وأمه قد امتنعا من اعطائهم شيئاً صارت كلمة الاتراك والفراغنة والمغاربة واحدة ، فاجتمعوا على خلع المعتز وصاروا اليه ، فتقدم صالح بن وصيف وبابكيال ومحمد بن بغا فدخلوا في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز ، ثم بعثوا اليه :

– اخرج الينا . فاعتذر وقال : اني اخذت الدواء بالأمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ولا اقدر على الكلام من الضعف[١] . وهاجت الجنود وانتهى الامر بخلع المعتز نفسه وكفه عن الخلافه سنة ٢٥٥ [٢] .

الاتراك والمهتدي بالله (٢٥٥ ـــ ٢٥٦ هـ)

ولما مات المعتز تولى الخلافة اخوه المهتدي بالله بن الواثق ، واجتمع القواد على انه ليس في اولاد الخلفاء افضل ولا اعقل من محمد بن الواثق . بايعوه

= فظهر بعد ذلك ما كان عندها من الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تقدر له قيمة . فقد جاء في كتاب الذخائر والتحف « فوجد لها في خزانةٍ واحدة ألف ألف دينار وثلاثة أسفاط في واحد منها مكوكُ زمردٍ لم يُرَ قط مثله نفاسة وفي الآخر نصف مكوك حب لؤلؤ لم ير مثله في حسنه واعتداله وفي الآخر مقدار كيلجة ياقوت أحمر ما رئي مثله قط ، وقوّم ذلك فكانت قيمته ألفي ألف دينار . هذا غير ما وُجد لها من الودائع في السنة المقدم ذكرها . وكانت غلّة ضياعها في كل سنة عشرة آلاف ألف دينار . ووجد لها دواويج كانت تستعملها . فقوّم الدواج منها بأكثر من ألف دينار . كانت تؤخذ له جُلود السّمور فيحلق ما عليها من الوبر ويرمى بالجلود. فاذا اجتمع ما يكفي الدواج نثر فيه فتيت المسك والعنبر وجعل بين البطانة والظهارة مكان القطن وضرب وكانت وجوهها من ملحم خراسان أخف شيء وادفأه » كتاب الذخائر والتحف ٢٣٦ ؛ هذه هي قبيحة عرضت ابنها للقتل ورفضت ان تدفع للثائرين خمسين ألف دينار فقط . مروج الذهب ٢/٤٢٦ .

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ١٦٢ .
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٤ .

فاجتمعت كلمتهم عليه وظهرت من المهتدي سيرة حسنة ومذاهب محمودة وجلس للمظالم بنفسه وباشر الأمور ووقّع في القصص بخطه ، وابطل الملاهي وقدم اهل العلم [1] .

وتتابعت الثورات في زمن المهتدي ، فكتب الى جميع المتغلبين بالأمان وكتب الى عيسى بن شيخ الربيعي بمثل ذلك وامره بحمل ما قِبَله من اموال مصر وغيرها ، فامتنع منتهزاً فرصة اضطراب الاحوال في عاصمة الخلافة فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام وطمع في مصر .

فاختار المهتدي احمد بن طولون التركي لقتاله على ان يتقلد بلاد الشام بعد اخضاعه . فكتب الى ابن طولون بالمسير الى عيسى بن شيخ الربيعي ، فسار اليه ، فلما صار بالعريش ورد عليه الكتاب بالانصراف ويأمره بالعودة الى مصر. فانصرف ولم يلقَ حرباً . وقدم أماجور التركي عامل دمشق من العراق فانتصر عليه وتولّى أعمال الشام كلها [2] .

واستمرت سطوة الاتراك في عهد المهتدي رغم قتل الخلفاء بعض قوّاد الاتراك مثل ايتاخ وباغر ، وامتاز من بينهم موسى بن بغا الكبير ، وبابكيال ، وصالح بن وصيف التركي وغيرهم . واخذ هؤلاء القواد زمام الدولة بأيديهم وتغلبوا على الخليفة . وهذه الرواية التي اوردها الطبري تدلنا على مدى نفوذ الاتراك وسلطتهم على الخليفة [3] . رفع المهتدي يديه الى السماء ثم قال بعد ان حمد الله واثنى عليه : « اللهم إني أبرأ اليك من فعل موسى بن بغا واخلاله بالثغر واباحته العدو ، فاني قد أعذرت فيما بيني وبينه » .

وأخذ المهتدي يتحين الفرص المواتية لقتل قواد الاتراك بسبب الضعف

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٥ .
(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٦ .
(٣) راجع الطبري ج ١١ : ص ١٧٣ .

والخلاف الذي وقع بينهم حتى قتل صالح بن وصيف التركي ، وقد عزم ان يقضي على موسى بن بغا الكبير بالمكايد والخدع واستمد الحيلة والدهاء وحاول ان يستميل اليه بابكيال التركي فطلب منه ان يقوم بقتل موسى بن بغا على ان يؤمّره على الجيش من بعده . الا ان بابكيال لم يثق بالخليفة ووعوده وسار الى موسى بن بغا وعرض عليه الكتاب فقال :

— « إني لست أفرح بهذا ، وانما هذا تدبير علينا جميعاً واذا فعل بك اليوم شيء فعل بي غداً مثله [1] » . وغضب المهتدي على بابكيال التركي وحبسه .

فلما انتشر الخبر وعلم الاتراك بذلك ثاروا عليه ، وسرعان ما اجتمع الاتراك حول قصره ، ويقول الطبري [2] : فلما رأى المهتدي ذلك وعنده صالح ابن علي بن يعقوب مشاوره قال : ما ترى ؟ فقال :

— يا أمير المؤمنين انه لم يبلغ احد من آبائك ما بلغته من الشجاعة والاقدام ، وقد كان ابو مسلم اعظم شأناً عند اهل خراسان من هذا التركيّ عند اصحابه . فما كان الا ان طرح رأسه اليهم حتى سكنوا . وقد كان فيهم من يعبده ويتخذه ربّاً . فلو فعلت مثل ذلك سكنوا فأنت أشد من المنصور إقداماً وأشجع قلباً.

وانت ترى من هذا ان المهتدي اختار اشهار سيفه بدلاً من الملاينة وتسكين الجنود . وأغرب من هذا كله ان المهتدي حاول ضرب الاتراك بعضهم ببعض حتى يخلص منهم جميعاً . فضرب بسيفه أعناق جماعة من الاتراك . فضرب مثلاً عنق بابكيال التركي رئيس الأتراك وحزّ رأسه ورمي على الأتراك الذين ينتظرون حول قصره .

كان من الطبيعي ان زاد غليان الأتراك حتى خرج المهتدي اليهم في السلاح معلقاً في عنقه المصحف واستنفر العامة وأباحهم دماءهم واموالهم ونهب منازلهم فتكاثر الأتراك عليه وافترقت عنه العامة حتى بقي وحده وأصابته عدّة جراح

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٠٣ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٠٣ .

ومرّ منصرفاً حتى دخل دار رجل من القواد يقال له احمد بن جميل ولحقوه فأخذوه فحملوه على دابّة وجراحاته تنطف دماً ، ودعوه ان يخلع نفسه فأبى ومات بعد يومين وذلك سنة ٢٦٥ هـ [1] .

***

وقد ضعفت سلطة الاتراك وسطوتهم في الدولة العباسية بمرور الأيام بعد المهتدي . والسبب الرئيسي لذلك يرجع الى قتل رؤساء الأتراك الذين ذهبوا ضحية الفتن التي سببت اضمحلال الدولة العباسية . والسبب الثاني فقدان القادة وقحط الرجال بين الاتراك الذين يقومون مقام أسلافهم . ولذلك لا نرى بعد عهد المهتدي قائداً شجاعاً بطلاً كالأفشين ، وأشناس ، وايتاخ ، وباغر ، ووصيف ، وبغا ، والفتح بن خاقان ، وابراهيم بن العباس الصُولي ، وغيرهم من الاتراك الذين نبغوا في الدولة العباسية بعد المعتصم في الجيش والادارة والحكومة ، وما زال أمر الاتراك يضعف شيئاً فشيئاً الى ان ظهر الاتراك السلاجقة في طور التاريخ ودخلوا بغداد حتى انقذوا الخليفة من سلطة البويهيين الشيعيين .

وهنا نقف وقفة في سرد تاريخ الاتراك لنتّجه الى دراسة خاصة لما ورد بشأن الاتراك في مؤلفات الجاحظ المتوفى في عهد المهتدي سنة ٢٥٥ هـ.

ولكن قبل ان نتطرق الى الجاحظ وحياته يحسن بنا ان نبين امهات الخلفاء من جواري الاتراك اللائي نزلن قصور الخلفاء واشتركن في سرّاء حياتهم وضرّائها ، ولعبن دوراً هاماً في الدولة العباسية بجانب رجال الاتراك تتميماً لهذا الباب .

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢ : ص ٥٠٦ .

الباب الثاني

امهات الخلفاء من جواري الاتراك

الجواري التركيات في قصور الخلفاء

ان الممالك الاسلامية بعدما اتسعت حدودها بالفتوح على يد العرب في الشرق والغرب ، ضمت عناصر غير عربية من الأمم المغلوبة التي فقدت سطوتها وزالت دولتها من الفرس والاتراك .

ولما آلت الخلافة الى العباسيين كثر عدد هؤلاء الموالي والغلمان والجواري والحظايا في قصور الخلفاء وبيوت الأمراء في المراكز الاسلامية . وقد خالطت أنساب العرب الجواري اللائي جُلبن من البلاد المفتوحة فتسرّاهن الخلفاء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة. ولذلك لا نبالغ ان قلنا ان امهات الخلفاء العباسيين اكثرهن أماء الا السفاح أمه ريطة بنت الحارث بن كعب ، والمهدي أمه أم موسى بنت منصور بن عبدالله ، والأمين أمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر [1].

اما سائر الخلفاء العباسيين فهم من أولاد الاماء ولاسيما الجواري الاتراك .

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي بالاختصار . وأيضاً لطائف المعارف ١٢٩ .

ونحن نذكر هنا الخلفاء العباسيين الذين كانوا من بطون الاماء ومنهم :

المنصور : اول من اتخذ الاتراك من الخلفاء أمه أمة تسمى « سلامة » ، وموسى وهارون : أمهما أمة تسمى « الخيزران » ، والمأمون : أمه أمة تسمى « مراجل » ، والمعتصم : أمه أمة تسمى « ماردة » ، والواثق : أمه أمة تسمى « حبشية » ، والمعتز : أمه أمة تسمى « قراطيس » ، والمتوكل : أمه أمة تسمى « شجاع » ، والمنتصر : أمه أمة تسمى « حبشية » ، والمستعين : أمه أمة تسمى « مخارق » ، والمعتز ، أمه أمة تسمى « قبيحة » ، والمهتدي : أمه أمة تسمى « فردة » ، والمعتمد : أمه أمة تسمى « قينان » ، والمعتضد : أمه أمة تسمى « ضرار » ، والمكتفي : أمه أمة تسمى « جيجك خاتون » ، والمقتدر : أمه أمة تسمى « السيدة شغب » ، والقاهر : أمه أمة تسمى « زهرة » ، والمستكفي : أمه أمة تسمى « أملح الناس » ، والمطيع : أمه أمة تسمى « مشغلة » ، والطائع : أمه أمة تسمى « هزار » ، والقادر : أمه أمة تسمى « دمنة » .

وفي الحقيقة لما توطدت أقدام العرب فيما وراء النهر بدأ العمال والولاة يرسلون من ابناء ملوك الاتراك وجواريهم الى الخلفاء العباسيين . وبغض النظر عن الاتراك الذين نزحوا طوعاً الى المدن الاسلامية ، فان كثيراً من الجواري التركيات قد أُرسلن الى الخلفاء والوزراء والأمراء من جملة الهدايا القيمة . وقد ثبت في المصادر التاريخية ان الخلفاء العباسيين كانوا يميلون ميلاً عظيماً الى جواري الاتراك ويعطون لهن مكانة خاصة بين سائر الاماء ويرغبون فيهن وينكحونهن «لما عرفن به من جمال ونظافة، وقد جمعن الحسن والبياض ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقد يوجد فيهن السمراء الاسيلة ، وقُدودهن ما بين الربع والقصير والطول فيهن قليل . ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ، وهنّ كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قل ما يتفق في اولادهن وحش ولا رديء التركيب ولا حانٍ . وفيهن نظافة ولباقة قدورهم مَعِدهم

يعوّلون عليها في الطبخ والنضج والهضم لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة ولا من لها عجيزة عظيمة [1] » . فلا غرو اذاً ان يكون كثير من أمهات الخلفاء العباسيين من جواري الأتراك .

وبمرور الاعوام زاد الاقبال عليهن واشتهرن في قصور الخلفاء وبيوت الوزراء ودور الأمراء بخلقهن وحسنهن وجمالهن كما قال ابن بطلان في رسالته لأن التركية « بيضاء البشرة على حظ عظيم من جمال وحياة ، ولها عينان صغيرتان جذابتان ، وهي في الغالب بدينة اميل الى القصر ولود، كريمة نظيفة تجيد الطهي ولكن لا يوثق بها ! ولا يعتمد عليها ! [2]» . ولذلك كانت الجواري التركيّات من احظى النساء عند الخلفاء ، ومن جملتهن « ماردة » زوجة الرشيد ، وأم المعتصم ، وشجاع جارية المعتصم وام المتوكل، وقطر الندى بنت خمارويه وزوجة المعتضد بالله الخليفة العباسي اللاتي تميزن بجمالهن وحسن آدابهن حتى صار كلامهن مضرب المثل في كتب المؤلفين. ويذكر الأدباء — حينما يريدون ان يضربوا مثلاً لأدب الزوجة عند زوجها— قول قطر الندى للمعتضد بالله : «اني لا اجلس مع النيام ولا انام مع الجلوس » . وبعضهن رفعن شأنهن في امور الدولة واشتركن في تدبيرها مع الخليفة والوزراء والامراء وخدمن خدمة كبيرة لا ينكر قدرها في التاريخ . ومنهن « السيدة شغب » ام المقتدر من اكبر امهات الاولاد من الاتراك ، فقد اصبحت ذات قدرة وسطوة واشتركت مع ابنها في تصريف امور الدولة كلها . ونحن نذكر منهن بعض ما وجدناه في المصادر الموثوقة .

(١) شرى الرقيق وتقليب العبيد (من نوادر المخطوطات) ، ١/ ٣٧٦ .
(٢) راجع ضحى الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ٨٦ .

مراجل

ولا يخفى علينا ان هارون الرشيد قد اشتهر بين الخلفاء العباسيين بكثرة الجواري في قصره « وكان في دار هارون الرشيد من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته واخواته أربعة آلف جارية »[١] . ولعل معظمهن من الجواري التركيات .

انما نخصّ بالذكر بعض من برزن منهن في قصر هارون الرشيد ومن أبرزهن « مراجل » باذغيسية[٢] « خراسانية تركية »[٣] انجبت المأمون من أبناء هارون الرشيد واشتركت في تربيته منذ حداثة سنه . ويقول ابن قتيبة في المأمون « وامه أمة تسمى مراجل »[٤] وقال الرقاشي يمدح محمداً ويعرض بالمأمون :

لم تلِـده امــةٌ تعـرف في السُّوقِ التّجارا
لا ولا حُـدّ ولا خـان ولا في الجَـرْيِ جارا

وكان الرشيد قد حدّ المأمون في جارية من جواريه .

ماردة

ومن اللاتي اشتهرن في قصر هارون الرشيد من الجواري التركيّات « ماردة » « كوفيّة مولّـدة »[٥] « سغدية وكان أبوهـا نشأ بالسواد بالبندنيجين »(*)[٦]

(١) راجع البداية والنهاية ج ١٠ : ص ٢٢٠ .
(٢) راجع التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣٠٢ .
(٣) راجع السيرة لابن حزم ص ٣٧٠ .
(٤) راجع المعارف لابن قتيبة ص ١٦٩ .
(٥) راجع جوامع السيرة لابن حزم ض ٣٧١ .
(*) البندنيجين : وهي بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد ، يشبه ان تعدّ في نواحي مهرجانقذق . الحموي ٤/٤٩٩ .
(٦) راجع الطبري ج ١١ : ص ٩ .

ويقول السيوطي عنها « فكانت أحظى الناس عند الرشيد »[١] وكان يحبّها حبّاً جمّاً حتى لا يصبر عنها ساعة . وفي خبر عبد الله بن المعتز[٢] ان الرشيد هجر جاريته ماردة وكان يموت من عشقها فتكبر ان يبدلهـا بالصلح وتكبرت هي أيضاً ، فصبرا على ذلك مدة بأمرّ عيش وكاد الرشيد يتلف . وكان وزيره الفضل بن الربيع فاحضر الفضل العباس بن الاحنف وعرفه القصة وقال: قل في ذلك شيئاً فقال :

العاشقانِ كلاهُما مُتَجنّبٌ وكلاهُما مُتَعَتِّبٌ مُتَغَضِّبُ
صَدّتْ مُهاجرةً وصدّ مُهاجراً وكلاهُما ممـا يُعالـج مُتعَبُ
انّ التَّجانُـب ان تطاول منهما دبَّ السُّلوُّ له فعزَّ المطلبُ

فبعث إليه الفضل بالأبيات فسر بها سروراً ولم يستتم الرشيد فراقها حتى قال أيضاً في ذلك بيتين وهما :

لا بد للعاشق من وقفـة تكون بين الوَصْل والصّرم
حتى اذا الهجر تمادى بـه راجع من يهوى على الرّغم

فاستحسن الرشيد اصابته حالها وقال : لأصالحها كما قال ، وعرفت ماردة السبب في الشعر ولم تدر من قائله . فسألت الرشيد فقال : لا أدري من صاحب الشعر ، ولكن الفضل بن الربيع بعث به ، فأرسلت الى الفضل تسأله فأعلمها فأمرت له بألف دينار ، وأمر له الرشيد بألفي دينار وأمر له الفضل بخمسمائة دينار (*) .

فهذه هي ماردة التي أنجبت المعتصم وربته منـذ صغر سنه ولذلك

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣١ .
(٢) راجع طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٢٠ .
(*) وانظر القصة باختلاف يسير في وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤ .

كان في طباع المعتصم كثير من آثار أجداده الاتراك . يقول ابن أبي دواد « وكان المعتصم يخرج ساعده اليّ ويقول : يا أبا عبدالله عضّ ساعدي بأكثر قوّتك فأمتنع فيقول : انه لا يضرّني فأروم ذلك فاذا لا تعمل فيه الأسنّة فضلاً عن الأسنان » وكان يجعل زند الرجل بين اصبعيه . ويزيد السيوطي انه – أي المعتصم – كان يتشبه بملوك الأعاجم – أي الاتراك – ويمشي مشيهم[1] .

وكثير من المؤلفين المحدثين علّلوا ميل المعتصم الى الاتراك بتأثير أمه التي كانت تنتمي الى أصل تركي . قد ولد للرشيد من ماردة ما عدا أبا اسحاق المعتصم : أبو اسماعيل وام حبيب ، وآخران لم يعرف اسماهما[2] .

أما المعتصم فبغضّ النظر عن الجواري التركيات اللاتي اجتمعن في قصره كان يرغب في تزويج الاتراك من جنسهم ولذلك تقاطرت ألوف من نساء الاتراك الى دار الخلافة وزوجن من جنسهن من الاتراك . وقد تولّى المعتصم نفسه زواج بعضهن فمثلاً زوج المعتصم الحسن بن الافشين بأترجة بنت اشناس . وفي ذلك يقول المسعودي : وتوّج المعتصم الافشين بعد غلبته على بابك بتاج من الذهب مرصع بالجوهر واكليل ليس فيه من الجوهر الا الياقوت الأحمر والزمرّد الأخضر قد شبك بالذهب وألبس وشاحين وزوّج الحسن بن الافشين بأترجة بنت اشناس وزفت إليه وأقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال . وكانت توصف بالجمال والكمال . ولما كان من ليلة الزفاف ما عمّ سروره خواص الناس وكثيراً من عوامهم ، قال المعتصم أبياتاً يصف حسنها وجمالها واجتماعها وهي[3] :

زفّت عَروسٌ الى عَروسِ ... بنتُ رئيسٍ الى رئيسِ
ايّهما كانَ ليتَ شعْري ... أجلّ في الصّدرِ والنّفوسِ
أصاحِبُ المُذهّبِ المحلّى ... أمْ ذي الوشاحَينِ والشّموسِ

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٢ .
(٢) راجع الطبري ، ج ١١ : ص ٩ .
(٣) راجع مروج الذهب ، المسعودي ج ٢ : ص ٢٧٥ .

السيدة شجاع

ومن اللاتي اشتهرن في قصر المعتصم من جواري الاتراك « شجاع »، تركية[1] خالة موسى بن بغا[2] ، طخارستانية[3] و « كانت من سَرَوات النساء سخاءً وكرماً »[4] وقد تربت منذ حداثة سنها في بيت المعتصم . وكان للمعتصم من شجاع ابو الفضل جعفر المتوكل على الله الخليفة العباسي الذي آلت اليه الخلافة بعد موت الواثق .

واشتركت في تربية ابنها المتوكل واعداده لاعتلاء العرش . ولا يبعد ان تكون هي التي غرست في ابنها النفور من الجدل والاقتصار على السُنّة كما يقول المسعودي « ان المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث واظهار السنة والجماعة . وكانت لهذا أثر حسن في نفوس المسلمين حتى قالوا : الخلفاء ثلاثة : ابو بكر الصديق في يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم والمتوكل في احياء السنة »[5] .

وكانت للسيدة شجاع مكانة عالية في بلاط الخليفة . وكان الناس يحترمونها ويوقرونها . وفي سنة ٢٤٥هـ غارت « مُشاش » – عين مكة – حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً فبعثت شجاع فانفق عليها[6] .

وفي سنة ٢٣٦هـ حجت السيدة شجاع فشيعها المتوكل الى النجف[7] . فلما

(١) راجع جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٧٢ .
(٢) راجع كتاب المحبّر لابن حبيب ص ٤٤ .
(٣) راجع التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣١٣ .
(٤) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٧ : ص ١٦٦ .
(٥) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٣٦٩ .
(٦) راجع الطبري ج ٣ : ص ١٤٤٠ ، (ط : ليدن - بريل) .
(٧) راجع الطبري ج ٣ : ص ١٤٠٧ ، (ط : ليدن - بريل) .

صارت الى الكوفة أمرت لكل رجل من الطالبيين والعباسيين بألف درهم ولأبناء المهاجرين بخمسمائة درهم . وأمرت لكل امرأة من الهاشميّات بخمسمائة درهم[١] .

وكان المتوكل ينفق على أمه شجاع ست مائة ألف دينار[٢] . وفي سنة ٢٤٧هـ ماتت شجاع بالجعفرية قبل مقتل ابنها بستة أشهر لستّ خلون من شهر ربيع الآخر فصلى عليها المنتصر ودفنت عند المسجد الجامع[٣] . وكانت خيرة كثيرة الرغبة في الخير ، ولا يعرف امرأة رأت ابنها وهو جد وثلاثة أولاد ولاة عهود الا هي . وخلفت خمسة آلاف ألف دينار عيناً وورقاً وجوهراً قيمته الف الف دينار . وخلفت أيضاً أربع عشرة ضيعة مبلغ غلتها في السنة أربعمائة ألف دينار[٤] وقال ابن تغري بردي[٥] : كانت تدعى السيدة صالحة ،كثيرة الصدقات ولما ماتت قال ابنها المتوكل في موتها :

تذكرت لما فرّق الدهرُ بيننا ... فعزّيت نفسي بالنبي محمدِ
فقلت لها ان المنايا سبيلُنا ... فمن لم يَمُتْ في يومه مات في غدِ

قطر الندى

وكان المعتضد بالله الخليفة العباسي أكثر الخلفاء رغبة في الجواري التركيات وفضلاً عن ذلك فانه اقترن بفتاة جميلة تركية هي « اسماء » الملقبة بـ « قطر

(١) راجع شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٢ : ص ٨٥ .
(٢) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٣٠ .
(٣) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٢١٩ .
(٤) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٢٣٥ .
(٥) راجع النجوم الزاهرة ٢/٣٢٣ .

الندى » — ابنة خمارويه التركي والي مصر في عهده[١] . وقد روي عن زواجها أعاجيب تدهش العقول بل ربما تفوق الخيال[٢] .

وقد أحبها المعتضد حباً شديداً لجمال صورتها وكثرة أدبها . روي انه خلا بها في بعض الأيام فوضع رأسه على ركبتها ونام . وكان المعتضد كثير التحرز على نفسه . فلما نام تلطفت به وأزالت رأسه عن ركبتها ووضعتها على وسادة ثم تنحت عن مكانها وجلست بالقرب منه في مكانٍ آخر . فانتبه المعتضد فزعاً ولم يجدها فصاح بها فكلمته بالحال فعاتبها على ما فعلت من ازالة رأسه عن ركبتها وقال لها :

— أسلمت نفسي لك فتركتني وحيداً وانا في النوم لا أدري ما يفعل بي .
فقالت :

— يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمتَ به عليَّ ولكن فيما أدبني به والدي خمارويه « اني لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس »[٣] فأعجبه ذلك الجواب .

چيچك خاتون

نعم ! كان قصر المعتضد مليئاً بالجواري والحظايا ومن أحسنهن وأجملهن من كن من الاصقاع التركية . قد برزت منهن « چيچك خاتون » من الأسرة الارستقراطية التركية . وكانت في غاية الجمال والحسن يضرب المثل بحسنها حتى في معرض الهجو ؛ قال بعضهم[٤] :

(١) راجع الطبري ١١/٣٤١ .
(٢) راجع كتاب الذخائر والتحف ، ٣٨ .
(٣) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٦ : ص ٨٠ .
(٤) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦١ .

قايستُ بينَ جمالها وفِعالِها فاذا الملاحةُ بالخلاعةِ لا تفي
والله لا كلَّمتها ولو انها كالشمس او كالبدرِ او كالمكتفي

ويقال لها أيضاً «خاضع»[1](*). وهي أنجبت المكتفي بالله بن المعتضد. وكان في طباع المكتفي كثيرٌ من أثر أجداده الاتراك . يقول الطبري[2] « انه كان ربعة جميلاً رقيق اللون حسن الشعر وافر الجمّة وافر اللحية » .

السيدة شغب

ومن أشهر الجواري التركيات في قصر المعتضد بالله « السيدة شغب » وقيل ان اسمها « غريب » قال السيوطي بشأنها « رومية وقيل تركية »[3] الا ان المؤرخين أمثال جرجي زيدان[4] وشارح ديوان ابن الرومي الشيخ محمد شريف سليم[5] يجزمون بأنها تركية . وكانت أولاً جارية ام القاسم بنت محمد بن طاهر واسمها اذ ذاك « ناعم »[6] ثم انتقلت الى قصر المعتضد بالله فأعتقها وتزوجها . وكان للمعتضد منها جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر بالله الذي تولى الخلافة بعد

(١) راجع التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣٢١ .
(*) وقد ورد اسمها في المصادر على ما يلي : جيجك (الطبري ٤٠٤/١١) و جيجق (التنبيه والاشراف ٣٢١) وججك (المختصر لابي الفداء ٦٣/٢) ، ولعل الصواب ما اثبتناه : كلمة تركية يقصد بها « الزَهرة » ؛ ومعنى خاتون : المرأة الشريفة ، كلمة تركية مشهورة وقد دخلت في الالسنة الشرقية – أعني اللغة العربية والفارسية – وهي من الكلمات المتداولة أيضاً في الهند والباكستان . ومعناها القديم « الملكة » .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٤٠٤ .
(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٥ .
(٤) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان ج ٤ : ص ١٨٦ .
(٥) راجع ديوان ابن الرومي شرح الشيخ محمد شريف سليم ص ٢٨ .
(٦) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٢٣٨ .

موت أخيه المكتفي بالله في سنة ٢٩٦هـ وهو في الثالثة عشرة من عمره[1] .

ولقبت شغب في خلافة ولدها « بالسيدة »[2] ولما آلت الخلافة الى ابنها المقتدر بالله قامت بتوجيهه وتصريف أمور الخلافة باسمه . بل ربما تصرفت في الأحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم . وقد اتسعت سلطتها في بلاط الخليفة الى حد أن « أمرت سنة ٣٠٦هـ بثمل القهرمانة ان تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة . فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان ، وكانت تبرز التواقيع وعليها خطها »[3] .

وكانت السيدة من خيرة النساء سخاء وكرماً تنفق على الفقراء وتطعم المساكين وتهدي هدايا سنيّة لبنات المُعْدمين وأزواجهن . وكان محمد بن عبد الحميد كاتب السيّدة ، فعرضت عليه الوزارة فأباها وكان من مشايخ الكتاب الذين يعوّل عليهم في الأمور وفي أحكام الدواوين . فلما توفي في سنة ٣٠٧ هـ استكتبت السيدة احمد بن عبيد الله بن احمد الخصيب وكان يكتب لثمل قهرمانتها . فضبط الأمر ضبطاً شديداً وحُمِد أثره فيه[4] .

ولما ثار عبد الله بن حمدان على المقتدر وخلعه الثوار سنة ٣١٧هـ استتر هو وأمه ، ثم لم تلبث أمه ان عادت الى تدبير الشئون بعد قمع الثورة – في السنة نفسها – وظلت الى ان قتل ابنها سنة ٣٢٠ .

ولما آل الأمر الى القاهر بالله صادرها وضربها بيده مائة مقرعة على المواضع الغامضة ، وأسرف في عقوبتها ، فأقرّت بصناديق فيها صياغات وثياب وفرش وطيب وكانت قيمة ذلك مائة وثلاثين الف دينار . وزادت علة السيدة من ضربات

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٤٠٤ .
(٢) راجع البداية والنهاية ج ١١ ص ١٦٩ .
(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٥ .
(٤) راجع صلة تاريخ الطبري ص ٧٩ .

القاهر حتى ماتت في العذاب وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٢١هـ[١] . ودفنت بتربتها بالرصافة . وذكر ثابت في تاريخه « ان السيدة لم تقصر في الاحسان الى القاهر والتوسعة عليه . حتى كانت تخرجه الى بساتين ابنها في دار السلطان فتفرّجه فيها وتقرّبه من مجالس ابنها اذا شرب ليسمع الغناء وتشرف بنفسها على ما يطبخ له من الطعام وترسل معه جارية تأكل من الطعام قبل ان يأكل ، وأهدته جواري يأنس اليهن فكافأها على ذلك بما فعل معها»[٢] ، قال ابن تغري بردي : كان لها الأمر والنهي في دولة ابنها ، وكانت صالحة وكان متحصلها في السنة الف الف دينـار تتصدق بها وتخرج من عندها مثلها . ومن آثارهـا « بيمارستان » المستشفى أنشأته ببغداد وكان طبيبه سنان بن ثابت . وكان مبلغ النفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار[٣] .

ومنهن : « زمرد » تركيـة الأصـل . وهي أنجبت الناصر لدين الله من الخلفاء[٤] . والمستنصر بالله أبو جعفر كانت أمه جارية تركية[٥] . ويقول ابن كثير عنه[٦] « وكان المستنصر من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً » وكان يرغب في عادة الاتراك ويحب طعامهم وكثيراً ما يلبس لباس الاتراك .

وهناك جارية تركية أخرى تسمّى « بائي خاتون »[٧] أنجبت المستعين بالله. وأخيراً « كوزل ــ خاتون » من الاسرة الاستقراطية التركية ، أنجبت المعتضد بالله الخليفة العباسي . ويقول السيوطي[٨] « كان المعتضد من سروات الخلفـاء نبيلاً ذكياً فطناً » .

---

(١) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٢٣٨ .
(٢) راجع كتاب الذخائر والتحف ص ٢٣٩ .
(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٥ .
(٤) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١١ .
(٥) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٠ .
(٦) راجع البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٣ .
(٧) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٥ .
(٨) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٧ .

هذا ما وجدنا في المصادر بعد التحقيق في هذا الباب . وهو يعطي فكرة عامة عن نساء الاتراك ومكانتهن في الدولة العباسية . ونحن نقول : اذا جمعت عهود الخلفاء الذين كانت أمهاتهم من الجواري الاتراك فهي تتجاوز ١٥٠ عاماً . وذلك دليل لا دليل بعده على نفوذ الاتراك في الدولة العباسية .

جدول الخلفاء من الامهات التركية

اسماء الخلفاء	اسماء امهاتهم	مدة خلافتهم
ابو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد	مراجل	١٩٨ — ٢١٨ هـ
ابو اسحق محمد المعتصم بالله بن الرشيد	ماردة	٢١٨ — ٢٢٧ هـ
ابو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم	شجـاع	٢٣٢ — ٢٤٧ هـ
ابو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد	چيچك خاتون	٢٨٩ — ٢٩٥ هـ
ابو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد	السيدة شغب	٢٩٥ — ٣٢٠ هـ
ابو العباس الناصر لدين الله بن المستضيء	زمرد	٥٧٥ — ٦٢٢ هـ
ابو جعفر المستنصر بالله بن الظاهر	جارية تركية	٦٢٣ — ٦٤٠ هـ
ابو الفضل العباس المستعين بالله بن المتوكل	بائي خاتون	٨٠٨ — ٨١٥ هـ
ابو الفتح دؤاد المعتضد بالله بن المتوكل	كوزل ـ خاتون	٨١٥ — ٨٢٤ هـ

الجزء الثالث

الجاحظ والاتراك

الفصل الاول

الجاحظ وكتابه في فضائل الاتراك

الباب الأول

حياة الجاحظ بين الاتراك

نظرة عن حياة الجاحظ الاولى

ان الذين درسوا الجاحظ اي حياته التي هي تاريخ عصره وكيانه الذي فاق به جميع معاصريه ، وأدبه الذي امتـــاز به بين الأدباء في عهده ، وكتبه التي تصوّر حياة المجتمع في زمنه ، وآراءه القيمة التي تدل على سعة صدره ، وافكاره العالية التي تضيء لنا حلول المشاكل في قرنه لتشهد بأن الأتراك لعبوا دوراً هاماً في أيامه ، وأثروا تأثيراً شديداً في حياته وعيشه . ونحن اذ نعالج هذا الموضوع البكر سنحاول كشف القنـاع عن وجه الحقائق التاريخية ونضعها امـام القراء المَعْنيين بها .

ويحسن بنا ان نذكر نبذة عن حياة الجاحظ قبل الخوض في صميم موضوعنا

فنقول : من المتفق عليه ان الجاحظ مات سنة ٢٥٥ هـ[1] انما اختلف في سنة ولادته وهي إما سنة « ١٥٠[2] هـ » او « ١٦٠ هـ[3] » او « ١٥٥ هـ[4] » او « ١٦٣ هـ[5] » . وقد ذكروا انه نيّف على تسعين سنة ، الا اننا نضيف الى ذلك قول الجاحظ في اواخر عمره « أشدّ ما عليّ ستة وتسعون سنة[6] » فنرجح ان تكون ولادته من سنة ١٥٤ هـ الى سنة ١٥٥ هـ .

ولد ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الملقب بالجاحظ – لجحوظ عينيه من حدقتيها الواسعتين – في البصرة . ولما شب طلب العلم اولا في الكتّاب مع اولاد القصابين « واخذ النحو عن الأخفش ، وكان تلميذاً لأبي اسحاق المعروف بالنظام المتكلم المشهور المعتزلي ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد[7] » وأولع بالقراءة حتى انه « لم يقع بيده كتاب الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، وكان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر »[8] .

ولقد تثقف الجاحظ بالثقافة العربية من المربد ومن علمائها أمثال الأصمعي وأبي زيد وتعمق في الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن اسحاق وغيره . وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وغيره ، ثم هو لم يترك الثقافة التركية بل تعمق فيها وبلغ الى حد لم يبلغه احد ممن كان في عصره حتى صار مسموع الكلام في هذا الباب . وألف رسالة مستقلة في موضوع الترك تعطي لنا فكرة كافية عن سعة صدر الجاحظ وتبحره بثقافة الأتراك، وهو يقول

(١) راجع هدية العارفين ١/٨٢ .
(٢) راجع معجم الادباء ٦/٥٦ .
(٣) راجع معجم المطبوعات العربية ١/٦٦٦ .
(٤) راجع وفيات الاعيان ٣/١٤٢ .
(٥) راجع الاعلام ٥/٢٣٩ .
(٦) راجع وفيات الاعيان ٣/١٤٢ .
(٧) راجع معجم الادباء ج ٦ : ص ٥٦ .
(٨) راجع معجم الادباء ج ٦ : ص ٥٦ .

في موضع منها «الا انا على كل سنذكر جملاً من احاديث رويناها وعيناها وامور رأيناها وقصص تلقفناها من افواه الرجال وسمعناها[1] » ولعل هذا هو المنهج العلمي الذي سلكه الجاحظ لتتبع ثقافة الأتراك واستقائها رأساً من منابعها الأصلية .

الجاحظ في بغداد

ولما اخذ قسطاً من العلم والادب نزل ببغداد كما كان يفعل كثير من العلماء والأدباء في عصره ، وهناك امكن له التعرف برجال الدين وعلماء اللغة وأهل الكلام الذين لمعوا في سماء بغداد ، ولازم مجالس الأدباء والشعراء ، واتصل بالكبار من رجال البلاط نعني بهم الوزراء والأمراء واكتسب صداقتهم فوجد عندهم على ما قال هو نفسه ما لم يجد عند مشايخه الذين اخذ عنهم الشعر والأدب حتى حذق الشعر والأدب والكتابة .

على ان الجاحظ قد استفاد بقدومه الى عاصمة الخلافة من ناحيتين مهمتين :

أولاً – اتصاله بأسياده من الاتراك الذين شغلوا المناصب الخطيرة في الدولة العباسية وأحرزوا مكانة عالية في الحكومة والجيش واختلاطه بأدبائهم ووزرائهم ورجال دولتهم مثل ابي يعقوب الخريمي ، وابراهيم بن العباس الصولي ، والفتح ابن خاقان التركي وغيرهم من مشاهير الاتراك . وقد انتهز الجاحظ الفرص التي سنحت له حينما كان في بغداد للتقرب اليهم حتى صار من صميم اصدقائهم .

واعتمد هؤلاء الاتراك الجاحظ وكانوا يبذلون له العطايا والمِنَح ويسبغون هداياهم عليه . ولم يكن الفتح بن خاقان يقصر عليه عطاياه بل كان يحصل على

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٩ .

الجوائز له من الخليفة ايضاً . وهو يقول في رسالته الى الجاحظ « وقد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنة كاملة »[١] ثم ان اختلاطه مع الاتراك واعتمادهم إياه ربما زاد في احترامه وعلوّ كعبه في بلاط الخليفة بين الأمراء والوزراء . وهـذه الرواية التي هي آية لظرفه وأدبه تصرح لنـا عن رضاه بنفسه وبأحواله في حاضرة الخلافة . دخل عليه بعض اخوانه فقال له :

— كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ :

— سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً . حالي ان الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصّلات إليّ . وآكل من لحم الطير أسمنها وألبس من الثياب الينها ، وأجلس على ألين الطبري واتكىء على هذا الريش ، ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج . فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه ، فقال :

— بل أحب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ويختلف اليّ ، فهذا هو الفرج .

ثانياً — وجد الجاحظ جوّاً مساعداً للتوسّع من الثقافة التركية ، والتعمق فيها . ومن المعلوم ان بغداد كانت في ذاك العصر غاصة بالاتراك الذين تقاطروا اليها بتشجيع من الولاة والعمال فيما وراء النهر وقد كان أكثرهم من الاستقراطية التركية . وبهذا أمكن للجاحظ ان يسمع قصصهم ومناقبهم حيناً من الاتراك وحيناً من الرجال الذين حاربوا الاتراك أثناء فتـح بلادهم وكذلك تهيّأت له فرصة صالحة لتلفيق مناقبهم وجمع فضائلهم في رسالة مستقلة بأسلوبه الخاص أثراً خالداً على مرّ الزمان .

ونحن نورد هنا مقتبسات من الجاحظ تؤكد لنـا حرصه على ثقافة الاتراك ومنهجه في الملاحظة والضبط . يقول : أردت مرة القاطول وهي المبارك ، وأنا خارج من بغداد وأرى فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف

(١) راجع معجم الادباء ج ٦ : ص ٧٢ .

الجند قد عار لهم فرس وهم على خيل عتاق يريغونه فلا يقدرون على أخذه، ومرّ تركي ولم يكن من ذوي هيئاتهم وذوي القدر منهم وهو على برذونٍ له خسيس وهم على الخيول المطهمة ، فاعترض الفرس اعتراضاً وفتله فتلا وحيّاه وأتاه من زجره بشيء فوقف أولئك الجند وصاروا نظارة ، فقال بعضهم ممن كان يزدري ذلك التركي :

— هذا وأبيك التكلف والتعرّض ، ان فرسا قد أعجزهم وهم اسد البلاد وجاء هذا مع قصر قامته وضعف دابته فطمع ان يأخذه . فما تقضّى كلامه حتى أقبل به ثم سلمه اليهم ومضى لطيّته لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم ولا أراهم انه قد صنع شيئاً او أتى اليهم معروفاً[١] .

وهذا أيضاً مما شاهده هو بنفسه ، يقول : وانا أخبرك اني قد رأيت منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريباً ؛ رأيت في بعض غزوات المـأمون سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الاتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر واذ هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون وقد انتصف النهار واشتدّ الحرّ ، فورد عليهم وجميع الاتراك جُلوسٌ على ظهور خيولهم الا ثلاثة او أربعة وجميع تلك الاخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الأرض الا ثلاثة او أربعة فقلت لصاحبي :

— انظر أي شيء اتفق لنا ؟ اشهد ان المعتصم كان أعرف بهم حـين جمعهم واصطنعهم[٢] .

وهاك قصة تلقفها من أفواه الرجال وهي تتعلق بثمامة بن أشرس ، يقول : عرض لنا في طريق خراسان تركي ومعنا قائد يصول بنفسه ورجاله . وبيننا وبين التركي وادٍ ، فسأله ان يبارزه فارس من القوم ، فأخرج له رجلا لم أر قط أكمل منه ولا أحسن تماماً وقواماً منه ، فاحتال حتى عبر إليه الفارس فتجاولا

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦٢ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦١ .

ساعة" ولا نظن ان صاحبنا يفي باضعافه . وهو في ذلك يتباعد عنا. فبينا هما في ذلك اذ ولّى عنه التركي كالهارب منه وفعل ذلك في موضع ظننا ان صاحبنا قد ظهر عليه وأتبعه الفارس لانشك الا انه سيأتينا برأسه ويأتينا به مجنوباً الى فرسه ، فلم نشعر الا وصاحبنا قد أفلت عن فرسه فجنبه اليه ومعه . ويقول ثمامة : ثم رأيت بعد ذلك التركي قد جيء به أسيراً الى دار الفضل بن سهل فقلت له :

— كيف صنعت يومئذٍ وكيف طاولته ثم علاك ثم وليت عنه هارباً ثم قتلته . فقال التركي :

— أما اني لو شئت ان اقتله حين عبر وقد كان مقتله بارزاً لي ولكني احتلت عليه حتى نحيته عن أصحابه لأحوزه فلا يحال بيني وبين فرسه وسلبه[١] .

نعم ! أخذنا هذه الروايات من مؤلفات الجاحظ . وليس من الصعب ان نجد روايات أخرى مثلها ولعلها تقنعك بالرأي بان جوّ بغداد هو الذي حث الجاحظ على الاستزادة من الثقافة التركية وبذل الجهد للدفاع عنها في حين كانت العصبيات القومية تعمل ضدّ الاعتراف بحقها .

علاقات الجاحظ بكبار الاتراك

والآن سنحاول ان نلقي ضوءاً على علاقات الجاحظ مع كبار الاتراك ببغداد فالأول منهم : ابو يعقوب الخريمي .

ولا يخفى علينا ان الخريمي كان من الاتراك الأولين الذين لمعوا في سماء الأدب والشعر في عاصمة الخلافة ، وكان أصله من اتراك ما وراء النهر . تعلم العلم والأدب

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٦١ .

حتى صار شاعراً بليغاً وأديباً فصيحاً . يقول ابن المعتز[١] « كان الخريمي شاعراً مفلقاً مطبوعاً مقتدراً على الشعر. وكان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيعطى له الكثير ، وكان من نسل الأتراك » .

فلما قدم الجاحظ الى بغداد اتصل به اتصالاً قوياً وصار من أحب أصدقائه وحسبك قول الاستاذ علي جواد الطاهر حيث يقول[٢] : « أما علاقتـه — أي الخريمي — الأدبية فلا بد من أنها واسعة . وكانت علاقة الجاحظ بـه علاقة اعجاب» ولذلك لا نتعجب اذا روى الجاحظ أبياتاً كثيرةً من شعره في المواضع المختلفة من مؤلفاته[٣] ، وسيأتي كلامنا عن حياته بالتفصيل ان شاء الله .

الجاحظ وابراهيم بن العباس

ما ان نزل الجاحظ ببغداد حتى أخذ صيته ينتشر يوماً فيوماً بكتبه ورسائله وتحدث عنه الناس في قصور الخلفاء والأمراء وبلغ خبره الى المأمون . فانه لما قرأ كتاب الجاحظ — الامامة — استقدمه الى قصره وطلب منه ان يكتب رسالة في العباسية . ثم اظهر حسن تقديره له بأن ولّاه ديوان الرسائل ، غير ان الجاحظ لم يمكث في ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام ، ثم انه استعفى منه فأعفي وكان سهل بن هارون يقول[٤] : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب » .

ولكن الجاحظ ثار بقلمه على أولئك الذين يجلسون في ديوان الرسائل وانتقم منهم ببلاغة كلامه وفصاحة لسانه لأن أولئك « لباسهم الذلة وشعارهم الملَـق

(١) راجع كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٣٩ .
(٢) راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٤١ ص ٤٥٨ .
(٣) راجع البيان والتبيين ١/٢٢٤ ؛ الحيوان ١/٢٢٦ ، ٢٢٤ ؛ ٧/٦١ .
(٤) راجع معجم الادباء للحموي ج ٦ : ٥٨ .

وقلوبهم ممن لهم حول مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل وصحبها ترقب الاحتياج فهم مع ذلك في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلّت وكثيراً ما تحلّ فناهيك بهم مرحومين ورقّ لهم الأعداء فضلاً عن الاولياء »[١] .

ولم يكتف الجاحظ بهجماته على الكتاب في مواضع مختلفة من مؤلفاته بل كتب رسالة مستقلة في ذم اخلاقهم وتقبيح نفوسهم لانهم أغرار يدعون الذكاء ان مدحهم احد الناس لغاية في نفسه تمايلوا كالطاووس وحسبوا انهم سادة الرأي وولاة الأمور . فبقدرما يخضعون لرؤسائهم يتكبرون على عامة الناس . ولم يبال الجاحظ بالتصريح بأنه جلس يوماً في بعض الدواوين فتأمّل الكتاب فقال : خلق حلوة وشمائل معشوقة وتظرف أهل الفهم ووقار أهل العلم . فان ألقيت عليهم الأخلاص وجدتهم كالزَّبَد يذهب جُفاء . لا يستندون من العلم الى وثيقة ولا يدينون بحقيقة . اخفر الخلق لأماناتهم وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ، الويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»[٢] .

ولعل الجاحظ قد اتصل بعدما لازم بلاط الخليفة بابراهيم بن العباس الصولي التركي — المتوفى سنة ٢٤٣هـ — من أكبر رجال الدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . قد قدّر له ان يلعب دوراً هاماً في حياة الجاحظ مثل الفتح بن خاقان .

وقد اسند الى ابراهيم ديوان الرسائل الذي هو محور السياسة العامة للدولة وكان لا يعهد به الا لذوي الشرف والنباهة وكان لا يليه الا الحذاق في مختلف العلوم والآداب وأصحاب السياسة والتدبير والكياسة . وقد كان ابراهيم بن العباس الصولي مقدماً فيه حتى أوائل عهد المأمون .

---

(١) راجع رسائل الجاحظ (على هامش الكامل للمبرد) ج ٢ : ص ٢٤٨ .
(٢) راجع ذم اخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ) ج ٢ : ٢٠٥ .

فلما قدم اليه الجاحظ قرّبه حتى صار من أعز أصدقائه . وكان الجاحظ يخلفه في الديوان اذا تغيب في شأن من شئونه الخاصة او العامة « حتى لقب بخليفة ابراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل »[١] .

نعم ! أخرج الجاحظ من ديوان الرسائل ولكنه اتصل اتصالاً تاماً بابراهيم ابن العباس رئيس ديوان الرسائل ، وصار ابراهيم من الشخصيات المشهورة في حياة الجاحظ الذي حظي برعايته .

وكان من ديدن العلماء اذا ألفوا كتاباً ان يقدموه الى من يقدر حقهم من كبار رجال الدولة . وقد اتبع الجاحظ هذه السنة القديمة فقدم كتبه الى من يقدّر حقه من الوزراء والأمراء ، ومن جملتهم ابراهيم بن العباس الصولي التركي . فانه وضع « كتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب » ورفعه الى ابراهيم بن العباس الصولي من اسياده من الاتراك فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار . فمن اجل ذلك كان الجاحظ يعيش في ترَف من الحياة في البصرة وبغداد وسامرّاء . حتى ان بعض الناس كانوا يغبطون حاله . يقول ميمون بن هارون قلت للجاحظ [٢] :

— ألك ضيعة بالبصرة ؟ فتبسم وقال :

— انما انا وجارية تخدمنا وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فاعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم ابن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفت الى البصرة ، ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد[٣] .

وتشير روايات الجاحظ الى ان بعض من حقدوا على ابراهيم عابوا على الجاحظ

---

(١) راجع الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء لبلاّ ص ٣٨٨ .
(٢) راجع معجم الأدباء للحموي ج ٦ : ص ٧٥ .
(٣) راجع رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٣١ .

تقديم رسالته اليه ، ومن جملتهم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات. ولعل الجاحظ كتب رسالته الطويلة « في الجد والهزل » بسبب البرودة بين ابن الزيات وابراهيم وخصوصاً بعدما عابه ابن الزيات بتقديم رسالته اليه . يقول في صدر الجد والهزل « جُعلتُ فداك ليس من أجل اختياري النخل على الزرع اقصيتني ولا على ميلي الى الصّدقة دون أعطائي الخراج عاقبتني ولا لبغضي دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني ... ولست ادري لم كرهت قربي وهويت بُعدي ... ولم سرّتكَ سيئتي ومصيبتي وساءتك حسنتي وسلامتي ... حتى تمنيت ان اخطىء عليك فتجعل خطأي حجة لك في ابعادي ... فان كان ذلك هو الذي أغضبك وكان هو السبب لموجدتك فليس – جعلت فداك – هذا الحقد في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة »[1] .

وفي موضع آخر يقول : وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الاخوان ؟ ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ الثمر يورث الهجران ؟ ومتى تميّزوا هذا التميز وتهالكوا هذا التهالك ؟ ومتى صار تقديم النخلة ملة، وتفضيل السنبلة نحلة ؟.. فجئتنا انت بنوع من العجب ابطل كلّ عجب وآنسنا بكل غريب وحسَّنَ عندنا كلّ قبيح وقرّب عندنا كل بعيد .[2] وفي موضع آخر يسأل الجاحظ منه : جعلت فداك ما هذا الاستقصاء ؟ وما هذا البلاء ؟ وما هذا التتبع لغوامض المسألة والتعرض لدقائق المكروه ؟ وما هذا التغلغل في كل شيء يُخْمل ذكري ؟ وما هذا الترقي الى كلّ ما يحطّ من قدري ؟ وما عليك ان تكون كتبي كلها من الورق الصيني ومن الكاغد الخراساني ... دع عنك كل شيء ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3] .

فانت ترى تعريض الجاحظ هذا بمحمد بن عبد الملك الزيات الذي عابه بتقديم رسالته الى ابراهيم ومع انه لم يقل لنا ذلك قولاً صريحاً الا ان المنافسة

(١) راجع رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٣١ .
(٢) راجع رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٤١ .
(٣) راجع رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٥٢ .

العدائية بين ابن الزيّات والصولي ظاهرة بيّنة . فقد روى الطبري انه لما ولي الوزارة محمد بن عبد الملك في عهد المتوكل رغم انه كان صديقاً (!) لابراهيم صادره بألف ألف وخمسمائة ألف درهم[1] حتى قال ابراهيم في ذلك[2] :

أصبحتُ من رأى أبي جعفرٍ في هَيئَةٍ تنذر بالصَّيلم
من غير ما جرم ولكنها عداوة الزنديق للمسلم

ومن الطبيعي لرجل مثل محمد بن عبد الملك الزيات الذي قد عزل مراراً ان يعيب الجاحظ بسبب حقده على ابراهيم بن العباس الذي تولى ديوان الرسائل والنفقات وكانت له مكانة عالية في بلاط الخليفة بين الأمراء والوزراء منذ أوائل عهد المأمون . وجاء الجاحظ في كتاب الحيوان بنظير ما قال في رسالته في الجد والهزل موجهاً الكلام الى ابن الزيات الذي قدم اليه هو كتاب الحيوان قال[3] : « وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب » .

***

ومرت الأيام وذهب المأمون والجاحظ في بغداد يتحدث الناس عنه في مجالس العلماء والشعراء ويصل خبره الى قصور الخلفاء وبيوت الأمراء . ثم جاء عهد المعتصم الذي قويت فيه شوكة الاتراك وكثر عددهم وعلا شأنهم الى حد ان قال الشاعر :

اصبح الترك مالكي الأمر والعا لَمُ ما بين سامعٍ ومطيع

فشاهد الجاحظ مجيء الاتراك الى بغداد على ظهور خيولهم بطلب المعتصم مع

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣٠ .
(٢) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الأدبية) ص ١٦٥ .
(٣) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ : ص ٤ .

حسن هندامهم وجمال منظرهم ولا سيما الذين كانوا من أبناء الملوك من الارستقراطية التركية وهم بزيهم الخاص . وشاهد أيضاً سطوة الترك الذين كانوا حديثي العهد بالاسلام وحلولهم محل الفرس والعرب وحملهم راية الخلفاء من الثغور الى الثغور ، واخمادهم الفتن والقلاقل التي أثارها العرب وغيرهم من الأمم الخاضعين في داخل حدود الامبراطورية الاسلامية . ولعل هذا كله أثّر على الجاحظ تأثيراً بالغاً حتى اسبغ على الترك قلمه السيّال باسلوب جاحظي وكتب رسالته الفريدة من نوعها في فضائل الاتراك .

والواقع ان الجاحظ كتب رسالته أيام المعتصم وأراد ان يقدمها اليه كما قدم كثيراً من كتبه الى أكابر الدولة كي يتقرب اليه ويلازم مجلسه . ولكن لم تصل الرسالة اليه لأسباب يطول شرحها[1] ويمكن انه خاف ممن كان حول المعتصم من المتعصبين لقوميّتهم والحاقدين على الاتراك . ومع ذلك لم يحرم الجاحظ من صحبة المعتصم كما ينبيء هو نفسه بذلك في مؤلفاته[2] .

ومضت أيام المعتصم وجاء عهد الواثق فازدهر حظّ الجاحظ بعد ما اتصل بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات — وزير المعتصم ثم الواثق بعده — وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد للعداوة بين احمد ومحمد . ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل لم هربت فقال :

— خفت ان أكون ثاني اثنين اذ هما في التنّور[3] — يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنّورَ حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه . فعذب هو حتى مات — يعني محمد بن الزيات .

وفي عهد المتوكل بلغت سطوة الترك أوجها . وكانت أم المتوكل أيضاً

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٦ .
(٢) راجع صناعات القوّاد (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٧٩ .
(٣) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٥٧ .

تركية[1] . والاتراك غلبوا في عهده واخذوا زمام الدولة بأيديهم وساعدتهم الحوادث في اعلاء شأنهم ورفع سلطانهم وكثيرٌ منهم تولوا المناصب العليا في الدولة . وكانت معظم الامور بأيدي الاتراك . وممن اشتهر منهم ايتاخ ، ووصيف وبغا ، وغيرهم من الاتراك الذين صاروا نخبة من قوّاد الخليفة . وكان الخلفاء يخضعون لنفوذهم ويتحرّكون وفقاً لإرادتهم وفي ذلك يقول الشاعر ولعله في المستعين :

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له كما تقولُ الببّغا

الجاحظ والفتح بن خاقان

ومن الاتراك الذين نبغوا في الدولة العبّاسية منذ عهد المعتصم الفتح بن خاقان التركي، وكان من وزراء الدولة، اتخذه المتوكل أخاً له وقدمه على أهله وكان خاصاً به حظيّاً عنده . وكانت منزلته من الخليفة فوق كل منزلة، وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة[2] .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان التركي ، ومع ذلك فان المصادر التي بين أيدينا لا تصرح بأي طريقة اتصل الجاحظ بالفتح ومتى تقرب اليه ؛ ويمكن لنا ان نقول كلمة في اتصاله بالفتح بن خاقان بعدما اطلعنا على حياة هذين العمادين باعتبار ان احدهما عماد الدولة والآخر عماد الأدب العربي في عصره .

لا شك لدينا ان الفتح بن خاقان كان أكبر رجل في دار الخليفة ومن عظماء

(١) راجع جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٧٢ .
(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ : ص ٢٤٦ .

الدولة وأصحاب المكانـة فيها . وكان على جانب عظيم من الدهـاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب من أكابر العلماء وفحول الأدباء . ومن أبرز ما اتسم به وبه امتاز عن غيره من الوزراء وكبار رجال الدولة غرامُه بالكتب غراماً شديداً ؛ يقول أبو هفّان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحق القاضي . وكان له خزانة حكمة لم يرَ الناس أعظم منها كثرة وحسناً ، جمعها له علـيّ بن يحيى المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح نفسه[1] . اذن فلا يبعد ان رجلاً مثل الفتح ابن خاقان في محبته للكتب اطلع على بعض مؤلفات الجاحظ التي انتشر صيتها في الآفاق ولا سيما في مجالس الظرفاء وحلقات الأدباء وقصور الخلفاء والأمراء .

ومن ناحية أخرى كانت دار الفتح مهبط العلماء ومنزل البلغاء وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء البصرة وأدباء الكوفة ، ومن جلتهم المفضّل بن سلمة اللغوي المعروف ؛ وكان الفتح يتبارى في تفسير الآيات مع المبرد وأمثاله ، وللبحتري فيه مدائح كثيرة هي من غرر ديوانه وتبلغ أكثر من ثلاثين قصيدة يمدح بها الفتح . أما شيخنا الجاحظ فقد كان يلازم مجلس الأدباء منذ عهد المأمون واتصل برجال الدولة حينما قدم الى بغداد . ولعل هذه كلها فتحت للجاحظ السبيل الى الاتصال بالفتح بن خاقان .

وفي الحقيقة كان الفتح بن خاقان من المعجبين بالجاحظ : بأدبه وفضله وسعة صدره وحسن معاشرته . وبعدما اتصل الجاحظ بالفتـح قدم اليه سلسلة من كتبه . وكان الجاحظ يراه أهلاً لذلك ، فوضع له رسالته المشهورة « في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ورفعها اليه بهذه المقدمة البرّاقة :

« وفقك الله لرشدك ، واعان على شكرك ، وأصلحك وأصلحَ على يديك ، وجعلنا وإياك ممن يقول بالحقّ ويعملُ به ، ويُؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصدّه عنه ، ولا يكون حظّه منه الوصف له والمعرفة به، دون الحثّ عليه والانقطاع

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٧ .

اليه ، وكشف القناع فيه ، وايصاله الى أهله والصبر على المحافظة في ألا يصل الى غيرهم ، والتثبّت في تحقيقه لديهم ؛ فان الله تعالى لم يعلّم الناس ليكونوا عالمين دون ان يكونوا عاملين ، بل علّمهم ليعملوا ، وبيّن لهم ليتّقوا التورّط في وسط الخوف ، والوقوع في المضارّ ، والتوسُّط في المهالك . فلذلك طلب الناس التبيُّن ، ولحبّ السلامة من الهلكة والرّغبة في المنفعة ، احتملوا ثقل العلم ، وتعجّلوا مكروه المعافاة ، ولقلة العاملين وكثرةِ الواصفين قال الأوّلون: العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثوابَ العمل مؤجّل واحتمال ما فيه معجّل .

وقد اعجبني ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، واشفاقك من كل خللٍ وخلّة دخل على مُلكه وان دقّ ، ونال سُلطانه وان صغر ، ومن كلّ أمرٍ خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وان قلّ ضرره ؛ ومن تخوُّفك ان يجد المُتأوِّل اليه طريقاً والعدوّ عليه متعلّقاً . فان السلطان لا يخلو من مُتأوّلٍ ناقمٍ ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن متعطّلٍ متصفّحٍ ، ومن معجبٍ برأيه ذي خطلٍ في بيانه ، مولع بتهجين الصّواب ، وبالاعتراض على التّدبير ، حتى كأنه رائـد لجميع الأمـة ، ووكيل لسكان جميع المملكة ؛ يضع نفسه في موضع الرُّقباء ، وفي موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذِرُ وان كان مجازُ العُذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشّك محتملاً ، ولا يُصدّق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وانه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهـد مواردَه ؛ ومستدبره من لم يعرف مُستقبله . ومن محرومٍ قد اضغنه الحرمان ، ومن لئيم قد افسده الإحسان ، ومن مستبطيءٍ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهلـه بقدره ، ولضيق ذرْعه ، وقلّة شكره، يظنُّ ان الذي بقي له أكثر ، وان حقّه أوجب ، ومن مستزيدٍ لو ارتجع السلطان سالفَ أياديه البيض عنده ، ونعمه السّالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً وله مستحقاً ، قد غرّه الإملاء ، وابطره دوامُ الكفاية ، وافسده طولُ الفراغ . ومن صاحب فتنةٍ خاملٍ في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نعّاق

في الحرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صَغوه ثِقاف الأدب ، واذلّه الحكمُ بالحق ، فهو مغيظٌ لا يجد غير التشنيع ولا يتشفّى بغير الإرجاف ولا يستريح الا الى الأماني ، ولا يأنس إلا بكلِّ مرجفٍ كذّاب ، ومفتونٍ مرتاب ، وخارصٍ لا خير فيه ، وخالفٍ لاغناء عنده ، يريد ان يسوّى بالكفاة ، ويرفع فوق الحُماة ؛ لأمرٍ ما سلف له ، ولإحسانٍ كان من غيره وليس ممن يربُّ قديماً بحديث ، ولا يحفل بدُروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حقِّ الذّمام وثواب الكفاية، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ولايفصل بين طبقات الباطل في منازله ؟

ثم أعلمتني بذلك انك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حُطت بحياطتك لأشياعه واحتجاجك لأوليائه ونِعم العونُ أنت إن شاء الله على ملازمة الطّاعة ، والمؤازرة على الخير والمكانفة لأهل الحق . وقد استدللتُ بالذي أرى من شِدّة عنايتك ، وفرط اكتراثك ، وتفقُّدك لأخابير الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك أمم في جنب ما بطن من اخلاصك . فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبّته ، وأعاذنا واياك من قول الزُّور والتقرُّب بالباطل انه حميد مجيد فعّال لما يريد »[1](*) .

---

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥ — ٨ .

(*) هذا وقد انتهت مقدمة الجاحظ في صدر رسالته التي قدمها الى الفتح بن خاقان سيده وولي نعمه . ويقول حسن السندوبي في هذه المقدمة « فانظر كيف افتتح هذه التقدمة وكيف بدأها وكيف تنقل في معانيها وأغراضها من الدعاء الى الوصف ، ومن العبرة الى الحكمة ومن ذكر الطبائع الى نعت المطامع . ثم انظر كيف صنف الناس من المتبرمين بالسلطان ، وكيف علّل تبرمهم وفصّل أسباب تفجرهم ، حتى لم يكد يدع خاطرة في هذا الباب ولا بادرة في هذا المعنى الا استوفى الإبانة عنها بعبارات جزلة ، وألفاظ سهلة ، وحتى كأنه يصف أخلاق أهل مصر في هذا العصر بقلم القدرة الذي يحق الحق ويبطل الباطل . ثم انظر كيف ختم ذلك بالاعجاب به وبشدة اخلاصه لامامه وحمده اياه على ما يتخذه في هذا السبيل من وسائل محمودة الأثر ثم حثه على الاستمساك بعصم الولاء والاعتصام بحبل الوفاء». (ادب الجاحظ : ١٤٨) .

ولما اتصل الجاحظ بالفتح اتصالاً مكيناً قدمه الفتح الى المتوكل الخليفة العباسي ، وبهذا تقرب اليه وحضر مجلسه ، وكثيراً ما أخذ الفتح الجوائز والاحسان منه . وبسط ياقوت الكلام في معجمه عن اتصال الجاحظ بالخليفة ووصلها بقصة رجل أراد شفاعة الجاحظ برسالته للقضاء على حاجته . ونحن نسمع القصة عن أبي العيناء محمد بن القاسم — من أصدقاء شيخنا — فهو يقول : وكان لي صديق . فجاءني يوماً فقال لي : أريد الخروج الى فلان العامل وأحببت ان يكون معي اليه وسيلة وقد سألت : من صديقه ؟ فقيل لي: ابو عثمان الجاحظ وهو صديقك ، وأحب ان تأخذ لي كتابه اليه بالعناية.قال : فصرت الى الجاحظ فقلت له :

— جئتك مسلّماً وقاضياً للحق ولي حاجة لبعض أصدقائي وهي كذا كذا. قال :

— لا تشغلنا الساعة عن المحادثة ؛ اذ كان في غدٍ وجهت اليك بالكتاب . فلما كان من غدٍ وجه اليّ بالكتاب فقلت لابني: وجّه هذا الكتاب الى فلان ففيه حاجته . فقال لي : ان أبا عثمان بعيد الغَوْرِ ، فينبغي ان نفضه وننظر ما فيه . ففعل فاذا في الكتاب « هذا الكتاب مع من لا أعرفه وقد كلّمني فيه من لا اوجبُ حَقّه . فان قضيت حاجته لم احمدك وان رددته لم اذمك » فلما قرأت الكتاب مضيت الى الجاحظ من فوري . فقال : يا ابا عبد الله ، قد علمت أنك أنكرت ما في الكتاب . فقلت : او ليس موضع نكرة ؟ فقال : لا ، هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به . فقلت :

— لا إله الا الله ، ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جبلت عليه من هذا الرجل علمت انه لما قرأ الكتاب قال :

— أم الجاحظ عشرة آلاف وعشرة آلاف قحبة وام من يسأله حاجة . فقلت له : ما هذا ؟ تشتم صديقنا ؟ فقال هذه علامتي فيمن أشكره[1] .

---

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٦١ .

بعدما اطلع الجاحظ على ما قاله الرجل الذي رجا شفاعته تعجب منه كل العجب ونقله بمناسبة في أثناء صحبته الى الفتح بن خاقان . ولعل الفتح تعجب أكثر من تعجب الجاحظ بهذه النكتة وحكاها للمتوكل الذي لم يلبث ان أمر باحضاره الى قصره . ويصرح الجاحظ بالقول « فلذلك كان سبب اتصالي بـه واحضاري الى مجلسه »(١) .

ولكن الخليفة لم يحظَ حظاً وافراً من ظرفه وأدبه ولم يلتفت اليه لدمامة خلقته وقبح صورته . ومرة استحضره المتوكل ليؤدب بعض ولده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه(٢) . وقد وردت روايات كثيرة تدل على قبح منظره ومن ذلك قول الشاعر(٣) :

لو يُمسَخ الخنزيرُ مسخاً ثانياً ما كان الا دون قُبح الجاحظ
رجُلٌ ينوب عن الجَحيمِ بنفسهِ وهو القذى في كل طرفٍ لاحِظ

نعم ! اكتسب الجاحظ صداقة الفتح واعتماده عليه حتى صار أكرم نديم له وجليس عنده ، ونشأت بينه وبين الجاحظ مودة قلبية لا يقدر قدرها . وهذه الرسالة التي كتبها الفتح بن خاقان من دار الخلافة ببغداد الى الجاحظ تعطي فكرة عن درجة الإخاء والمودة بينهما . ولا نبالـغ ان قلنا ان الفتح أكثر من عرف حق الجاحظ وقدر مكانه واسبغ عليـه نعمـه وعطاياه ، فهو يقول في رسالته الطويلة التي ذكر ياقوت هذا الجزء منها موجِّهاً الكلام الى الجاحظ :

« ان أمير المؤمنين يحدّبك ، ويهش عن ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان القرالي من هذا عنوانه فزدتك في نفسه

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٦٢ .
(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٩٦ .
(٣) راجع الجاحظ معلم العقل والأدب ص ١٧٥ .

زيادةً كفّ بها عن تجشيمك . فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنـة ، على كتاب الردّ على النصارى ، وافرغ منه وعجّل به اليّ ، وكن من جدا به على نفسه ، تنال من مشاهرتك . وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنةٍ كاملة مستقبلة . وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في بصيرة وغنّام، ولولا اني أزيد في تخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام»(١) .
ويذهب الاستاذ حسن السندوبي – مستنداً الى هذه الرسالة – الى ان الجاحظ كانت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة شهرياً ، وذلك فضلا عن المنح والعطايا والادرارات التي كانت تنهال عليه منها في المناسبات(٢) .

وأيضاً ان هـذه الرسالة تكشف لنـا القناع عن بعض الحقائق الدينية والتاريخية وهي أولاً : ان الجاحظ وضع بعض رسائله بتحريض الفتح وتشجيعه بحسب الظروف التي ساقته الى ان يكتب رسالة لغرض سياسي مستهدفاً مصالح الدولة ونفع المسلمين كما أشرنا اليه بصدد رسالته في مناقب الترك .

وثانياً : ان بعض رجال الأقلية ، خصوصاً اليهود والنصارى ، صاروا خطراً عظيماً يهددون الدولة ويضلون الناس ويفسدون اذهانهم بالباطل . واذعن الفتح الذي معظم الأمر بيده وهو الغالب على الخليفة بخطرهم اذعاناً تاماً ، وحرّض الجاحظ على الدفاع عن الاسلام وايقاظ المسلمين ضد هؤلاء المتغلبين المتنعمين من النصارى واليهود الذين يعيشون في ترف مـن الحيـاة في الممالك الاسلامية الواسعة .

ونحن لا نريد ان نبسط الكلام بل نقول بالاختصار : بعدما اتسعت المملكة الاسلامية بسلسلة من الفتوحات التي تمت على يد مجاهدي العرب ، كانت النصارى من أهم العناصر التي دخلت تحت راية الاسلام . والحقيقة ان علاقات المسلـمين بالنصارى ترجع الى أوائل عهـد الرسول . والقرآن سماهم « اهل الكتاب »

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٧٢ .
(٢) راجع أدب الجاحظ للسندوبي ص ٢٩ .

ووردت في القرآن والأحاديث أخبارهم وقصصهم ، وفضّلتهم الشريعة في بعض النواحي على الكفار والمشركين . واباحت للمسلمين الزواج بنسائهم وبناتهم وأكل لحومهم مما ذبحوا من الغنم والبقر وغير ذلك ، كما فصلها الفقهاء في كتبهم . وبفضل هذه الحرمة لعبت النصارى واليهود دوراً هاماً في المجتمع الاسلامي ، ومنهم من تولى المناصب الخطيرة في الدولة الاسلامية خاصة في زمن المأمون ، وبلغ نفوذهم من الاتساع حدّاً يهدد الاسلام ، وأخذوا يلْبِسون الباطل بالحق ويضلون عوام الناس ويعيثون في الأرض فساداً . وكان المسلمون يخشون خطر تعاليمهم عندما أطلقت حرية القول في عهد المأمون والخلفاء الذين جاؤوا من بعده وقد بلغ الخوف في عهد المتوكل الغاية كما يقول الجاحظ في كتابه[1] :

« اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة ، وتحدقوا المديني ولبسوا الملحم والمطبعة ، واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعليّ ، واكتنوا بذلك . فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم . وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية ، وانفوا مع اقتدارهم من دفعها ، وسبّوا من سبّهم وضربوا من ضربهم وما لا يفعلون وأكثر منه » .

وأراد الفتح بن خاقان ان يثير الناس عليهم وان يجهز المسلمين بالدلائل والحجج للدفاع عن دينهم ولذلك حرض الفتح أكبر رجل في الأدب واجل متكلم في الدين ان يحمل عليهم ويقمع فتنتهم . فكتب اليه رسالة طويلة — على ما فهمنا من الجاحظ وياقوت — عن هذه الحالة المزعجة وعللها بمكايد النصارى بين عوام المسلمين . ومع مرير الأسف لم تصل الينا رسالة الفتح بتمامها ، الا ان ياقوتاً ذكر جزءاً منها يتعلق بحياة الجاحظ التي أشرنا اليها آنفاً .

ولعل الجاحظ يقصد تلك الرسالة بهذه العبارة التي أتى بها في صدر كتابه

(١) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٧٠ .

في الرد على النصارى ، يقول[1] : « أما بعد فقد قرأت كتابكم وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب احداثكم وضعفائكم من اللبس ، والذي خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتم من اقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب » .

ونفهم من روايات الجاحظ ان الفتح بن خاقان كتب هذه الرسالة — او الكتاب — مضمناً اياها بعض أقاويل النصارى التي أفسدوا بها عوام الناس وفرقوا رأيهم . وذكر أيضاً تهمة النصارى بأن المسلمين يأخذون العلم والأخبار ممن لا يوثق به ؛ فمثلاً قالوا — كما أورده الفتح في رسالته — :

أولاً : ومما يدل على غلطكم — أي المسلمين — في الأخبار وأخذكم العلم عن غير الثقات، ان كتابكم — أي القرآن — ينطق ان فرعون قال لهامان : ابنِ لي صرحاً . وهامان لم يكن الا في زمن الفرس، وبعد زمن فرعون بدهرٍ طويل ! وان ذلك معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم ! وإنما اتخذ صرحاً ليكون اذا علاه أشرف على الله . وفرعون لا يخلو من ان يكون جاحداً لله تعالى او مُقِرّاً به ، فان كان دينه عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحده، فما وجه اتخاذ الصرح وطلب الاشراف ؟ وليس هناك شيء ولا إله وان كان مقرّاً بالله عارفاً به ، فلا يخلو من ان يكون مشبهاً او نافياً للتشبيه ، فان كان ممن ينفي الطول والعرض والعمق والحدود والجهات فما وجه طلبه له في مكان بعينه وهو عنده بكل مكان ؟ وان كان مشبهاً فقد علم انه ليس في طاقة بني آدم ان يبنوا بنياناً او يرفعوا صرحاً يخرق سبع سموات بأعماقهن والأجزاء التي بينهن حتى يحاذي العرش ثم يعلوه . وفرعون وان كان كافراً فلم يكن مجنوناً ولا كان الى نقص العقل منسوباً على ان الحكم قد يقوم بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية[2] .

(١) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٤٩ .
(٢) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٥١ .

ثانياً : انهم قالوا للمسلمين : تزعمون ان الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر انه لم يجعل له من قبل سمياً . وانهم يجدون في كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم انه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى ، منهم يوحنا بن فرح[١] .

ثالثاً : قالت النصارى : انكم ذكرتم ان الله قال في كتابه لنبيكم « وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون» وانما عنى بقوله أهل الذكر أهل التوراة . وأصحاب الكتب يقولون ان الله قد بعث من النساء نبيّات ، منهم مريم بنت عمران وبعث منهن حنة وسارة ورفقة[٢] .

رابعاً : قالت النصارى أيضاً : زعمتم ان عيسى تكلم في المهد ، ونحن على تقديمنا له وتقريبنا لأمره وافراطنا بزعمكم فيه على كثرة عددنا وتفاوت بلادنا واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه . وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلف ولا ادعاه منا مُدَّعٍ . ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك وتزعم انها لم تسمع به الا منكم . ولا تعرفه المجوس ولا الصابئون ولا عباد المدرة من الهند وغيرهم ولا الترك والخزر ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السالفة والقرون الماضية ولا في الانجيل ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على ألسنة الرسل ، ومثل هذا لا يجوز ان يجهله الولي والعدو وغير الولي وغير العدو ولا يضرب به مثل ولا يروج به الناس[٣] .

لقد أوجزنا الكلام في تحليل ما قاله الفتح في هذه الرسالة التي اقتبسنا بعض عباراتها من صدر كتاب الجاحظ . وأنت ترى من هذا كيف ان هؤلاء النصارى كانوا يحملون على المسلمين ويسعون لاضلالهم بتزويق الكلام الذي لا

(١) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٥٣ .
(٢) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٥٤ .
(٣) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرّد) ج ٢ : ص ١٥٥ .

أساس له عند أصحاب اليقين . وانت ترى أيضاً كيف انهم كانوا يتجاوزون حدودهم بقولهم في القرآن ان أخباره لا توافق الحق كما جاء في التوراة والانجيل.

اذن استعان الفتح بالجاحظ لدحض حجج هؤلاء المتغلبين من النصارى واليهود في المسائل التي ذكرناها آنفاً . وأجاب الجاحظ دعوته وامدّه بسيف قلمه وسهام كلماته وأعلن انه سيتكلم في جميع ما أورده الفتح وما لم يورده الفتح من مسائل النصارى ، مستنداً الى الشواهد الظاهرة والحجج القوية والأدلة الاضطرارية ، ثم يسأل بعد جوابه اياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم وانتشار مذهبهم وتهافت دينهم[١] . فحمل عليهم بمثل ما حملوا على عوام الناس بل اشد وأكثر وجرح حججهم وابطل دعوتهم حتى خلص الى القول[٢] :

« ان هذه الأمة لم تبتل باليهود والمجوس ولا الصابئين كما ابتُليت بالنصارى ، وذلك انهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عن عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة والملاعين،وحتى مع ذلك ربما تبرؤوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوي ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى انه متكلم وانه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد. وبعد ، فلولا متكلمو النصارى واطباؤهم ومنجموهم ما صار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجّاننا واحداثنا شيء من كتب المانية والديصانية والمرقوبية والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلعم) ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، مخبّأة في أيدي ورثتها ، فكل سُخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قِبَلهم كان أولها . وانت اذا سمعت كلامهم في العفو والصفح وذكرهم للسياحة وزرايتهم على كل من أكل اللحمان ورغبتهم في أكل

(١) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرد) ج ٢ : ص ١٥٨ .
(٢) راجع كتاب الرد على النصارى (على هامش الكامل للمبرد) ج ٢ : ص ١٧٤ .

الحبوب وترك الحيوان وترهبهم في النكاح وطلب النسل وتعظيمهم الرؤساء علمت ان بين دينهم وبين الزندقة نسباً وانهم يحنون الى ذلك المذهب » .

***

فهذا كله يدلنا دلالة واضحة على مكانة الجاحظ عند الفتح بن خاقان ، انما يبقى لنا سؤال هام عن مكانة الفتح في نفس الجاحظ ؟

وليس من الصعب الاجابة عن هذا السؤال لكل من يعرف الفتح بن خاقان والجاحظ رجلين بعيدين عن العصبية القومية التي سقم بها كثير من المؤلفين المحدثين . نعم ! كان الجاحظ يعرف منزلة سيده ويقدره حق قدره ويشكره من صميم قلبه . ولذلك كتب الجاحظ رسالته الفريدة « فضائل الاتراك » وقدمها اليه وجعلها آية لما في قلبه من الود والمحبة للفتح بن خاقان كما أشرنا اليه آنفاً .

ولم يكتف الجاحظ برسالته الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة بل ألف كتاباً مشهوراً آخر ، هذا الكتاب كما قال ابراهيم الزين : وضعه الجاحظ أيام كانت بغداد دار السلام وقبة الاسلام ومركز الخلافة وجنة الارض وقطب العالم ومعدن الظرائف ومنشأ أرباب الغايات ... هذا الكتاب قد جعله الجاحظ مرآة تتجلى فيها مشاهد الخلفاء والأكابر في حفلاتهم الرسميّة وحشودهم العلمية الى ما هناك من طريق ملوكية وترتيبات سياسية اقتبس العرب بعضها من الفرس حينما دالت دولة الاسلام[1] . هذا الكتاب هو كتاب التاج في اخلاق الملوك .

ولقد قدمه الجاحظ بقوله[2] : « رأينا ان نخص بوضع كتابنا هذا « الأمير الفتح بن خاقان » مولى أمير المؤمنين اذ كان بالحكمة مشغوفاً ، وعلى طلبها

(١) راجع مقدمة كتاب التاج في اخلاق الملوك للجاحظ .
(٢) راجع كتاب التاج في اخلاق الملوك للجاحظ ص ٣٥ .

مثابراً ، وفيها وفي أهلها راغباً ، ليبقى له ذكره ، ويحيا به اسمه ، ما بقي الضياء والظلام ، وبالله التوفيق والاعانة » ثم ان هذه العبارة التي أتى بها في نهاية الكتاب تفصح لنا عن نهاية الحب والاخلاص[1] :

« واذا قد انتهينا الى هذا الموضع من كتابنا وأخبرنا باخلاق الملوك في أنفسنا وما يجب على رعاياها لها بقدر وُسع طاقتنا فلنختم كتابنا هذا بذكر من بعثنا على نظمه وكان مفتاحاً لتأليفه او جمعه ولنقل :

انا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية ولا في تاريخها وأيامها الى هذه الغاية فتى اجتمعت له فضائل الملوك وآدابها ومكارمها ومناقبها فحاز الولاء من هاشم والخصيصى من خلفاء بني العباس الطيبين والتبني من المعتصم بالله واخوته الأبرار من ائمة المؤمنين وورثة خاتم النبيين عدا الامير « الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين » . فلتهنه هذه النعمة المهداة وبارك له واهبها وزاد اليها الدأب عليها حتى يبلغ به أرفع يفاعها ، وأسنى ذروتها ، وأعلى درجتها ، في طول من العمر ، وسلامة من عوادي الزمان وغيره ونكباته ، فانه رحيم كريم » .

فبعد ان اتضحت لنا الصلة بين الفتح والجاحظ لا نتعجب اذا اختار الفتح ابن خاقان الجاحظ رفيقاً عزيزاً في طريقه الى الشام في أثناء سفره في سنة (٢٤٣ — ٢٤٤) في عهد وزارته للمتوكل . وبهذا سنحت الفرصة للجاحظ لزيارة انطاكية وربما وصل الى مصر . فزادته الاسفار في الآفاق اطلاعاً وسعة معرفة . وربما نجده يتحدث في مؤلفاته عما لاقاه في هذا السفر من عناء وعبرة لا تخلو من فكاهة وطرافة[2] .

(١) راجع كتاب التاج في اخلاق الملوك للجاحظ ص ٣٠٢ .
(٢) انظر مثلا : كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ : ص ٣٧٣ .

اواخر أيام الجاحظ

وبعدما سطع نوره في البصرة وبغداد وسامرّاء اختفى هذا النجم اللامع من أوساط الأدباء وقصور الأمراء الى ان أصيب بفالج نصفي . وكان ابتداء مرض الجاحظ في أواخر عهد الخليفة المتوكل على الله في سنة ٢٤٧هـ . في سامراء ثم عاد الى البصرة .

ولم تنقطع الصلة بين الجاحظ والفتح بن خاقان بل طلب الفتح عودة صديقه من البصرة الى بغداد . وكان من الصعب لرجل مثل الجاحظ وقد أصابه الفالج ان يجيب دعوة صديقه القديم . وفي خبر يموت بن المزرّع ان المتوكل في السنة التي قتل فيها وجه الى الجاحظ ان يُحمل اليه من البصرة وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ، فوجده لا فضل فيه فقال لمن أراد حمله : «ما يصنع بأمرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؟ »

ومن الممكن ان الفتح بن خاقان لم يطمئن لجواب الجاحظ بل عزم على حمله اليه لولا ان وقعت هناك حادثة قتل الفتح بن خاقان والمتوكل كليهما بأيدي الشاغبين الذين ثاروا في عاصمة الخلافة في سنة ٢٤٨هـ نتيجة لجفاء المتوكل للموالي — أي الاتراك — وتصرفه بغير حق وعزله بعض قواد الاتراك وفتكه بالبعض الآخر وأمره بمصادرة أموالهم بإيعاز من الفتح . ولعل الجاحظ قال بعدما بلغ اليه هذا الخبر الأليم :

وكان لنا أصدِقاء مَضَوا   وأعداءُ سوء فلم يخلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنون   فمات الصديقُ ومات العَدُوُّ

وأفل نجم الجاحظ تماماً بعدما قتل الفتح بن خاقان . وأخذ يعيش في ضنك من

العيش وضيق من الحياة . وفي خبر بعض البرامكة انه قال : كنت تقلدت السند فأقمت بها وكسبت ثلاثين ألف دينار . فصنعته عشرة آلاف إهليلجة في كل إهليلجة ثلاثة مناقيل . فركبت البحر وانحدرت الى البصرة فخبرت ان الجاحظ بها وانه عليل بالفالج فأحببت ان أراه قبل وفاته . فصرت اليه فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت إليّ خادم صفراء فقالت : من أنت ؟ قلت : رجل غريب وأحب ان أسر بالنظر الى الشيخ . فبلغته الخادم ما قلت ، فسمعته يقول : قولي له : ما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ وقلت للجارية : لا بد من الوصول اليه . ثم اذن لي فدخلت وسلمت عليه وقال : من تكون اعزّك الله ؟ فانتسبت له ، فقال :

— رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الاجواد، فلقد كانت أيامهم رياض الازمنة ولقد انجبر بهم خلق كثير فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : أنا أسألك ان تنشدني شيئاً من شعرك فأنشدني :

لئن قُدِّمتْ قبلي رجالٌ فطالما   مشيتُ على رِسْلي فكنت المقدَّما
ولكنّ هذا الدهرَ تأتي صُروفه   فتُبْرمُ منقوضاً وتنقض مُبرما

ثم نهضت فلما قاربت الى الدهليز قال : يا فتى أرأيت مفلوجاً ينفعه الاهليلج ؟ قلت له : لا ! قال :

— فان الاهليلج الذي معك ينفعني فابعث لي منه . فقلت : نعم. وخرجت متعجباً من وقوعه على خبري مع كتماني له وبعثت له مائة أهليلجة[1] .

وأخذ هذا الخبر المؤسف ينتشر بين العلماء والأدباء وسارع الناس الى زيارة الجاحظ ، ومن جملتهم المبرد — صاحب الكامل — وهو يقول : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه . فقلت له كيف انت ؟ فقال :

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ١٤٠ — ١٤٤ .

— كيف يكون مَن نصفه مفلوج لو حُزّ بالمناشير ما يشعر به ونصفه الآخر مُنقرس لو طار الذباب لآلمه . وأشد ما عليّ ستة وتسعون سنة انا فيها . ثم انشدنا[١] :

أترجو ان تكون وانت شيخٌ كما قد كنت أيام الشبابِ
لقد كذبتك نفسُك ليس ثوبٌ دَريسٌ كالجديدِ من الثيابِ

وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الايسر لو قرض بالمقاريض لما أحسّ به من خدَرِه وشدة برده .

وأخذ ذلك المصباح المنير يخبو شيئاً فشيئاً . ويقول أبو طاهر الذي زار الجاحظ في أواخر أيامه : صرت الى الجاحظ ومعي جماعة . وقد اسنّ واعتلّ في آخر عمره وهو في منظرة له وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب ، فلم يفتح لنا وأشرف من المنظرة وقال :

— الا اني قد حوقلت وحملت رُميح أبي سعد وسقت الغنم فما تصنعون بي ؟ سلموا سلام الوداع ، فسلمنا وانصرفنا . كذلك كثير من المعجبين بالجاحظ سلّموا سلام الوداع وانصرفوا . وقد ظلّ مفلوجاً ثمانية أعوام مجرّمة من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٥٥ هـ ومات في شهر المحرم بالبصرة وقد نيف على تسعين سنة رحمه الله رحمة واسعة[٢] .

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ : ص ١٤٢ .
(٢) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٧٩ .

الباب الثاني

الكلام في فضائل الاتراك مقتطفة من كتب الجاحظ

لا يخفى علينا ان الجاحظ قد اشتهر بين فحول العلماء وكبار الأدباء بسعة صدره واحاطة بصره وتبحر معرفته التي بلغ بها الى اقاصي الدرجات في مختلف العلوم والفنون . وقلما يوجد رجلٌ في العالم مثل الجاحظ الذي ألف كتاباً مستقلاً او رسائل متعددة لكل مسئلة من المسائل التي واجهت الحياة الاجتماعية في عهده ، هذا فضلاً عن مؤلفاته الموسوعية في حقولٍ شتى . ولذلك يقول المسعودي[١] : « ولا يعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه » . وقد ترك الجاحظ ٣٦٠ مؤلفاً في ألوانٍ شتى من المعرفة رآها سبط ابن الجوزي كلها تقريباً في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد وان كان لم يذكر لنا شيئاً من أسمائها في كتابه مرآة الزمان[٢] .

وقد ذكر اسماعيل باشا البغدادي في كتابه نحو « ٧٤ » كتاباً من مؤلفاته المشهورة[٣] وذكر ياقوت — صاحب المعجمين — فهرست كتبه ورسائله فأثبت

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٣٤٤ .
(٢) راجع التاج في اخلاق الملوك للجاحظ ص ١٩ .
(٣) راجع هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ج ١ : ص ٨٠٣ .

منها ١٢٨ مصنفاً[1] . وكتب الجاحظ في حقول الأدب ، والفلسفة ، والدين ، والاجتماع ، والأخلاق ، والنباتات وغير ذلك . ولم يهمل التاريخ والسياسة أيضاً ومن أبرز ما جاء الينا في هذا الباب كتابه في فضائل الاتراك .

أما الميزة الخاصة التي انفرد بها الجاحظ فهي ملاحظته الدقيقة لخصائص الأجناس والأقوام وتعليلها بالظروف الطبعية والاجتماعية التي تحيط بها ثم تقدير ما يمكن ان يكون لها من أثر محمود – اذا اتسقت وائتلفت – في خدمة الاسلام وتقوية الجيش والادارة الحكومية . اذن هو من الكتاب الذين أبوا الانزواء في برجهم العاجي وبرزوا الى ميدان العمل لاصلاح أحوال المجتمع والادارة الحكومية بالاشتراك مع أولي الأمور أمثال الفتح بن خاقان .

وضع الجاحظ كتابه في فضائل الاتراك في عهد المعتصم على أثر مجيء الاتراك الى بغداد وبمناسبة دخولهم في جيش الخليفة وتجنيدهم بجانب العناصر الأخرى من العرب والفرس . وهو يشير الى هذا في مبدإ كتابه فيقول : « هذا كتاب كنت كتبته في أيام المعتصم بالله »[2] وبيّن هنا مناقب الاتراك على ما بلغ اليه من الأخبار والآثار وأراد ذلك « ان يكون كتاباً قصداً ومذهباً عدلاً ولا يكون كتاب اسرافٍ في مديح قومٍ واغراقٍ في هجاء آخرين . وان كان الكتاب كذلك شابه الكذب وخالطه التزيد وبني أساسه على التكلف وخرج كلامه مخرج الاستكراه . وانفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح وابقاها أثراً وأحسنها ذكراً ان يكون المديح صدقاً، وللظاهر من حال الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتى لا يكون من المعبِّر عنه والواصف له الا الاشارة اليه والتنبيه عليه »[3] .

والحقيقة ان الجاحظ كان من المتحمسين لاقامة الاتراك ركناً قوياً بين أركان

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٧٥ ، ٧٨ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٦ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٦ .

جنود الخلافة في عهد المعتصم . والطريق الى ذلك على ما ذهب اليه الجاحظ ان يكتب كتاباً يبيّن فيه مناقب الاتراك التي تتعلق بالبطولة والشجاعة والنجدة والفروسية والحروب والمقاتلة ، ويقدمه الى الخليفة تأييداً لرأيه ، وتقوية لعزمه مع تعبئة الرأي العام حول الموضوع ، كما يفعل الصحفيون في زماننا هذا بصدد التغييرات التي تطرأ على السياسة والادارة من حين الى حين .

كتب الجاحظ كتابه وذكر فضائل الاتراك وخصالهم التي عرفوا بها بين الناس في المجتمع الاسلامي ، ومع ذلك لم يهمل مزايا سائر الأجناد بدون التعرض لمثالبهم وعيوبهم حتى يمكن للقارىء الحكم بأن الاتراك ليسوا أقل شأناً منهم في في الجندية والحروب والشدة والطعن والرمي . ويبدو منهجه واضحاً في قوله : « ان كان لا يمكن ذلك في مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الاجناد فترك ذكر الجميع اصوب والاضراب عن هذا الكتاب احزم . وذكر الكثير من هذه الأصناف بالجميل لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح لان ذكر الأكثر بالجميل نافلة وباب من التطوع وذكر الأقل بالقبيح معصية وباب من ترك الواجب . وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب ، وانما تتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فاما الاشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوي : دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف . فاذا كان الخلطاء من جمهور الناس وأصحاب المعايش من دهماء الجماعة يرون ذلك واجباً وتدبيراً في التعامل على ما هم فيه من مشاركة الخطإ للصواب وامتزاج الضّعف بالقوة ... »[1] .

فلما انتهى الجاحظ من الكتاب أراد ان يقدمه الى الخليفة المعتصم بالله لكي يمكن وصوله بهذه الطريق الى أيدي الأمراء والوزراء وكبار الناس في عاصمة الخلافة . ولكن مع مرير الأسف لم يصل الكتاب الى المعتصم – كما أخبر الجاحظ

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٩ .

نفسه بذلك في مقدمته – وآثر هو السكوت عن أسباب ذلك وقال: « لم أعرض للاخبار عنها »[١] . الا أن في وسعنا ان نستشف بعض تلك الأسباب من خلال الروايات التي وردت الينا بصدد اشتعال نار العداوة والعصبية القومية ضد الاتراك في عهد المعتصم . فمن المؤكد انه : لما قدم الاتراك الى بغداد حسدهم بعض الناس ولا سيما الذين كانوا يشغلون المناصب العالية من الأمراء والوزراء والقوّاد ومن تبعهم من الجنود وعوام الناس حتى أصبحوا لا يرون بأساً من قتل الاتراك حتى في بيوتهم وابعادهم عن ديارهم . ويقول الطبري في سبب خروج المعتصم الى القاطول[٢] : « ان غلمانه الاتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها » فاذا ركب الاتراك دوابهم « فيأخذهم الأبناء فينكّسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم »[٣] . ولذلك اضطر المعتصم ان يترك بغداد من حسد هؤلاء لئلا تقع فتنة حتى قال لوزيره : « اشتر لي بناحية سامرّاء موضعاً ابني فيه مدينة فاني أتخوّف ان يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني – أي الاتراك – »[٤] .

فرواية الطبري هذه تعيننا على تصوّر الجوّ السياسي المعادي للاتراك الذي ساد بغداد ونفذ بين طبقات المجتمع الى ان كادت الفتنة تقع بين الكتلتين . فتصوّر مثل هذا الجوّ الخانق هل يترك مجالاً للجاحظ ان يظهر رأيه ويبين أفكاره ويقدم كتابه الى الخليفة لإقناعه بخلاف الرأي العام ؟ هل يأمن اذا فعل ذلك جانب أسياده من العرب الذين اجتمعوا حول المعتصم وتعصبوا لقوميتهم أكثر من النظر في مصالح الدولة برجاحة عقل ورحابة صدر ؟ فمن الطبيعي ان ينصرف الجاحظ عن فكرة نشر الكتاب ولعله أبقاه طيّ الكتمان في انتظار فرصة صالحة لابرازه .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٦ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .
(٣) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .
(٤) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣١١ .

وبمرور الأيام ازداد نفوذ الاتراك وارتفع سلطانهم في الدولة . ولما جاء عهد المتوكل بلغت سطوة الترك أوجها وكثير منهم تولّوا المناصب العالية في الجيش والحكومة مثل الفتح بن خاقان وابراهيم بن العباس وغيرهم من كبار الاتراك . وبازدياد نفوذ الاتراك الف الناس التعايش مع الأقوام المختلفة والكلام في مزاياها في انديتهم الخاصة والعامة . وأصبحوا يعددون مزايا الفرق ويفضلون بعضهم على بعض كما يقول الجاحظ : « ان رجلاً من عُرض تلك الجماعة ومن حاشية تلك الجلّة ارتجل الكلام ارتجالَ مستبدٍّ وتفرّد به تَفَرُّدَ مُعجبٍ . وانه لم يستأمر زعماءَهم ولم يراقب خطباءهم وانه تعسَّفَ المعاني وتهجم على الألفاظ وزعم ان جند الخلافة اليوم على خمسة أقسامٍ : خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبنوي »[١] .

ثم ان « هذا المتكلم المستبدّ وهذا القائل المتكلّف الذي قسم هذه الأقسام وخالف بين هذه الأركان وفضل بين انسابهم وفرق بين أجناسهم وباعد بين أسبابهم »[٢] ، « أراد الفرقة والتخريب »[٣] بدلاً من الألفة والتقريب . وفضلاً عن ذلك « ذكر جملاً من مفاخرة الأجناس وجمهرة من مناقب هذه الأصناف وانه جمع ذلك وفصّله وفسّره وانه ألغى ذكر الاتراك فلم يعرض لهم وأضربَ عنهم صفحاً ، يُخبرُ عنهم كما أخبر عن حُجّة كل جيل وعن برهان كل صنف »[٤] فمثلاً ذكر ان الخراساني يقول :

« نحن النقباء .. ونحن النجباء .. ومنا الدعاة .. وبنا زال ملك أعدائنا عن مستقره وثبت ملك أوليائنا في نصابه .. ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد وابدنا العدو بكل واد . ونحن أهل هذه الدولة وأصحاب هذه الدعوة ومنبت

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٨ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٩ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ١٣ .
(٤) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ١٤ .

هذه الشجرة...والانصار انصاران: الأوس والخزرج نصروا النبي (صلعم) في أول الزمان وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان...ثم نحن على وتيرة واحدة نعرف بالشيعة وندين بالطاعة ونحن أصحاب الرايات السود والروايات الصحيحة فلنا خير جند لخير امام فصدّقنا ظنه وأثبتنا رأيه .. ونحن أكثر مادة وأكثر عدداً وعدّة ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا مَن وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد . ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق الا لقلب الدُّول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان .. ونحن أصحاب اللِّحى وأرباب النهي .. وأهل الثَّخانة في الرأي والبعد من الطيش . ولسنا كجند الشام المتعرضين للحرم والمنتهكين لكل محرم .. ونحن أصحاب التجافيف والأجراس .. ولنا حسن الجلسة على ظهور الخيل ولنا الأصوات التي تسقط منها الحَبالى .. ولنا صنعة السلاح من لبدٍ وركابٍ ودرعٍ . ولنا مما جعلناه رياضة وتمريناً وارهاصاً للحرب وتثقيفاً ودُرْبةً للمجاولة والمشاولة وللكرّ بعد الفرّ مثل الدابوق والنزو على الخيل صغاراً ، ومثل الطبطاب والصَّوالجة الكبار ، ثم رمي المجثمة والبرجاس والطائر الخطاف . فنحن أحق بالأثرة وأولى بشرف المنزلة »[1] .

والعربي يدّعي :

« ان القربى تستحق بالاسباب الثابتة وبالأرحام الشابكة وبالقِدمة والطاعة للآباء والعشيرة وبالشكر النافع والمديح الكافي بالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر ويلوح ما لاح نجم ، وبالكلام المنثور والقو المأثور ، او بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، اذ لم يكن ذلك من عادة العجم ولا كان يُحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفّى ونصلها بحفظ الأميّين الذين لا يتّكلون على الكتب المدوّنة والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التّفاخر والتنافر والتنازع في الشرف والتحاكم الى كل حكم مقنع وكامنٍ سجّاعٍ ولنا التعايرُ بالمثالب والتفاخر بالمناقب . ونحن احفظ

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ١٤ – ٢١ .

لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمنثور المرسل بعد الموزون المعدّل بلسانٍ أمضى من السنان ، وأرهف من السيف الحُسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمُه وعفا أثره .. وهل أكثر النقباء الا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب؟ »[1] اذن فنحن – أصحاب هذه الخصال الممدوحة – احق بالاثرة وأولى بشرف المنزلة .

والموالي من فرق الجنود يحتجّون بقولهم :

« لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة . ونحن موضع الثقة عند الشدة .. وبعد فالولاء لحمة كلحمة النّسب . فقد صار لنا النسب الذي يصوّبه العربي . ولنا الأصل الذي يفتخر به العجميّ ... والصبر ضروب فاكرمها كلها الصبر على افشاء السرّ . وللموالي في هذه المكرمة ما ليس لأحد .. ونحن أخصّ مدخلاً ، وألطف في الخدمة مسلكاً، ولنا مع الطاعة والخدمة والاخلاص وحسن النية .. خدمة الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد وهو بمواليهم آنس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم اسرّ .. فلنا مناقب الخراسانية ولنا مناقب الموالي في هذه الدعوة ونحن منهم وإليهم ومن أنفسهم لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن.. خدمناهم كباراً وحملناهم على عواتقنا صغاراً .. فقد شاركنا العربي في فخره ، والخراساني في مجده ، والبنوي في فضله ، ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا إليه .. ونحن اشكل بالرعيّة ، وأقرب الى طباع الدّهماء ... وهم بنا آنس ، والينا أسكن ، والى لقائنا أحنّ .. ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشبه.. فمن أحق بالأثرة وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له وهذه الخلال فيه ؟»[2] .

والبنوي يهتف بين الجنود :

« أنا أصلي خراسان : وهي مخرج الدوّلة ، ومطلع الدعوة ، ومنها نجم هذا

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٣ – ٢٥ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٣ – ٢٥ .

القرن .. وطبّق الآفاق بضيائـه فابرأ من السُّقم القـديم ، وشفى من الداء العُضال .. وفرعي بغداد ، وهي مستقرّ الخلافة .. وفيها بقية رجال الدعوة وأبناء الشيعة .. وانا أعرق في هـذا الأمر من أبي ، وأكثر تردّداً فيـه من جدّي ، وأحقّ في هذا الفضل من المولى والعربي .. ولنا بعد في أنفسنا ما لا يُنكر من الصبر تحت ظِلال السيوفِ والرّماح .. ولنا معانقة الأبطال عنـد تحطّم القناع وانقطاع الصفائح .. ونحن حماة المُستلحم وأبناء المضايق .. ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحيرة .. ونحن أصحاب الفتك والاقدام .. ولنا بعدُ التسلّق ونقب المدن اذا طار قلب الاعرابي وساء ظنّ الخراساني .. ولنا القتال عند أبواب الخنادق ورؤوس القناطر .. ونحن الموت الأحمر عند أبواب النُّقب..ولنا المواجأة في الازقة والصبر على قتال السّجون .. ونحن أصحاب القنا الطّوال ما كنا رجّالة .. والمطارِد القصار ما كنا فرساناً فان صرنا كمُناً فالحتفُ القاضي والسمّ الذُّعاف .. واذ كنا طلائع فكلنا يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار .. ولنـا بغداد بأسرها تسكن ماسكنّا وتتحرّك ما تحرّكنا .. والدنيا كلها معلّقة بها وصائرة الى معناها .. ونحن بعد تربية الخلفاء ، وجيران الوزراء ، ولدنا في افنية ملوكنا ، ونحن اجنحةُ خلفائنا ، فاخذنا بآثارهم ، واحتذينا على مثالهم .. فلسنا نعرفُ سواهم ، ولا نُعرفَ بغيرهم .. ولا يطمع فينا أحد قطّ من خُطّاب ملكهم وممن يترَشّحُ للاعتراض عليهم .. فمن أحقُّ بالأثرة وأولى بالقرب في المنزلة ممن هذه الخصالُ فيه وهذه الخلال له ؟»(١) .

فهذه المقتطفات من ادعاءات الفرق المختلفة تؤكد لنا روح العصبية والتفاخر بالحسب والنسب بين طوائف الجنود في هذا العصر . فقد كان كل عنصر من عناصر الاجناد يعدّد خصاله ويعلن فضائله ويتحدى انـه أعرقهم وانسبهم وأشرفهم ويدعي انه أحق بالاثرة وأولى بحسن المنزلة . وهذا التنافس تلـوّن

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ص ٢٥ — ٢٨ .

بالعصبية القومية واشتد بدخول الاتراك في جيش الخليفة .

ولم يجد الاتراك من يدافع عنهم ويسجل مزاياهم ، لذلك بادر الفتح بن خاقان – وزير المتوكل – الى اثبات حق الاتراك واعطائهم المكانة اللائقة بهم تحقيقاً للتوازن بين العناصر المختلفة ، وتمهيداً للقضاء على العصبيات وصهرها جميعاً في بوتقة واحدة لصالح الجيش والخلافة . فرفض الفتح بن خاقان تقسيم الجنود عربياً وخراسانياً ، وحاول ان يسدد دعاياتهم المضرة وقذعهم أشد القذع ، وأنكر التباعد في النسب والتباين في السبب للذين يعيشون تحت راية الدولة ، خاصة الجنود منهم . وعلى ما ذهب اليه الفتح بن خاقان :

ان الخراساني والتركي اخوان وان الحيّز واحد . وان حكم ذلك الشرق والقضية على ذلك الصّقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت ؛ بناء على ذلك الأساس : ان اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بـين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي فضلاً عما هو أبعد جوهراً وأشد خلافاً .. بل كالاختلاف ما بين المكي والمدني والبدوي والحضري – ولو فرضنا ان هذين المكي والمدني – وان اختلفوا في بعض اللغة وفارق بعضهم بعضاً في الصورة والشمائل والأخلاق – فكلهم مع ذلك عربي خالص غير مشوب. – بناء على ذلك – ان البنويّ خراساني وان نسب الأبناء نسب آبائهم ، وان حُسن صنيع الآباء وقديم فعال الاجداد هو حسب الأبناء ، وان الموالي بالعرب أشبه وإليهم أقرب وبهم أمسُّ لأن السنّة جعلتهم منهم .. ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنهم عربٌ في المدّعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة وهذا تأويل قوله « مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب » وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم .

واذا نقلنا الكلام الى الاتراك – ان الاتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب وصاروا من العرب بهذا السبب مع الذي بانوا به من الخلال، وحُبوا به من شرف الخصال . على ان ولاء الاتراك للُباب قريش ولِمُصاص عبد مناف

وهم في سرّ بني هاشم ، وهاشم موضع العذار من خدّ الفرس والعقد من لبّـةِ الكاعب والجوهر المكنون وموضع المحّة من البيضة والعين في الرأس والروح من البدن – ولذلك – فقـد شاركوا – أي الاتراك – العرب في انسابهم ، والموالي في أسبابهم ، وفضلوهم بهذا الفضل الذي لا يبلغه فضل وان برع ، بـل لا يَعْشره شرف وان عظم ، ولا مَجْدٌ وان قَـدُم[1] . ويخلص الفتح بن خاقان الى القول « بان انساب الجميع متقاربة غير متباعدة وعلى حسب ذلك التقارب تكون الموازرة والمكانفـة والطاعة والمناصحة والمحبـة للخلفـاء والائمة »[2] .

وهكذا حاول الفتح بن خاقان ان يخمد نار العصبية التي انتشرت بين الجنود واججها بعض رجال البلاط حتى صارت أعظم خطر تهدد الدولة بأساسها . ومن الطبيعي لرجل مثل الجاحظ حيث هو مستشاره ومعاونه ان يسلّ سيف قلمه للقضاء على هذه الحالة المزعجة ، كما سارع الى امداده من قبل في كثير من المشكلات التي واجهت الدولة في عصرهما كفتنة النصارى الذين اضلوا الناس بغير حق وأفسدوا عقولهم بتصوير الباطل حقاً(*) .

اذن أمسك الجاحظ قلمه لإلغاء شأن هؤلاء الذين يتعصّبون للقوميـة ويشيدون بها في ميدان الفكر . وبسط لسانه لذكر وجوه تفوق الجنود، وبيّن أيضاً فضائل الاتراك « لان الله تعالى لم يعلّم الناس ليكونوا عالمين دون ان يكونوا عاملين بل علـّمهم ليعملوا وبيّن لهم ليتقوا التورّط في وسط الخوف والوقوع في المضار والتوسّط في المهالك . فلذلك طلب الناس التبيُّن وحبّ السلامة من الهلكة والرغبة في المنفعة احتملوا ثقـل العـلم وتعجلوا مكروه المعافاة »[3] .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٩ – ١٤ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ١٤ .
(*) أعني به كتاب الرد على النصارى ؛ انظر بالتفصيل حياة الجاحظ بين الاتراك ، للمؤلف .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٥ .

ويبدو لنا ان الجاحظ أعاد النظر في كتابه – بعدما انقضى عهد المعتصم – بمقتضى الظروف السياسية والاجتماعية (ان لم يكتبـه مرة أخرى) وصدره بمقدمة ضافية ثم قدمه الى الفتح بن خاقان ودعا الجنود به الى توحيد القلوب فهو يقول :

« وكتابنا هذا انما تكلـّفناه لنؤلـّف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الألفة ان كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا يغيّر بعضهم مغيّرة ، ولا يفسده عدوّ بأباطيل مموّهة ، وشُبُهات مزوّرة . فان المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصوّر لهم الباطل في صورة الحق ، ويُلبس الاضاعة ثيـاب الحزم . الا انا على كل حـال سنذكر جملاً من أحاديث رويناها ووعيناها ، وأمور رأيناهـا ، وفضائل تلقّفناها من أفواه الرجال وسمعناها ، وسنذكر جميع ما في هذه الاصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيهم لها أشدّ استعمالاً ، وبها أشد استقلالاً ، ومن اثقبُ كيساً وافتح عيناً ، واذكى يقيناً ، وأبعد غوراً ، واجمع أمراً ، وأعمُّ خواطر ، وأكثر غرائِبَ ، وأبدع طريقاً ، وادومُ نفعاً في الحروب ، وأضرى وادربُ دُربة ، وأغمضُ مكيدة ، وأشد احتراساً ، والطف احتيالاً ، حتى يكون الخيار في يد الناظر المتصفح لمعانيه ، والمقلـّب لوجوهه ، والمفكـّر في أبوابه ، والمقابل بين أوله وآخره فـلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض على بعض بل لعلنا ان لا نخبر عن خاصة ما عندنا بحرفٍ واحدٍ »[1] .

نعم ! هذا ما فعله الجاحظ في تأليف كتابه ، ولهذا بيّن مناقب الاتراك ولم يتبع سبيل أصحـاب الخصومات في كتبهم وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف بينهم لأنه يعتقد « واذا عرف سائر الاجناد ذلك ساحت النـّفوس ،

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٩ .

وذهب التّعقيد ، ومات الضّغن ، وانقطع سبب الاستثقال ، فلم يبق الا التّحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة »[١] .

وبعد هذا فكم من المؤلفين المحدثين اتهموا الجاحظ رغم اقراره انه « كان أبعد له من مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى »[٢] بالرياء والتملق والمداراة . فمثلا احمد أمين يقول : « ولكنه – أي الجاحظ – بسط مناقب الترك وبالغ في اعلاء شأنهم واسبغ عليهم بقلمه السيّال وأسلوبه الواسع عظمة وابهة تكفيان في اشعار القارىء ان الترك أعظم جند واشجع قوم ؛ فهو بهذا الاسلوب الماكر رفع من شأن الترك ووضع من غيرهم تحت ستار الدعوة الى الألفة »[٣] . ولم يكتف احمد أمين بهذا القدر حتى زاد قوله : « فكتب الجاحظ رسالته في ذلك وحكى فيها بعض أقوال الفتح ؛ وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته في اعلاء شأن الترك تقرّباً لذوي النفوذ واظهاراً لمزيته البلاغية بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد »[٤] .

أوليس الجاحظ صريحاً في دعوته للجنود الى الوحدة مع اختلاف انسابهم وألوانهم تحت لواء الاسلام والطاعة للخليفة ؟ غير ان احمد أمين يفنّد دعوته ويقول : « والدين نفسه لم يستطع ان يمحو هذه العصبية ! »[٥] كأن الاسلام لم يسعه الا الاستسلام للعصبية . ولم يجدر بالجاحظ والفتح الا التورّط بأنفسهما فيها في حين كان القواد يتحينون الفرص لأخذ الثأر من رفقائهم من الأمم الأخرى والوزراء والأمراء .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٤ .
(٢) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٣٠ .
(٣) راجع ظهر الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ١٥ .
(٤) راجع ظهر الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ١٤ .
(٥) راجع ظهر الاسلام ، احمد امين ج ١ : ص ١٩ .

أوليس عجيف بن عنبسة – ذلك القائد العربي – دبّر مؤامرة لقتل المعتصم ومن حوله من الاتراك ؟ ثم ما هو سبب قتل المعتصم العبّاس بن المأمون ؟ ولِمَ غضبَ المعتصم على الأفشين التركي قائد جيوشه وسيف انتصاراته بعد ان سبقت خدمته في الدولة منذ أوائل عهد المأمون ثم قتله وصلبه وأحرق جثته ؟

أولا يجدر بنا ان نتساءل : اذا لم تكن العصبية القومية سبباً لهذه القلاقل والفتن والاضطرابات والمؤامرات والمناوشات والمشاغبات التي أدت الى قتل كثير من نخبة القواد وكبار رجال الدولة منذ أوائل عهد المعتصم وأيام المتوكل فما بعدها ، فما هو السبب الآخر ؟ ثم هل من شأن رجلٍ مسؤول عن أمور الدولة من الأمن والصلح ان يغض بصره لأن الدين – كما قال احمد أمين – لم يستطع ان يمحو هذه العصبية ؟

ومن ناحية أخرى : لو فرضنا ان الجاحظ كتب رسالته في مناقب الترك بأسلوبه الماكر لاعلاء شأن الترك تقرباً لذوي النفوذ واظهاراً لمزيته البلاغية ، وكتب الجاحظ أيضاً رسالة طويلة بأسلوب جاحظي فيه حلاوة وعليه طلاوة يتلذذ بها من له حظ في الأدب وهي « فخر السودان على البيضان » أكبر حجماً من كتابه في مناقب الترك ، وبين هنا مفاخر السودان ومناقبهم على ما جاء اليه من الآثار والأخبار وذكر من مشاهير رجالهم الذين لهم مكانة عالية في قلوب المسلمين مثل بلال الحبشي ، والمقداد بن أسود الكندي ، والنجاشي ، وغيرهم وروى أخبارهم وقصصهم ، وحاول اعلاء شأنهم في عيون الناس في عاصمة الخلافة ، وذكر مزاياهم ، وبيّن فضائلهم وتفوّقهم في فصاحة الكلام وبلاغة اللسان التي يتحيّر منها المتحيرون :

أوليس من حقنا ان نسأل : لمَ كتب الجاحظ هذه الرسالة ؟ والى من أراد ان يتقرب بها ؟ هذا سؤال ليس له الا جواب واحد ، وهو ان الجاحظ انما كان يكتب بوحيٍ من ضميره فقط .

واخير نورد هنا قول الجاحظ في خاتمة كتابه حتى نعطي فكرة عن عزمه في هذا الكتاب : « وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجمل ما انتهى الينـا وبلغه علمنا . فان وقع ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصنعه ، وان قصّر دون ذلك فالذي قصّر بنا نقصان علمنا وقلة حفظنا وسماعنا. فاما حسن النية والذي نضمره من المحبة والاجتهاد في القـُربة فانا لا نرجع في ذلك الى انفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم فرق : ولو كان هـذا الكتاب مـن كتب المناقضات وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريـد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته اظهار فضل نفسه وان لم يصل الى ذلك الا باظهار نقص أخيه ووليّه ، لكان كتاباً كبيراً كثير الورق عظيماً ولكان العـدد الذين يقضُون لمؤلّفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثر وأظهر . ولكنّا رأينا ان القليل الذي يجمع خيرٌ من الكثير الذي يفرّق. فاذا دبرنا كتابنا هذا التدبير وكان موضوعُه على هذه الصّفة كان أبعد له من مذهب الجدال والمراء واستعمال الهوى ، ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ونسأله العون والتسديد ، انه سميع قريب ، فعّال لما يريد »[1] .

***

مزايا الاتراك في مؤلفات الجاحظ

سنحاول الآن بيان مزايا الاتراك وخصالهم القومية التي اشتهروا بها وتميزوا فيهـا بين الأمم الأخرى في الجامعة الاسلامية كما وجدناها مسجّلة مخلّدة في مؤلفات الجاحظ .

(١) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٨٦ .

ومما هو جدير بالذكر اننـا اعتمدنا في تحضير هـذا الموضوع بجانب رسائل الجاحظ الأخرى على كتابه في مناقب الترك الذي طالعناه مراراً بالضبط والدقة واستخرجنا منه مزايا الاتراك في النواحي المختلفـة وجمعناها ورتبناها ترتيباً جديداً :

ذكرنا أولاً خصائص بلادهم وأثرها في تكوّن خلقتهم ، لان بلا الترك كل شيء فيها تركي وهكذا طبع الله تلك البلدة وقسم تلك التربة . وشرحنا ميزتهم العرقية ، وهي انهم قوم يشتد عليهم الحصر والجثوم وطول اللبث والمكث وقلة التصرف والتحرك وأصـل بنيتهم انما وضع على الحركة وليس للسكون فيهـم نصيب . وبينا سجاياهم القومية ، حيث ان الاتراك لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق ولا التصنّع ، ولا النميمة ولا الرياء . وانما خصّوا بالحنين الى بلادهم . ثم تطرقنا الى صناعاتهم الحربية ، لان الاتراك أصحاب عمـد وسُكان فياف وأرباب مواش ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارات ومقارعة الابطال وتدويخ البلدان ، احكمو ذلك الأمر بأسره وصار ذلك هو صناعتهم وفخرهم ومن جملة مهارتهم في هذا الباب : رمايتهم في الحرب على ظهور الخيل ، وحذاقتهم في معالجة الفرس ، وصبرهم على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السّرى وقطع البـلاد وجلوسهم على ظهور خيولهم الى حد ان لو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر خيله أكثر من جلوسه على ظهر الارض. ومن ميزاتهم أيضاً : لا يضرّ الاتراك التساند في الحروب والاشتراك في الرياسة .

انما نرجو ان نكون وضعنا أمام المهتمين بتاريخ الترك وثقافتهم خلاصة وافية لما سجـّله الجاحظ عن ممثلي تلك الأمة في ذلك العهد البعيد حتى يتمكن الجميع من تقدير مكانة الاتراك في التاريخ الاسلامي ودقة نظر الجاحظ مقترنة بحسن النية وسلامة المنهج في الأدب واصلاح المجتمع على حد سواء .

١ — أثر البلاد في تكوّن الخلقة

قال الجاحظ : « لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم . فيعمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . وقد رأينا العرب وكانوا اعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني . وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب الخضرة على غير ذلك . وترى القملة في رأس الشباب الاسود الشعر سوداء ، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء ، وتراها في رأس الاشمط شمطاء وفي لون الجمل الاورق . فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيها شكلة من بين بيض وحمرٍ » .

كتاب الحيوان ٤/٧١٧

٢ — اثر بلاد الترك في تكون خلقة الترك

قال الجاحظ : ان الله تعالى لم يجعلهم — أي السودانيين — سوداً «تشويها بخلقنا ولكن البلد فعل ذلك . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سوداً كبني سليم ابن منصور ، وكل من نزل الحرّة من غير بني سُليم كلهم اسود ... ولقد بلغ من أمر تلك الحرّة ان ظباءها ونعامها وهوامّها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود .. على ان بلاد سليم تجري مجرى بلاد الترك . ومن رأى ابلهم ودوابهم وكل شيء لهم رآه شيئاً واحداً وكل شيء لهم تركي المنظر».

فخر السودان على البيضان ١/١١٩

٣ — ان في تركيب الاتراك تركيب بلدهم وتربتهم

قال الجاحظ : « وانما خُصُّوا — أي الاتراك — بالحنين من بين جميع العجم لان في تركيبهم من تركيب بلدهم وتربتهم ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم ما ليس مع أحدٍ سواهم . ألا ترى انك ترى البصريّ فلا تدري أبصريّ هو أم كوفي ، وترى المكي فلا تدري أمكي هو أم مدني ، وترى الجبلي فلا تدري أجبلي هو أم خراساني ، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو أم شامي . وأنت لا تغلط في التركي ولا تحتاج فيه الى قيافة ولا فراسة ولا مُساءَلة » .

فضائل الاتراك ١/٦٣

٤ — وفي بلاد الترك كل شيء تركي

قال الجاحظ : « وقد رأينا بلاد الترك ؛ فرأينا كل شيء فيها تركياً . ومن رأى دوابهم وابلهم علم انها تركية ، وحرّة بني سُليم التي جميع طيرها وسباعها وهوامها وأهلها كلهم سود » .

كتاب البغال ٢/٣١٣

٥ — أثر البيئة في الحيوان

قال الجاحظ : « وليس ذلك بأعجب من حرّة بني سُليم ، فان من طباع تلك الحرّة ان تسوّد كل شيء يكون فيها من انسان وفرسٍ او حمارٍ او شاةٍ او بعيرٍ او طائرٍ او حيّة . ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك . فانها تصوّر ابلهم وخيلهم وجميع ما يعيش فيها على صورة الترك » .

كتاب الحيون ٥/٣٧٠

٦ ــ نساء الأتراك كرجالهم

قال الجاحظ : « ونساؤهم كرجالهم ودوابهم تركية مثلهم .. وهكذا طبع الله تلك البلدة وقسم لتلك التربة ؛ وجميع دور الدنيا ونشوءها الى منتهى قواها ومدّة أجلها جارية على عللها وعلى مقدار أسبابها وعلى قدر ما خصّها الله تعالى بـه وأبانها وجعل فيها . فـاذا صاروا الى دار الجزاء فهي كما قـال الله تعالى « انا انشأناهن انشاءاً » .

فضائل الاتراك ٦٣/١

٧ ــ والاتراك انما وضع بنيتهم على الحركة

قـال الجاحظ : « ان الترك قوم يشتدّ عليهم الحَصْر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرّف والتحرّك ، وأصل بنيتهم انما وضع على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب ، وفي قوى أنفسهم فضل على قوى ابدانهم وهم أصحاب توقدٍ وحرارة واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يرون الكفاية معجزة ، وطول المُقام بلادة، والراحة عُقلة ، والقناعة من قصر الهمـة ، وان ترك الغزو يورث الذلّة » .

فضائل الاتراك ٦٥/١

٨ ــ ليس لبدن التركي على ظهر الدابة ثقل

قال يزيد بن مزيد : « ليس لبدن التركي على ظهر الدابة ثقل ولا لمشيه على الارض وقع وانه ليرى وهو مدبر ما لا يرى الفارسُ منا وهو مقبل ، وهو يرى

الفارسَ منا صيداً ويعدّ نفسه فهداً ، ويعدّه ظبياً ويعدّ نفسه كلباً . والله لو رمى به في قعر بئرٍ مكتوفاً لما أعجزته الحيلة » .

فضائل الاتراك ٥٨/١

٩ ــ والاتراك قوم لا يعرفون الملق

قال الجاحظ : « والاتراك قوم لا يعرفون المَلَق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السّعاية ولا التصنّع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الاولياء ولا البغي على الخلفاء ، ولا يعرفون البدع ولم تفسدهم الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال على التأوّل وانما كان عيبهم ، والذي يوحِش بينهم الحنين الى الأوطان وحُبُّ التقلب في البلدان والصبابة بالغارات ، والشغف بالنهب ، وشدّة الالف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرته . وملاعبهم في تلك الصحاري ، وترددهم في تلـك المروج والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلاً ويصير حدّهم على طول الأيام كليلاً » .

فضائل الاتراك ٦٢/١

١٠ ــ ومن سجايا الاتراك

قال ثمامة بن اشرس : « التركي لا يخاف الا مخوفاً ولا يطمع في غير مطمع ولا يكفّه عن الطّلب الا اليأس صرفاً ولا يدع القليل حتى يصيب أكثر منـه وان قدر ان يجمعها لم يفرّط في واحدٍ منها . والباب الذي لا يحسنه لا يُحسن منه شيئاً ، والباب الذي يحسنه قد أحكمه بأسره وأمره ، وخفيّه عنـده كظاهره ولا يتشاغل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء ، فلولا ان

يُجمّ نفسه بالنوم لما نام ، على ان نومه مشوبٌ بالبقظة ، ويقظته سليمة من السنة ، ولو كان في شقهم أنبياء وفي أرضهم حكماء وكانت هذه الخواطرُ قد مرّت على قلوبهم وقرعت أسماعهم لانسوكَ أدب البصريين وحكمة اليونانيين وصنعة أهل الصين » .

فضائل الاتراك ١/٥٩

١١ — الاتراك مثل الذر

كل واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحته .

قال ثمامة بن أشرس : « ما شبّهتُ الذرّ الا بالترك ؛ لأن كل ذرّة على حدتها معها من المعرفة بادّخار الطعْم ومن الشمّ والاسترواح ، وتخب المدّخر حتى لا ينبت في حُجره ، ثم الاحتيال للناس في الاحتيال لها بالصّهامة والعِفاص والمزدجر ، وتعليق الطعام على الأوتاد والبرّادات مثل الذرّ مع صاحبتها .. اذ رئيس الذرّ الرائد الذي يخرج أولاً لشيء قد شمّ دون أصحابه لخصوصيّةٍ خصه الله تعالى بها ، ولطافه الحِسّ فاذا حاولَ حمله وتعاطى نقله ، واعجزه ذلك بعد ان يبلي عذراً أتاهنّ فأخبرهنّ فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود ممدود ، وليست ذرّةٌ أبداً تستقبل ذرّة أخرى الا واقفتها وسارّتها بشيء ثم انصرفت عنها . وكذلك الاتراك كلّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفة مصلحة أمره . الا ان التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنّبّاتات والموات وقد تختلف الجواهر وكلها كريم وتتفاضل العتاق وكلها جواد » .

فضائل الاتراك ١/٨٥

١٢ — والتركي أحذق من البيطار

قال حميد بن عبد الحميد : « والتركي أحذق من البيطار وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريده من الراضة وهو ربّاه فلواً وتتبّعه إن سمّاه ، وان ركض ركض خلفه ، وقد عوده ذلك حتى عرفه كما يعرف الفَرس « اقدِمْ » والناقة « حَلْ » والجمل « جاهِ » والبغل « عَدسْ » والحمار « ساساً » وكما يعرف المجنون لقبه والصبي اسمه » .

فضائل الاتراك ١/٤٧

١٣ — التركي الواحد أمة على حدة

قال حميد بن عبد الحميد : « والتركي هو الراعي ، وهو السائس ، وهو الرائض ، وهو النخّاس ، وهو البيطار ، وهو الفارس ، والتركي الواحد أمة على حدةٍ » .

فضائل الاتراك ١/٤٩

١٤ — وجلوس التركي على ظهر دابته أكثر من جلوسه على الارض

قال حميد بن عبد الحميد : « ولو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض . والتركي يركب فحلاً ، او رمكة ، ويخرج غازياً او مسافراً ، او متباعداً في طلب صيد او سبب من الأسباب ، فتتبعه الرّمكة وافلاؤها ، ان اعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش وان أخفق منها او احتاج الى طعام فصَدَ دوابّه وان عَطِشَ حلبَ رمكة من

رماكه ، وان أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير ان ينزل الى الأرض وليس في الارض أحدٌ الا وبدنه ينتقض على اقتيات اللحم وحده غيره وكذلك دابته بالعنقر والعشب والشجر ، لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد » .

فضائل الاتراك ١/٤٨

١٥ ــ سبب نجدة الترك وفروسيتهم

قال الجاحظ : « قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة والفروسية في الترك دون جميع الامم وفي العلل التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب وهي معانٍ تشتمل على مذاهب غريبة وخصالٍ عجيبة ؛ فمنها ما يقضي لأهله بالكرم ، وببعد الهمّة وطلب الغاية . ومنها ما يدل على الأدب السّديد والرأي الأصيل والفطنة الثّاقبة والبصيرة النافذة . الا ترى انه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم والحزم والعزم والصبر والكتمان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة ، ولا بد من البصر بالخيل والسلاح ، والخبرة بالرجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلها ، والمُلك يحتاج الى اواخٍ شدادٍ وأسباب متان ومن اتمها سبباً وأعمقها نفعاً ما ثبّته في نصابه وأقرّه وسكنه في قراره وزاد في تمكنه وبهائه وقطع أسباب المطمعة فيه ومنع أيدي البُغاةِ من الاشارة اليه فضلاً عن البَسْطِ عليه » .

فضائل الاتراك ١/٧٣

١٦ ــ قسوة الترك وشدتهم

قال الجاحظ : « وفي المأثور من الخبر « تاركوا الترك ما تركوكم » وهذه وصيته لجميع العرب ؛ فان الرأي متاركتنا ومسالمتنا وما ظنكم بقوم لم يعرض

لهم ذو القرنين وبقوله « اتركوهم » سموا الترك ؛ هـذا بعد ان غلب على جميع الأرض غلبة وقسراً وعنوة وقهراً . وقال عمر بن الخطاب « هذا عدوّ شديد كلبه قليل سلبه » فنهى كما ترى عن التعرّض لهم بأحسن كناية . والعرب اذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا : ما هم الا الترك والديلم » .

فضائل الاتراك ١/٧٦

١٧ ــ النشاط العجيب لدى الاتراك

قال الجاحظ : « وذلك كالذي يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله وبعض النهار . فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمدّدوا ويقيدوا دوابهم . والتركي في ذلك الوقت اذا عاين ظبياً او بعض الصيد ابتـدأ الركض بمثل نشاطه قبل ان يسير ذلك السير وذلك وقت يهمُّ فيـه الخارجي والخصي انفسهما فانهما المذكوران بالصّبر على ظهر الدّابة » .

كتاب الحيوان ٣/١٦١

١٨ ــ والاتراك يكرمون الأسير كالضيف

قال ثمامة بن أشرس : « وقد غبرت في أيديهم أسيراً فما رأيت كإكرامهم وتحفيهم وألطافهم » .

فضائل الاتراك ١/٦١

١٩ ــ الكفاف غصباً أحب للتركي من الملك عفواً

قال الجاحظ : « اما التركي فلأن ينال الكفاف غصباً أحبُّ اليه من ان ينال المُلك عفواً . ولم يتهنَّ تركي بطعام الا ان يكون صيداً او مغنماً ولا يُعزُّ على ظهر دابته طالباً او مطلوباً » .

فضائل الاتراك ١/٥٩

٢٠ ـــ الاتراك صاروا للاسلام مادة وجنداً كثيفاً

قال الجاحظ : « وانما كان الحديث — أي « اتركوا الترك » — على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للاسلام مادّة وجنداً كثيفاً وللخلفاء وقاية وموئلاً وجنة حصينة وشعاراً دون الدثار » .

فضائل الاتراك ٧٥/١

٢١ ـــ حب الوطن في الاتراك أغلب وفيهم أرسخ

قال الجاحظ : « ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس وغالب على جميع الجبرة ولكن ذاك في الترك أغلب وفيها أرسخ لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة واستواء الشبه وتكافي التركيب . ألا ترى ان العبدي يقول : عمر الله البلدان بحب الأوطان ، وان ابن الزبير قال : ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم . وان عمر بن الخطاب قال : لولا تفرّق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » .

فضائل الاتراك ٦٤/١

٢٢ ـــ الاتراك احن من الابل المعقلة الى أوطانها

قال قتيبة بن مسلم في الترك: هم والله أحن من الابل المعقلة الى أوطانها، لأن البعير يحن الى وطنه وهو بعمان من ظهر البصرة ، فهو يخبط كلّ شيء ويستبطن كل واد حتى يأتي مكانه ؛ على انه طريق لم يسلكه الا مرة واحدة . فلا يزال بالشمّ والاسترواح وحسن الاستدلال وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي مَبركه

على بعد ما بين عمان والبصرة فلذلك ضرب به قتيبة المثل . والشح على الوطن والحنين اليه والصبابة به مذكورة في القرآن مخطوطة في الصحف بين جميع الناس غير ان التركي للعلل التي ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نزوعاً » .

فضائل الاتراك ٦٤/١

٢٣ ـــ الحرب انما هو صناعة الاتراك ولذتهم وفخرهم

قال الجاحظ : « ان كل أمة وقرن وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان او فاقوا في الآداب وفي تأسيس الملك وفي البصر بالحرب . فانك لا تجد في الغاية وفي أقصى النهاية الا ان يكون الله قد سخّرهم لذلك المعنى بالأسباب وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور وتصلح لتلك المعاني ، لأن من كان متقسّم الهوى ، مشترك الرأي ، ومتشعب النفس غير موفّر على ذلك الشيء ولا مهيّأ له ، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والأدب ، والعرب في الشعر وبلاغة المنطق » .

صناعة اليونانيين

« ألا ترى ان اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجّاراً ولا صنّاعاً بأكُفّهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكدّ .. وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة ، يصوّرون الآلة ويخرطون الأداة ويصوغون المُثُل ولا يحسنون العمل بها ويشيرون اليها ولا يمشونها ويرغّبون في العلم ويرغبون عن العمل » .

صناعة الصينيين

« فأما سكان الصين فهم أصحاب السَّبك والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسخ والخط ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه – فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل لأن أولئك حكماء وهؤلاء فعلة (*) » .

صناعة العرب

« وكذلك العرب ، لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطبّاء ولا حُسّاباً . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللَّثق ولا البخار ولا الغلَظ ولا العفن ولا التُّخم اذهان حداد ونفوس منكرة فحين حملوا حدّهم ووجّهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآفاق وتعرف الأنواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية وجاوزوا كل أمنية » .

فاما الاتراك

« وكذلك الترك : أصحاب عمدٍ وسكان فياف وأرباب مواش ، وهم اعراب العجم كما ان هذيلا أكراد العرب ، فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات

(*) الزيادة عن نسخة ليدن (للمؤلف) .

والطبّ والهندسة والفلاحة ، ولا غرس ولا بنيان ولا شقّ انهار ولا جباية غلّاتٍ ولم يكن همهم غير الغزو والغارات والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان . وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصولة بها . احكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو من صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم . فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات والأعراب فيما عددنا ونزّلنا وكآل ساسان في الملك والرياسة » .

فضائل الاتراك ١/٦٧، ٧١

٢٤ — وهذا دليل ما بلغ الاتراك : أقصى الغاية في الحرب

« ومما يستدل به على انهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه ، ان السيف الى ان يتقلده متقلد او يضرب به ضارب ، قد مرّ على أيد كثيرة وعلى طبقات من الصناع ، كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه ولا يحسنه ولا يدّعيه ولا يتكلّفه ؛ لأن الذي يذيب حديد السيف ويميعه ويصفيه ويهذّبه غير الذي يمدّه ويمطله ، والذي يمدُّه ويمطله غير الذي يطبعه ويُسوّي متنه ويقيم خشيبته والذي يطبعه ويسوّي متنه غير الذي يسقيه ويرهِفه ... الخ ... الخ ... وكذلك السَّرج وحالات السَّهم والجعبة والرّمح وجميع السلاح مما هو جارحٌ او جنّة .. والتركي يعمل هذا كلّه لنفسه من ابتدائه الى غايته فلا يستعين برفيق ولا يفزع فيه الى صديق ولا يختلف الى صانع ولا يشغل قلبه بمطاله وتسويفه وأكاذيب مواعيده وبغرم كرائه ... وليس انه ليس في الأرض تركي الا هو كما وصفنا كما انه ليس كل يوناني حكيماً ولا كل

صيني غاية في الحذق ولا كل أعرابي شاعراً فائقاً ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء اعمّ واتمّ وهي فيهم أظهر وأكثر » .

فضائل الاتراك ١/٧١،٧٣

٢٥ ــ التركي انما يقاتل على السلب والخيار في يده

قال حميد بن عبد الحميد : « ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على مُلك ولا على خراج ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ولا على حميّة ولا على عداوة ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وانما يقاتل على السلب ، والخيار في يده وليس يخاف الوعيد ان هرب ولا يرجو الوَعْدَ ان ابلى عذراً . وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم ، وهو الطالب غير المطلوب . ومن كان كذلك فانما يأخذ العفو من قوّته ولا يحتاج الى مجهوده. ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يطمع فيه أحد . فما ظنك بمن هذه صفته ان لو اضطرّه احراجٌ او غيرة او غضب او تدين او عرض له بعض ما يصحبُ المقاتل المحامي من العلل والأسباب ؟! » .

فضائل الاتراك ١/٥٢

٢٦ ــ شدة التركي في أول وهلة في الحرب

قال حميد بن عبد الحميد : « الشدة الأولى التركي فيها أحمد اثراً وأجمع أمراً وأحكم شأناً لأن التركي من أجل ان تصدق شدته ويتمكن عزمه ولا يكون مشترك العزم ولا منقسم الخواطر قد عوّد برذونه ألّا ينثني وان ثناه ان يملأ فروجه للأمر يديره مرّة او مرّتين والا فانه لا يدع سننه ولا يقطع ركضه .

وانما أراد التركي ان يؤنس نفسه من البدوات ومن ان يعتريه التكذيب بعد الاعتزام لهول اللقاء وحب الحياة ؛ لأنه اذا علم انه قد صيّر برذونه الى هذه الغاية حتى لا ينثني ولا يجيبه الى التصرّف معه الا بأن يصنع شيئاً بين الصفّين فيه عطبه لم يقدم على الشدّة الا بعد إحكام الأمر والبصر بالعورة . وانما يريد ان يشبّه نفسه بالمحرَج الذي اذا رأى أشد القتال لم يدع جهداً ولم يدّخر حيلة ، ولينفي عن قلبه خواطر الفرار ودواعي الرجوع » .

فضائل الاتراك ١/٤٤

٢٧ ــ رمي الترك في الحرب على ظهور الخيل

قال حميد بن عبد الحميد : « والخوارج والاعراب ليست لهم رماية مذكورة على ظهور الخيل . والتركي يرمي الوحش والطير والبرجاس والناس والمجثمة والمُثُل الموضوعة ويرمي وقد ملأ فروج دابته مدبراً ومقبلاً ويمنة ويسرة وصعداً وسفلاً . ويرمي بعشرة أسهم قبل ان يفوّق الخارجي سهماً واحداً . ويركض دابته منحدراً من جبل او مستفلاً الى بطن وادٍ بأكثر مما يمكن الخارجي على بسيط الأرض » .

فضائل الاتراك ١/٤٥

٢٨ ــ والتركي اذا ادبر فهو السم الناقع

قال حميد بن عبد الحميد : « والتركي اذا ادبر فهو السمّ الناقع والحتف القاضي لانه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل . ولا يؤمن وهقه ولا انتساف الفرس واختطاف الفارس بتلك الركضة .. وربما رمى بالوهق وله

فيه تدبير آخر . وان لم يجنب المرمي معه يوهم الجاهل ان ذلك انما كان لحذق التركي او لحذق المرمي .. وهم علـّموا الفرس حمل قوسين وثلاثة قسي ومن الأوتار على حسب ذلك .. والتركي في حال شدّته معه كلُّ شيء يحتاج اليـه لنفسه وسلاحه واداة دابّته » .

فضائل الاتراك ١/٤٧

٢٩ ــ طعن الاتراك

قال حميد بن عبد الحميد : « الخارجي عند الشدة انما يعتمد على الطعان . والاتراك تطعن طعن الخوارج وان شدّ منهم ألف فارس فرموا رشقاً واحداً صرعوا الف فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشدّة ! » .

فضائل الاتراك ١/٤٥

٣٠ ــ وصف عمر للترك

قال الجاحظ : « وقال عمر بن الخطاب في الترك : عدوّ شديد طلبه قليل سلبه . فقال رجل من العالية : نهر عمر أبا زبيد الطائي عن وصف الأسد لأن ذلك مما يزيد في رعب الجبان وفي هول الجنان ويقل من رغب الشجاع ، وقد وصف الترك بأشد من وصف أبي زبيد الأسد » .

فضائل الاتراك ١/٥٧

٣١ ــ صبر التركي على الخبب

قال حميد بن عبد الحميد : « فاما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السّرى وقطع البلاد فعجيب جداً .. اما الصبر على الخبب فان الثغريين

والفرانقيين والخصيان والخوارج لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وفوا بتركي واحد . والتركي لا يبقى معه على طول الغاية الا الصميم من دوابه . والذي يقتله التركي باتعابه له وينفيه عند غزواته هو الذي لا يصبر معه فرس الخارجي ولا يبقى معه كل برذون بخاري » .

فضائل الاتراك ١/٤٨

٣٢ ــ سير التركي

قال حميد بن عبد الحميد : « واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلاً ، لأنه ينقطع عن العسكر يمنةً ويسرة ، ويسرع في ذُرى الجبال ، ويستبطن قعور الأودية في طلب الصيد ، وهو في ذلك يرمي كل ما دبّ ودرج وطار ووقـع .. والتركي لم يسر في العساكر سير الناس قط ولا سار مستقيماً قط ... وان طالت الدُّلجة ، واشتدّ السير ، وبعد المنزل ، وانتصف النهار ، واشتـدّ التعب ، وشغـل الناس الكلالُ ، وصمت المتسايرون فلم ينطقوا ، وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسّخ كل شيء من شدة الحرّ ، وخمد كل شيء من شدة البرد ، وتمنى كل جليد القوى على السُّرى ان تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالاً او بصر علما سُرّ به واستبشر وظنّ ان قد بلغ المنزل ؛ فاذا بلغه الفارس نزل ، وهو متفجع كأنه صبيّ محقون يئنُّ أنين المرض ، ويستريح الى التثاؤب ، ويتداوى مما به بالتمطي والتضجُّع ؛ وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ما ساروا ، وقد اتعب منكبيه كثرة النـّزع ، يرى قرب المنزل عيراً او ظبياً ، او عرض له ثعلب او أرنب ، فيركض ركض مبتدىء مستأنف ؛ كأن الذي سار ذلك السير وتعب ذلك التعب غيره . وان بلغ الناس وادياً فازدحموا على مسلكه او على قنطرته بطن برذونه فأقحمه ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب ، وان انتهوا الى عقبة صعبة

ترك السّنن وذهب في الجبل صُعداً ، ثم تدلى من موضع يعجز عنه الوعل، وانت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مطلعه ، ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه » .

فضائل الاتراك ١/٤٩

٣٣ ـــ والتركي لا يُطلب ولا يرام

قال حميد بن عبد الحميد : « ويفخر الخارجي بأنه اذا طلب أدرك ، واذا طُلِبَ لم يدرك ، والتركي ليس يُحوج الى ان يفوت ؛ لأنه لا يطلب ولا يُرام ومن يروم ما لا يُطمع فيه ؟ » .

فضائل الاتراك ١/٥١

٣٤ ـــ قناة التركي

قال حميد بن عبد الحميد : « وقناة التركي مطرد أجوف ، والقنيُّ الجوّفة القصار أشدُّ طعنة وأخفُّ في المحمل » .

فضائل الاتراك ١/٥٢

٣٥ ـــ التساند في الحرب والاشتراك في الرياسة لا يضر الاتراك

قال حميد بن عبد الحميد : « وليس في الارض قوم الا والتساند في الحروب والاشتراك في الرّياسة ضار لهم الا الاتراك على ان الاتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ، وذلك ان الذي يُكرَه من المساندة والمشاركة اختلاف الرأي والتنافس في السرّ والتحاسد بين الأشكال والتواكل فيما بين المشتركين » .

فضائل الاتراك ١/٥٥

٣٦ ـــ والاتراك انما شأنهم احكام أمرهم

قال حميد بن عبد الحميد : « والاتراك اذا صافوا جيشاً ان كان في القوم موضع عورةٍ فكلهم قد أبصرها وعرفها ، وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع وكان الرأي الانصراف فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه ؛ وخواطرهم واحدة ودواعيهم مستوية باقبالهم معاً ، وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخرٍ وتناشد وانما شأنهم احكام أمرهم فالاختلاف يقل بينهم » .

فضائل الاتراك ١/٥٥

٣٧ ـــ خصال القائد التركي

قال نصر بن سيّار الليثي : «كان عظماء الترك يقولون: للقائد العظيم القيادة، لا بدّ ان تكون فيه عشر خصال من الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وختل الذئب وصبر الكلب على الجراحة وحذر الغراب وحراسة الكركي وهداية الحمام » .

كتاب الحيوان ٢/٣٥٣

٣٨ ـــ فلم أر أذكى من خاقان الترك

قال جنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث المرّي – بعد محاورة طويلة – : « فلم أر أوفى ولا أنصف ولا أفهم ولا أذكى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار وما تحرّك منه شيء الا لسانه وما من شيء لم احرّكه».

فضائل الاتراك ١/٨١

٣٩ ــ وخاقان الترك أركن وآدب

قال الجاحظ : « وهكذا يصفون ملوك الترك : يزعمون ان ساسان وخاقان الأكبر تواقفا ببعض الكسور وفصلا من الصّفّين وطالت المناجاة فلما انفتلا قالوا : كان خاقان أركن وآدب . وكان مركب كسرى أركن وآدب ، ولم يتحرّك من خاقان الا لسانه . وكان برذونه يرفع قائمة ويضع أخرى . وكان مركب كسرى كأنما صُبّ صبّاً وكان كسرى يحرّك رأسه ويشير بيده » .

فضائل الاتراك ١/٨١

الباب الثالث

بلاد التركستان في مؤلفات الجاحظ

التركستان

معنى التركستان : البلاد التي يعيش فيها الاتراك ، وقد خصصت في اصطلاح الجغرافيين والمؤرخين بالمناطق الواسعة التي تعيش فيها الشعوب التركية وتحدها سيبيريا شمالا ، وايديل واورال وبحر الخزر غرباً ، ومنغوليا والصين شرقاً ، وايران وافغانستان وكشمير والتبت جنوباً . وقد استعمل العرب كلمة اخرى ترادف تركستان وهي « ما وراء النهر » ولما سقطت دولة الفرس بلغت حدود الاسلام في الشرق الى نهر سيحون الذي يقطن الاتراك وراءه منذ قرون ، وكان هذا النهر حدّاً طبيعياً بين هذين العنصرين . وكثيراً ما عنوا بـ « النهر » نهر جيحون لا غير . انظر مثلاً قول عمر « فلا تجوزنّ النهر »[١]، وقولهم « جاوز فلان النهر » و « هو اول من قطع النهر »[٢] .

ولما تم فتح تلك البلاد على يد قتيبة بن مسلم القائد المظفر وتنورت مدنها بنور الاسلام، نبغ طائفة كبيرة من فحول العلماء والمؤرخين والمفسرين والمحدثين

---

(١) راجع الطبري ج ٤ : ص ٢٦٤ .

(٢) راجع فتوح البلدان ، البلاذري ص ٥٨٧ ، ٥٨٦ .

والمتصوفين والفلاسفة والحكماء والفقهاء والادباء من سكان هذه البلاد . وهؤلاء خدموا الاسلام لانتشار نوره وازدهار حضارته، وألفوا من الكتب والتصانيف في شتى العلوم الفنون – في الفقه والحديث والأصول والكلام والمعاني والتاريخ والصرف والنحو والأدب باللغة العربية – ما لا يعد ولا يحصى . وكانت سمرقند وبخارى والشاش وغيرها من مدن التركستان كما ذكر الجاحظ في مؤلفاته كعبة العلم والعرفان ، ينزل العلماء والأدباء اليها من أقاصي البلدان الاسلامية فيأخذون حظهم من العلم والمعرفة .

وقد بسط الجغرافيون المسلمون كالحموي والاصطخري الكلام في التركستان – او فيما وراء النهر – وبينوا الحياة الاجتماعية ، وذكروا جود أهلها وكرمهم وسماحتهم وتجاراتهم ومتاعهم من الرقيق والمسك والزعفران والأوبار والسمور والثعالب وغيرها مع طرائف من الحديد والحتر والبزاة التي تنقل كلها الى سائر البلدان الاسلامية من جملة مـا يحتاج اليه الملوك والناس . فمثلا يقول الحموي : يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان . فما كان في شرقيه يقـال له بلاد الهياطلة وفي الاسلام سموه ما وراء النهر . وما وراء النهر من انزه الاقاليم واخصبهـا واكثرها خيراً واهلها يرجعون الى رغبة في الخير والسخاء. فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ، ويتعاظم عن ان يكون في جميع بلاد الاسلام وغيرها مثله . وليس بما وراء النهر موضع يخلو من العمارة من مدينة او قرى او ميـاه او زرع او مراع لسوائمهم . واما مياههم فانها اعذب المياه واخفها فقد عمت المياه العذبة جبالها ونواحيها . واما لحومهم فان بها من الغنم مـا يجلب من نواحي التركمان الغربية وغيرها مـا يفضل عنهم . واما فواكههم فانك اذا تبطنت الصغد واشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق ...

واما الدواب ففيها من المباح ما فيه كفاية على كثرة ارتباطهم لها . وكذلك الحمير والبغال والابل ... واما الملبوس ففيها من الثياب القطن مـا يفضل عنهم، فينقل الى الآفاق . ولهم القز والصوف والوبر الكثير والابريسم الخجندي ولا يفضل عليـه إبريسم البتة . وفي بلادهم من معادن الحديد مـا يفضل

عن حاجتهم في الاسلحة والأدوات ، وبها معدن الذهب والفضة والزئبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر البلدان ... وامـا الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل الى الآفاق وهو خير رقيق بالمشرق كله . وبها من المسك الذي يجلب اليهم من التبت وخرخيز مـا ينقل منها الى سائر الامصار الاسلامية، ويرتفع من الصغانيان والى واشجرد من الزعفران ما ينقل اليه . وكذلك الأوبار من السمور والسنجـاب والثعالب وغيرها ما يحمل الى الآفاق مع طرائف من الحديد والحتر والبزاة وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك .

واما سماحتهم فان الناس في اكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ، مـا ينزل احد باحد الا كأنه رجل دخل دار صديقه ، لا يجد المضيف من طارق في نفسه كراهة[1] ، والاصطخري يقول[2] : « ولقد شهدت منزلا بالصغد قـد ضُرب الأوتاد على باب داره . فبلغني ان بابهـا لم يرده منذ مائة سنة واكثر ، لا يمنع من نزولها طارق ، وربما نزل بالليل بغتة من غير استعداد المائة والمائتان والأكثر بدوابهم وحشمهم فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ودثارهم ومـا يعمهم من غير ان يتكلف صاحب المنزل امراً لذلك لدوام ذلك فيهم ... وصاحب المنزل من البشاشة والاقبـال والمساواة لاضيافه ، يعلم كل من شاهده سروره بذلك وسماحته . ولم ارَ مثل هذا ولم اسمع به في شيء من بلدان الاسلام لرعية . ومع ذلك فانك لا تجد في بلدان الاسلام أهـل الثروة الا والغالب على اكثرهم صرف نفقاتهم الى خاصّ انفسهم في الملاهي وما لا يرضاه الله والى المنافسات فيما بينهم في الاشياء المذمومة الا القليل ، وترى الغالب على اهل الاموال بمـا وراء النهر صرف نفقاتهم الى الرباط وعمارة الطرق والوثوب على سبيل الجهاد ووجوه الخير الا القليل منهم . وليس من بلد ولا منهل ولا مفـازة مطروقة ولا قرية آهلة الا بها من الرباطات مـا يفضل عن نزول من طرقه . وبلغني ان بمـا وراء

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٧ : ص ٤٥ وما بعدها .
(٢) راجع كتاب مسالك الممالك للاصطخري ص ٢٩٠ .

النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها اذا انزل النازل اقيم علف دابّته وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك .

والآن بعد ان اوجزنا الكلام في الصورة العامة لبلاد مـا وراء النهر سننتقل الى ما جاء به الجاحظ عن المدن الخاصة ، مدينة مدينة ، لنرى مـا تميزت به مواطن الاتراك ومراكزهم بالنسبة الى سائر الممالك الاسلامية .

سمرقند

من اكبر المدن في التركستان ، لعبت دوراً هاماً في انتشار الاسلام وازدهار حضارته في بلاد ما وراء النهر . وقد وردت روايات مختلفة حول اشتقاق اسمها قيل ان اصله « شمركنت » حيث ان «شمرابوكرب» بناها فسميت « شمركنت » فعربته العرب فقالوا « سمرقند » [١] وقد ذكر ذلك دعبل الخزاعي في قصيدته التي يفتخر فيها ويقول [٢] :

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو — وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سموا قديماً سمرقنداً — وهم غرسوا هناك التبتّينا

ولعل رواية الكاشغري احسن ما وجدنا في اشتقاق سمرقند ، يقول : ان سمرقند تتألف من كلمتين تركيتين، احداهما «سه ميز» معناه غني، قوي، ضخم، والأخرى « كنت » اي المدينة والبلدة ، كما ورد في كثير من مدن التركستان مثل طاشكنت، بيكند، اوزكند. فبناء على ذلك ، سمرقند اصله « سه ميز — كنت » فتبدلت بمرور العصور فقيل سمرقند — اي البلدة الغنية [٣] .

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ١١ : ص ٢٤٧ .
(٢) راجع معجم البلدان للحموي ج ١١ : ص ٢٤٧ .
(٣) راجع كتاب ديوان لغات الترك للكاشغري ج ٣ : ص ١١١ .

ويقول الحموي في وصف سمرقند — في القرن السادس الهجري —: واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً ، وفيهـا بساتين ومزارع وارحاء . وفي هذه المدينة الداخلة نهر يجري في رصاص. وفي المدينة مياه من هذا النهر عليها بساتين وليس من سكة ولا دار الا وبها ماء جارٍ الا القليل . وقلما تخلو دار من بستان، حتى انك اذا صعدت قهندزهـا(*) لا ترى ابنية المدينة لاستتارهـا عنك بالبساتين والاشجار. فأما داخل سوق المدينة الكبيرة ففيه أودية وأنهار وعيون وجبال. وعلى القهندز باب حديد من داخله باب آخر حديد [١] .

ومدح كثير من الشعراء والادباء في قصائدهم سمرقند . ويقول ابو الفتح البستي في وصفها [٢] :

للناس في أخراهم جَنة — وجنة الدنيا سمرقند
يا من يساوي ارض بلخ بها — هل يستوي الحنظل والقندُ

وكانت سمرقند مهد الحضارة التي ازدهرت في آسيا الوسطى . وقد وردت بعض الروايات التي تدل على هذه الحضارة القديمة وصلتها بجنوب جزيرة العرب . يقول الاصمعي : « مكتوب على باب سمرقند بالحميرية : بين هذه المدينة وبين صنعاء الف فرسخ وبين بغداد وبين افريقية الف فرسخ ، بين سجستان وبين البحر مائتا فرسخ ، ومن سمرقند الى زامين سبعة عشر فرسخاً »[٣] ويقول

(*) قهندز : بفتح أوله وثانيه وسكون النون وفتح الدال وزاي وهو في الأصل اسم الحصن أو القلعة في وسط المدينة . وأكثر الرواة يسمونه « قُهُندز » وهو تعريب « كهندز » ومعناه القلعة العتيقة . وفيه تقديم وتأخير لان « كهن » هو العتيق و « دِز » قلعة . ثم كثر حتى اختصّ بقلاع المدن وهو في مواضع كثيرة منها قهندز سمرقند ، وقهندز بخارى . معجم البلدان ١٦/٤١٩ .
(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ١١ : ص ٢٤٧ .
(٢) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢٣٣ .
(٣) راجع معجم البلدان للحموي ج ١١ : ص ٢٤٨ .

الجاحظ في ذلك: « وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ونقشاً في الحجارة وخلقة مركبة في البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتىء وربما كان الكتاب هو الحفر اذا كان تاريخاً لأمر جسيم او عهداً لأمر عظيم او موعظة يرتجى نفعهـا او احياء شرف يريدون تخليد ذكره او تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق الفرد وعلى باب الرها ، يعمدون الى الأماكن المشهورة والمواضع المذكورة فيضعون الخط في ابعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر ان يراها من مرّ بها ولا تنسى على وجه الدهر [١] » .

وكان العرب يعدون سمرقند عين ما وراء النهر . وكان المأمون يقول « عين الشام دمشق وعين الروم قسطنطينية وعين العراق بغداد وعين خراسان نيسابور وعين ما وراء النهر سمرقند [٢] » ولذلك كانوا يتحينون فرصة لفتحهـا حتى في عهد الأمويين .

واشتهرت سمرقند في البلدان الاسلامية بأمتعتها التجارية كالبندق والنوشادر والثياب الوذارية والزئبق [٣] ولكن اشهرها الرقيق والكاغد والجلود. وكانت سمرقند في ذلك العصر اكبر سوق اشتهرت بكثرة رقيقها . فانه « يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل الى الآفاق من بلادهم وهو خير رقيق يحيط بالمشرق [٤] » . وكان الولاة والعمال في خراسان حتى في عهد المعتصم يرسلون الى الخلفاء والأمراء من هؤلاء الموالي والغلمـان ويقدمونهم بين الهدايا القيمة . وبجانب هذا اشتهرت سمرقند بكواغدهـا التي عطلت قراطيس مصر وجلودها التي كان الاوائل يكتبون عليها لأنهـا احسن وأنعم وارفق وارقّ ،

(١) راجع كتاب الحيوان : ٦٨/١ ، المحاسن والاضداد : ٢ .
(٢) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ١٩١ .
(٣) راجع لطائف المعارف : ص ٢١٨ .
(٤) راجع مسالك الممالك : ص ٢٨٨ .

ولا تكون الا بها وبالصين [١] . وبعدما ذكر الجاحظ الاشياء المجلوبة من البلاد المختلفة كالهند والصين وارض العرب ومصر والخزر وخوارزم قـال : « ومن سمرقند الكاغد [٢] » . ومما هو جدير بالذكر ان اول ظهور الكاغد في الاسلام كان في سمرقند « صنعه من وقع من الصين الى سمرقند في سَبْي سباهم زياد بن صالح . ثم كثرت الصنعة حتى صارت متجراً لأهل سمرقند . فعمّ خيرهـا والارتفاق بها في الآفاق [٣] » . ومنها دخل الى البلدان الاسلامية واشتهرت في اوروبا .

كذلك كانت سمرقند مركزاً لنشاط الدعـوة الاسلامية والنهضة العلمية ، ونبغت بها طائفة كبيرة من الفقهاء والعلماء ممن يفتخر بهم المسلمون .

بخارى

ومن المدن التي ذكرهـا الجاحظ في مؤلفاته بخارى ، من أمهات مدن التركستان . وقد جاء في معجم البلدان في وصفها [٤] « ولا شك انها مدينة نزهة كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيّدتها عهدي بفواكههـا تحمل الى مرو » . وفي الاصطخري [٥] : « واما نزهة بلاد مـا وراء النهر فأنني لم ارَ في الاسلام بلداً احسن خارجاً من بخارى . لأنك اذا علوت قهندزهـا لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء . فكأن السماء بهـا مُكبّة خضراء مكبوبة على بساط اخضر تلوح القصور فيما بينها كالنواوير فيهـا ،

(١) راجع نهاية الأرب في فنون الأدب ج ١ : ص ٢٦٨ .
(٢) راجع التبصر بالتجارة للجاحظ ص ٢٨ .
(٣) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢١٨ .
(٤) راجع معجم البلدان ج ٣ : ص ٣٥٢ .
(٥) راجع مسالك الممالك : ص ٢٩٣ .

واراضي ضياعهم مقوّمة بالاستواء كالمرآة . وليس بما وراء النهر وخراسان بلدة أهلها أحسنُ قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة وذلك مخصوص بهذه البلدة » . ومع ما وصفه الحموي والاصطخري من فضل هذه المدينة فقد ذمّها الشعراء والأدباء في اشعارهم . وقال بعضهم[1] :

فقحة الدُنيا بخارى … ولنا فيها اقتحام
ليتها تفسو بنا الآ … ن فقد طال المُقام

وقال الشاعر أيضاً :

ما بلدة مبنية من خرا … وأهلها في وسطها دودُ
تلك بخارى من بُخار الخرا … يضيع فيها الندّ والعود

واشتهرت بخارى في البلدان الاسلامية ببرذونها – والبرذون اسم خيول الاتراك المخصوص لهذا الاقليم الأرضي – وخرج توقيع طاهر بن عبد الله بن طاهر مرة الى وكلائه يقول فيه[2] : « اذا وجدتم البرذون البخاري والبغل البرذعي والحمار المصري والرقيق السمرقندي فاشتروها ولا تستطلعوا رأينا فيها » . وقد ورد ذكر هذا البرذون البخاري مراراً في مؤلفات الجاحظ . ويقول الجاحظ بصدد صبر الترك على الخبب[3] : « والذي يقتله التركي بإتعابه له وينفيه عند غزاته هو الذي لا يصبر معه فرس الخارجي ولا يبقى معه كل برذون بخاري » . وفي شعر ربيعة الرقي[4] :

(١) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢١٦ .
(٢) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ٢١٨ .
(٣) راجع فضائل الاتراك (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٤٩ .
(٤) راجع القول في البغال (رسائل الجاحظ) ج ٢ : ص ٢٤٨ .

وبلائي أنّ أمي … اثقلتني بإزاري
فاذا ما قمتُ أمشي … همّ خصري بانبتار
كلّ ذا أحملُ وحدي … أين من امي فراري
أمّتا هذا وربّي … حِمْلُ برذون بُخاري
أمّتا لستُ ببرذو … نٍ ولا بغل مكاري

وبعدما أشرف الاسلام على قباب بخارى صارت مركزاً للعلوم الاسلامية . وقد أخرجت هذه البلاد من لا يحصى من رجال الحديث والفقه والأدب والتفسير وهم خدموا العلم واللغة العربية خدمة واسعة بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم الى أقاصي البلدان الاسلامية . ومنهم رأس المحدثين الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح الذي يعتبر أكبر مصدر للأحاديث النبوية ، وقد قاد التيار الفكري في عهده وترك آثاراً علمية وأدبية زاهرة ؛ وأبو علي ابن سينا الحكيم البخاري الذي يتباهى به المسلمون .

***

فرغانة

من مدن التركستان التي ذكرها الجاحظ مراراً في مؤلفاته ، وهي « مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك ، كثيرة الخير واسعة الرستاق . وبفرغانة في الجبال الممتدة بين الترك وبينها من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين ، مباحٌ ذلك كله ، لا مالك له ولا مانع يمنع الأخذ منه وكذلك في جبالها »[1] .

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ٤ : ص ٢٥٣ .

وتميزت فرغانة بطول أعمار أهلها كما يقول الجاحظ[١] : « وذكروا أنهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سروحمير ، ثم فرغانة ، ثم اليمامة . وان في الاعراب لاعماراً أطول على ان لهم في ذلك كذباً كثيراً » ويهزأ الجاحظ من خليله فيقول في موضع آخر يؤكد نفس المعنى[٢] : « لو عرفت عِقبان طخفة ، ونُسور السَّراة واحناش الرمل ، وعير العانة وورشان الغابة ، وشيوخ اليمامة وهرمى فرغانة انك لا تعدُّ عمر نوحٍ عمراً ولا النجوم يوماً ...» .

وبحق كانت فرغانة يضرب بها المثل من حيث بعدها عن حاضرة الخلافة ، فمثلا يقول الجاحظ في رسالة كتبها الى محمد بن عبد الملك الزيات الذي عاب الجاحظ بتقديم رسالته الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي : « ولكن اشتد تعجبي منك اليوم وأنا بفرغانة وانت بالأندلس . وانا صاحب كلام وانت صاحب نتاج »[٣] . ويقول في ذلك المعنى في كتاب الحيوان[٤] : وكم من حاذق بصناعته وكثير الجولان في تجارته وقد بلغ فرغانة مرة والاندلس مرة ونقّب في البلاد وربع في الآفاق . وكذلك البحتري يقول[٥] :

ان شعري سار في كل بلد ... واشتهى رقتـه كل أحدْ
أهل فرغانة قد غنّوا بـه ... وقُرى السوس وألطا وسددْ

كيماك

من بلاد التركستان التي ورد ذكرها في مؤلفات الجاحظ . وهي « ولايـة واسعة في حدود الصين وأهلهـا ترك يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ وبين

(١) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ : ص ١٥٧ .
(٢) راجع كتاب التربيع والتدوير للجاحظ ص ٢٥ .
(٣) راجع رسالة في الجد والهزل (رسائل الجاحظ) ج ٢ : ص ٢٦٥ .
(٤) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ : ص ١٠٣ .
(٥) راجع معجم البلدان لياقوت ج ١ : ص ٢٤٥ .

طرار بند – آخر ولاية المسلمين – وبينها احد وثلاثون يوماً بين مفاز وجبال وأودية فيها أفاعٍ وحشرات غريبة قتالة »[١] .

وقد اشتهرت كيماك في البلدان الاسلامية بامتعتها التجارية ومنها السمور الفائق والأواني النفيسة التي تصنع من شجر الخلنج المتوفر فيها بغزارة والمخصوص بهذا البلد . وكان فنانو الاتراك الذين مهروا في هذه الصناعة وحذقوها يصنعون هذه الأواني ويرسلونها الى أسواق البلدان الاسلامية . وكان أكابر الدولة من الأمراء والوزراء يزينون بيوتهم وموائدهم بهذه الأواني وكثيراً ما يقدمونها الى أصحابهم من جملة الهدايا القيمة . ويروي القاضي الرشيد بن الزبير[٢]: « وأهدى الحسن بن سهل الى المعتصم بالله في سنة ٢١٧هـ في خلافة أخيه المأمون بالله ألف طبق خزرية وكيماكية وتغزغزية وعدد حبات ختو عجيبة وسكاكين ختو نبيلة وسكاكين بازهر طائلة » .

ويؤيد الجاحظ ذلك ويقول : « وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظام وقُطرب النحوي وأبو الفتح مؤدبُ منصور بن زياد على خوان فلان ابن فلان . والخوان من جزعة والغضار صيني مُلمع او خلنجية كيماكية »[٣] .

هذا ما وجدنا في مؤلفات الجاحظ متعلقاً بـمدن التركستان ولعله يفيدنا ايضاحاً لمكانة الاتراك في العالم الاسلامي .

(١) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٦ : ص ٤٩٨ .
(٢) راجع الذخائر والتحف ص ٣٧ .
(٣) راجع كتاب البخلاء للجاحظ ص ١٠١

الباب الرابع

رجال الاتراك في مؤلفات الجاحظ

اسحاق بن حسان بن قوهي ابو يعقوب الخريمي

(. ؟ .) — (. ؟ .)

أبنّا في البحوث السابقة حياة الجاحظ بين الاتراك وألمعنا الى علاقاته برجال الاتراك مثل أبي يعقوب الخريمي وابراهيم بن العباس الصولي والفتح بن خاقان في أيام حياته . وفي هذا الباب سنحاول ان نتناول بالتفصيل حياة هؤلاء الرجال من كبار الاتراك الذين لعبوا دوراً هاماً في الدولة العباسية وشاركوا الجاحظ في جوانب مختلفة من حياته ، ومنهم أبو يعقوب الخريمي .

أصله ونسبه ونشأته

هو أبو يعقوب اسحاق بن حسان قوهي[1] الشاعر المعروف بالخريمي ، – الخزيمي تصحيف لا غير[2] – من أدباء الاتراك وشعرائهم ، نبغ في أول عصر

(١) راجع كتاب الحيوان ١/٢٢٤ ، والبيان ١/١١٥ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ١٧٦ .

العباسيين . ولا تعيننا المصادر كما كان الحال بشأن كثير من كبار الاتراك في هذا العصر ان نبين مبدأ حياته ونشأته وتطور علمه وقدومه الى البلدان الاسلامية ، الا أنه كان بلا شك من أبناء الأسر الارستقراطية التركية . وقد روى المبرد انه[1] « كان يرجع الى بيت في العجم كريم »[*] وهو نفسه يقول في الافتخار[2] :

وناديت من مروٍ وبلخ فوارساً   لهم حسبٌ في الأكرمين حسيب
وان أبي ساسان كسرى بن هرمز   وخاقان لي لو تعلمين نسيب

وقد صرّحت المصادر انه « جزري وأصله من خراسان من أبناء الصُغد »[3] . وفي ابن عساكر[4] « أصله من مرو الشاهجان » وقد صرّح هو نفسه في بعض أبياته[5] :

أبالصّغد بأس اذ تعيّرُني جُمل   سفاهاً ومن أخلاق جارتنا البخلُ
وما ضرّني ان لم تلِدْني يُحابر   ولم تشتمِل جرم عليّ ولا عُكلُ

(١) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٣٥ .
(*) ولمرير الأسف هذا ما رأينا بشأن كثير من اعلام الاتراك . فكثير منهم نُسبوا الى الفرس او العرب غالباً مع كون أصلهم تركياً . ومن جملتهم ابو يعقوب الخريمي الشاعر التركي والافشين ؛ ويقول الاستاذ علي جواد انه يبدو ان الباحثين المعاصرين لنا قالوا انه مولى لرؤيتهم كلمة « العجم » في نسبه ، مما دفع بهم الى الجزم السهل بأنه فارسي الأصل ، ومن هؤلاء الباحثين بروكلمان ، وبرون ، واحمد أمين وغيرهم . ولا بد من ان تعْني كلمة « الأعاجم » او « العجم » التي ترد عند الحديث عنه « الترك » وانه لكذلك بدليل صريح هو قول ابن المعتز « كان من نسل الترك » . (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٩) .
(٢) راجع ضحى الاسلام ، احمد أمين ج ١ : ص ٦٤ .
(٣) راجع تاريخ بغداد ج ٦ : ص ٣٢٦ .
(٤) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٣٤ .
(٥) راجع زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ج ٢ : ص ١٠٧١ .

وفي بيت آخر[1] :

اني امرؤ من سراة الصغد ألبسني   عرق الأعاجم جلداً طيّبَ الخبرِ

ثم يقول[2] :

رسا بالصغد أصـــل بني أبينا   وأفرعنـــا بمـــروِ الشاهجان
وكم بالصُّغد لي من عمٍّ صدق   وخالٍ ماجـــدٍ بالجوزجان

نستدل من هذه الأبيات انه ولد فيمدينة من مدن خراسان من المحتمل أنها مرو الشاهجان . وأما تاريخ ولادته فلم يشر اليه أحد من المؤلفين . ثم كان في سجستان فلما شبّ مال الى العلم وتعلم اللغة وأخذ يمارس الشعر والأدب والنظم حتى صار أديباً كاملا وشاعراً محسناً يكثر في شعره الاعتزاز بالنسب والتحقير من شأن العرب . وجاء في تاريخ بغداد انه « اشعر المولدين »[3] ويقول ابن ماكولا[4] « اسحاق الخريمي هو من شعراء الدولة العباسية المجيدين » .

واتصل الخريمي بأبي عثمان بن خريم الذي يقال له خريم الناعم . وكان « قائداً جليلا وسيداً كريماً »[5] وعرف أبو عثمان حقه واغدق عليه المال وهيأ له الجاه « وكان يلي أرمينية ، فسار خاقان الخزر الى حربه وعسكر ابن خريم ازاءه وعقد لأبي يقوب على الصحابة واشراف من معه »[6] . فلما قتل هذا القائد الجليل[7] التحق الخريمي بأخيه أبي الهيذام بالشام واكتسب صداقته ومودتـه

(١) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ : ص ٨٢٩ .
(٢) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٢ : ص ٤١٠ .
(٣) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٦ : ص ٣٢٦ .
(٤) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٣٥ .
(٥) راجع زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ج ٢ : ص ١٠٧١ .
(٦) راجع معجم البلدان للحموي ج ١٢ : ص ٤١٠ .
(٧) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٧ : ص ١٧٦ .

وعاش في كنفه . ونحن لا نعرف بالتفصيل أخبار هذين الخليلين غير ان الخريمي رثى ابا الهيذام عقب وفاته في سنة ١٨٢هـ[1] . ثم تقرب الى ابنه خريم فأقام عنده مدة من الزمن وأنشده بعض أشعاره ومدحه ومجده حتى اذا توفي رثاه أيضاً . وقال في عينيته التي تعد من بدائعه[2] :

قضى وطراً منك الحبيب المودّعُ   وحلّ الذي لا يستطاع فيُدفعُ
وأصبحت لا أدري اذا بان صاحبي   وغودرتُ فرداً بعده كيف أصنع

ولعل الشاعر ترك الشام ورحل الى بغداد بعد ان فقد صديقه الحميم كما فعل مثل ذلك كثير من الشعراء والأدباء في ذلك العصر وسكن هناك الى ان جاء أمر الله .

ومن الجدير بالذكر أن الخريمي نزل بغداد وسكنها[3] في أيام الرشيد ووجد جوّاً صالحاً للاتصال بكبار رجـال دار السلام من الأدباء والشعراء ورجال البلاط . ومدح أيضاً الخلفـاء والوزراء والاشراف ونال منهم الجوائز . ومن الشخصيات المشهورة التي اتصل الخريمي بها المأمون قبل خلافته ، وذلك في أيام الرشيد[4] ، وربما كان عند المأمون آنذاك جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ومعه منصور النمري والعباس بن زفر[4] . وقد فصّل الجهشياري مجالسته مع جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى[5] ولكن المهم هو تعرّفه بمحمد بن منصور بن زياد — كاتب البرامكة — وكان سخياً سريّاً ؛ فقد مدحه الخريمي باشعاره ، فلما مات رثاه بأشعاره الرقيقة . وسأل رجل الخريمي : ما بال مديحك منصور ابن زياد خيراً من مراثيه ؟ فقال الخريمي :

(١) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٧ : ص ١٩٣ .
(٢) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٥ : ص ١٢٦ .
(٣) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٦ : ص ٣٢٦ .
(٤) راجع الأغاني للاصبهاني ج ١٢ : ص ١٥٠ .
(٥) راجع الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٣٩ .

– لأن المدح للرجاء والمراثي للوفاء ، وبينهما بون بعيد[1] .

وفي هذا الحيز نخص بالذكر صلاته بالحسن بن بجباح البلخي ، من سادات عصره ، وكان كاتب الفضل بن يحيى ، وكان شاعراً أديباً . وكان اخوه الفضل ابن البجباح الحاجب ؛ وكان الحسن قد خدم المهدي وموسى وتقلد في أيام موسى مصر وخدم بعده الرشيد[2] . ومن أجل ذلك قال الخريمي قصيدته البائية التي يقول فيها[3] :

أرى بعدك الإخوان أبناء علّة   لهم نسبٌ في ودّهم لا أناسبه
فهل يرجعَنْ عيشي وعيشك مرة   ببغداد دهر منصف لا نعاتبه

أما صلة الجاحظ بالخريمي فلا موضع للشك في انها صلة قوية متينة مكينة وان كنّا في ضيق من الروايات التي تعيننا فيما يتعلق ببداية هذه الصلة وتطورها بمرور الزمن . ولعل الجاحظ لما قدم بغداد في زمن المأمون – كما أشرنا في موضعه – واتصلت بمسامعه شهرة هذا الشاعر التركي – الخريمي – لزمه وسمع عنه ؛ يقول البغدادي : وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ واحمد بن عبيد بن ناصح – المعروف بأبي عصيدة – يؤيد ذلك « انهما سمعا منه »[4] . وفي الحقيقة اذا نظرنا الى الجاحظ ومؤلفاته نجد ان صلة الجاحظ بالخريمي تنحصر في السماع منه والحديث عنه . لأن الجاحظ روى أبياتاً كثيرة عن الخريمي في مؤلفاته بوسائل شتى . ونحن لو جمعنا تلك الروايات التي جاء بها الجاحظ من أشعاره – في البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، ورسائله الأخرى – لأيقنّا ان علاقة الجاحظ من الناحية الأدبية بالخريمي علاقة واسعة جداً وتقوم بجانبها صداقة قوية . ومما يدل على ذلك انه كشف بعض دقائق الأمور عن

(١) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ : ص ٨٣٠ ، الجهشياري : ٢٦٨ .
(٢) راجع الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٩٤ .
(٣) راجع زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ج ٢ : ص ١٠٧٢ .
(٤) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٦ : ص ٣٢٦ .

الخريمي . فنحن لا نعرف مثلاً أول شعر قاله الخريمي الا برواية الجاحظ ؛ وقد ذكر الجاحظ[1] : قال ابو يعقوب الخريمي الاعور : أول شعر قلته هذان البيتان :

بقلبي سقام لستُ أحسن وصفه   على أنه ما كان فهو شديدُ
تمرّ به الأيام تسحب ذيلها   فتبلى به الأيام وهو جديد

كذلك الجاحظ سجل هجاء الخريمي لأبي دُلف .

ومن المعلوم ان الخريمي لم يكتف بالمدح لمن اتصل به وتقرب اليه واكتسب صداقته ومودته ، بل هجا أيضاً بعض من كان ببغداد في أيامه . وعلى ما فهمنا من روايات الجاحظ انه هجا أبا دلف القاسم بن عيسى بن معقل بن ادريس العجلي ، الذي كان سيد قومه أميراً وقائداً شجاعاً . وقد جاء الجاحظ بأبيات من هجائه له يقول فيها[2] :

اخلع ثيابك من أبي دُلف   واهرُب من الفجفاجة الصَّلِفِ
لا يُعجبنّك من أبي دلفٍ   وجه يضيء كدرّة الصدف
اني وجدتُ أخي أبا دُلفٍ   عند الفعال مُولَّدَ الشَّرف

وقد عاش الخريمي الى ان شهد الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون ، وقال في وصفها قصيدة طويلة من أروع الشعر التصويري ، وسجل الأحداث خيرها وشرها ، نعيمها وبؤسها . فكانت أبياته التي تصور حياة الترف وثيقة لما كانت عليه بغداد قبل الفتنة ، ويقول الاستاذ علي جواد[3] « انها جديرة ان تعد في

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ١ : ص ٢٢٤ .
(٢) راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ : ص ٣٥٧ .
(٣) راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٥ .

المعلقات لو كنا في عصر المعلقـات ؛ ترى أين كان شعراء العهـد العباسي من أمثالها ؟ » .

وقد روى الجاحظ أبياتاً من هذه القصيدة الطويلة[١] التي نقلهـا الطبري كاملة – وتقع في خمسة وثلاثين ومائة بيت – بحسب قيمتها التاريخية . ويقول الشاعر التركي فيها[٢] :

يا بُؤسَ بغدادَ دارِ مملكةٍ   دارت على أهلِهـا دوائرُها
امهلهـا اللهُ ثم عاقبهـا   لمّا أحاطت بهـا كبائرُها
بالخسْفِ والقذْفِ والحريق وبالـ   حربِ التي أصبحت تُساورُها
بل هل رأيت السُّيوفَ مُصلتةً   أشهرها في الاسواقِ شاهِرُها
والخيـل تستَنُّ في أزقّتهـا   بالتركِ مَسنونـة خناجرُها
والنَّفطَ والنـارَ في طرائقِها   وهابياً للدُّخان عامِرُها
أما رأيتَ الخيولَ جائـلةً   بالقـومِ منكوبـةً دوائرُها
أما رأيتَ النّسـاءَ تحت الجا   نيقِ تعادى شُعْثاً ضَفائرُها
تسألُ عن أهلِها وقد سُلبت   وابتزّ عن رأسهـا غفائرُها
يا ليت ما والدّهر ذُو دولٍ   يُرجى وأخرى تُخْشى بوادرُها
هل ترجعن أرضُنا كما غنيت   وقـد تناهت بنـا مصايرُها

وقد أصيب الخريمي في أواخر عمره ببعض المصائب التي أثرت تأثيراً عميقاً في نفسه ، وذلك موت أخيه الذي يقول في رثائه[٣] :

(١) راجع رسالة في نفي التشبيه (رسائل الجاحظ) ج ١ : ص ٢٨٣ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ١٧٦ ، ١٨١ .
(٣) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٣٦ .

أقولُ لعينيَ ان يكن ملّ مُسعدي   فأيتها العينُ السَّخينة أسعِدي
نظرتُ اليهِ فوق أعوادِ نعشِهِ   بمطروفةٍ حَيْرى تجور وتهتدي
فجاشت اليَّ النفسُ ثم رَددتُها   الى الصّبرِ فِعلَ الحازمِ المُتجلِّدِ
ولو يُفتدى ميتٌ بشيءٍ فديتهُ   بنفسي ومالي من طريفٍ ومُتلَدِ
ولكن رأيت الموت يمسي رَسوله   ويُصبحُ للنّفسِ اللجوجِ بمرصدِ

ثم موت ابنه ، ويقول في رثائه[١] :

وآثارُهُ في البيتِ حيثُ توجّهت   بي العين حزنٌ في الفؤادِ مُقيم
فَجُعتُ بشقّ النفسِ والهمّ والهوى   عَذابٌ لعمري في الحياة أليمُ
ألا كلُّ عيشٍ بعد فُرقة أحمدٍ   وكلُّ سرورٍ مـا بقيتُ ذميمُ

واشدها كلها ذهاب عينيه بعد ان جاوز السبعين[٢] ، فأنشد قصائد يتحسر فيها على عينيه ويقول[٣] :

أُصغي الى قائـدي ليخبرَني   اذا التقينـا عمّـن يُحيّيني
أُريدُ ان أعدِلَ السّلامَ وأن   أفصِلَ بين الشّريفِ والدُّونِ
أسمعُ ما لا أرى فأكره أن   أُخطىءَ والسّمعُ غيرُ مأمونِ
لله عيـني التي فُجعتُ بهـا   لو أن دهراً بهـا يواتيني
لو كنتُ خُيّرتُ ما أخذتُ بها   تعميرَ نوحٍ في ملكِ قارونِ

(١) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٢٦ .
(٢) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٢ : ص ٤٣٤ .
(٣) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ : ص ١١٣ .

كذلك يقول(١) :

كفى حزناً ان لا أزورَ أحبّتي   من القرب إلا بالتكلّفِ والجهدِ
كأني غريب بينهم لست منهم   فان لم يحولوا عن وفاءٍ ولا عهدِ
أقاسي خطوباً لا يقوم بثقلها   من الناس إلا كلُّ ذي مرّةٍ جَلدِ

وفي شعر آخر يقول(٢) :

فان تك عيني خبا نورها   فكم قبلها نورُ عينٍ خبا
فلم يَعْمَ قلبي ولكنما   أرى نور عيني اليه سرى
فأسرج فيه الى ضوئه   سراجاً من العلم يشفي العمى

ولعل الخريمي لم تطل مدته بعدما أصابه سلسلة من مصائب الدهر حتى مات في بغداد بعد ان نيف على الثمانين . ولكننا لا نعرف بالضبط سنة وفاته انما ذكر أحد المؤلفين ان الخريمي مات سنة ٨١٥ ، ٨١٦ أي ما يقابل عام ٢٠٠ للهجرة ؛ وقال آخر انه توفي سنة ٢١٤هـ(٣) .

الافشين

(؟. — ٢٢٦) — (؟. — ٨٤٠)

الافشين من الاتراك الأولين الذين برزوا في الجيش منذ أوائل عهد المأمون . اسمه خيذر من أبناء كاوس ، والافشين لقبه الذي كان يلقب به الأمراء الوطنيون قبل الاسلام في اشروسنة .

(١) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ج ٧ : ص ١٥٢ .
(٢) راجع عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٤ : ص ٥٧ .
(٣) راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٨ .

وكان أبوه كاوس ملك اشروسنة شمالي نهر زار افشان الأعلى . واعتنق كاوس الاسلام في عهد المأمون قبل خلافته لما كان والياً على خراسان . ويروي لنا المؤرخ الشهير أحمد بن يحيى البلاذري الذي كان قريب العهد من هذه الحوادث رواية قيمة في أمر كاوس ودخوله الاسلام بعد مقاتلات عديدة .

ولما صارت الخلافة الى بني العباس وتولى المأمون خراسان وذلك قبل خلافته ، أخذ يغزو من بلاد الترك الصغد واشروسنة وفرغانة ويوالي عليهم الغارات . ولكنه أخذ من جهة ثانية مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيها . وكتب اليه كاوس ملك اشروسنة يسأله الصلح على مالٍ يؤديه بشرط ان لا يغزو المسلمون بلده فأجيب الى ذلك .

فلما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨هـ امتنع كاوس من الوفاء بالصلح فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الاحول الكاتب لغزو اشروسنة في جيش عظيم . فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته . ولكن احمد بن أبي خالد اناخ على اشروسنة قبل وصول الاتراك . فاستسلم كاوس له ، وورد مدينة السلام واظهر الاسلام ، وملّكه المأمون على بلاده ثم ملك ابنه « خيذر بن كاوس »(١) الذي تذكره المصادر غالباً بلقبه الافشين او الافشين الاشروسني .

وهكذا انتسب الافشين الى بلاط الخليفة ونشأ في جو بغداد الصالح وتربى فيها على منهج الاسلام وتعلم اللغة والأدب والفقه بقدر ما يلزمه للقيادة والزعامة واعتنى المأمون به عناية خاصة وقربه حتى صار من نخبة قواده في عهده . وكان المأمون يولي الافشين القضاء على الثورات التي تقع في المملكة الاسلامية الواسعة . ففي سنة ٢١٦ سار الافشين الى مصر لاخماد بعض الثورات التي اخلّت بالأمن هناك . وقدم من بَرْقة منصرفاً عنها فأقام بمصر . وبعد حروب عديدة ظفر الافشين واستقر الأمن والصلح حتى رجع الى عاصمة الخلافة وذلك سنة ٢١٧هـ(٢) .

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٠٦ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٢٨٢ .

ولما آلت الخلافة الى المعتصم لمع الافشين كالنجم الساطع بين القواد . وقابل المعتصم في بداية أمره خطران مهمان ظهرا في عهد المأمون وأصبحا يهددان المملكة الاسلامية ، وهما بابك الخرمي وامبراطور الروم ، فجهز المعتصم حملة كبيرة للايقاع ببابك وذلك سنة ٢٢٠هـ . وقلد الافشين قائداً على الجند ، وبعد حروب طويلة تغلب الافشين عليه وحبسه مع أخيه اذ كان في البذّ — من بلاد اذربيجان — وكتب الافشين الى المعتصم بالظفر وقبض على بابك مع أخيه ، فأمر الخليفة بالقدوم بهما عليه .

ولما وصل هذا النبأ الى حاضرة الخلافة عمّ أهل بغداد السرور وأخذ الناس يفرحون كأيام العيد لنجاتهم هم والمملكة الاسلامية من شر هؤلاء الخبثاء وفسادهم . ويذكر لنا الطبري ان المعتصم كان يوجه الى الافشين كل يوم من حين فصل من « برزند » الى ان وافى سامراء فرساً وخلعة . وان المعتصم لعنايته بأمر بابك جعل من سامرّاء الى عقبة حُلوان خيلاً مضمّرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجرٍ مرتّبٍ . فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤدّيه من واحد الى واحد يداً بيد. وكان ما خلف حلوان الى اذربيجان قد رتبوا فيه دواب المرج ، فكانت يركض بها يوماً او يومين ثم تُبدّل ويُصيّر غيرها ، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل وأمرهم ان ينعروا اذا جاءهم الخبر ، فاذا سمع الذي يليه النعير تهيّأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه . فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين الى سامراء في أربعة أيام وأقل . فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هارون بن المعتصم وأهل بيت المعتصم[1] . فتوّج المعتصم الافشين وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرّقها في أهل عسكره ،

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٢ .

وعقد له على السند[1] ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه بأشعارهم البارعة . فقام ابراهيم بن المهدي في ذلك اليوم فقال[2] :

فهو فتح لم يرَ الناس له فتحاً نظيرا
وجزى الافشينُ عبدالله خيراً وحبورا
فلقد لاقى به بابكُ يوماً قمطريرا
ذاك مولاك الذي ألفيته جلداً صبورا

ومدح ابو تمام الافشين بقصائد رائعة منها[3] :

لقد لبسَ الافشينُ قسطلة الوغى   محشّاً بنصل السّيف غير مُواكل
وسارت بـه بين القنابل والقنـا   عزائمُ كانت كالقنـا والقنابـل
وجرّدَ من آرائهِ حين أضرمَت   به الحربُ حدّاً مثل حدّ المناصل
رأى بابكٌ منـه التي لا شوى لهـا   فتُرْجى سوى نزع الشّوى والمفاصِل
تراه الى الهيجـاءِ أول راكبٍ   وتحـت صبير الموتِ أول نازل
تسرْبَلَ سِرْبالاً من الصّبر وارتدى   عليه بعضبٍ في الكريهة قاصِل
وقد ظُللتْ عِقبانُ اعلامه ضُحىً   بعقبانِ طـيرٍ في الدّماءِ نواهِل
وعاداتُ نصرٍ لم تزل تستعيدُها   عِصابةُ حقٍّ في عِصابةِ باطِل
وما هو إلا الوحيُ او حَدٌّ مُرْهف   تُميلُ ظُباهُ أخدَعي كل مائل
فهذا دواءُ الدّاءِ من كلّ عالمٍ   وهذا دواءُ الدّاءِ من كل جاهِل
فيا أيهـا النوّامُ عن ريق الهدى   وقد جادَكم من ديمـةٍ بعد وابل
هو الحقُّ ان تستيقِظوا فيه تغنموا   وان تغفلوا فالسَّيفُ ليس بغافِل

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٣٤ .
(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٧٥ .
(٣) راجع ديوان أبي تمام ج ٣ : ص ٧٩ .

ومن قصيدته في مدح الافشين[١] :

بذّ الجلادُ البـذّ فهو دَفـين   ما ان بـه إلا الوحوش قطينُ
لم يُقر هذا السّيف هذا الصبر في   هيجـاءَ إلا عزّ هـذا الدّين
قد كان عُذرة مَغربٍ فافتضّهـا   بالسّيف فحـلُ المشرقِ الافشين
قـاد المنـايا والجيوش فأصبحت   ولهـا بأرشق قسطلٌ عثنون
لاقاك بابـك وهو يزأر فانثنى   وزئيره قـد عـاد وهو أنـين
اوقعت في ابرَشتويم وقائعـاً   أضحكن سِنَّ الدّين وهو حزين
ما نال ما قـد نال فرعونٌ ولا   هامـانُ في الدُّنيـا ولا قارون
فسيشكر الاسـلامُ ما أوليتـهُ   والله عَنـهُ بالوفـاءِ ضمين

***

فلما تمّ النصر بقيادة الافشين على بابك سار المعتصم على الروم لينتقم منهم . وكان الافشين قائد جيوشه مع بعض قواد الاتراك الآخرين . وقاتل الافشين وجنوده في حصار عمورية قتالاً لم ير الناس مثـله ، فيروي لنا الطبري[٢] : كانت الحرب في اليوم الثاني على الافشين وأصحابه ، فأجادوا الحرب وتقدموا وكان المعتصم واقفاً على دابته بازاء الثلمة واشناس وافشين وخواص القوّاد معه وكان باقي القواد الذين دون الخاصة وقوفاً رجّالة ، فقال المعتصم :

— ما كان أحسن الحرب اليوم . فقال عمر الفرغاني — أحد القوّاد — :

— اليوم أجود منها أمس .

ومدحه كثير من الشعراء والخطباء في أيام اقبال دولته . فقال ابو تمام حسن

(١) راجع ديوان أبي تمام ج ٣ : ص ٣١٨ .
(٢) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٤٠ .

التصرف في الشعر موف على كثير من شعراء عصره[١] :

وقد علم الافشين وهو الذي بـه   يصان رداء الملك من كل جاذب
بانك لما استحنك النصر واكتسى   اهابي تسفي في وجوه التجارب
بارشق اذ سالت عليهم غمامـة   جرت بالعوالي والعتاق الشـّوازب

***

ومع مرير الأسف لم تطل مدة اقبال دولة الافشين رغم خدمته الصادقة منذ أوائل عهد المأمون . فدخل الحساد بينه وبين المعتصم وأفسدوا ما بينهما ، ومن جملتهم أحمد بن أبي دواد . ويروي الدينوري ان أحمد بن أبي دواد قال للمعتصم :

— يا أمير المؤمنين ان أبا جعفر المنصور استشار انصح الناس عنده في أمر أبي مسلم ، فكان من جوابه ان قال :

— يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ فقال له المنصور :

— حسبك ، ثم قتل أبا مسلم[٢] .

فتغير المعتصم على الافشين وجعل عسكره نصفين : نصفاً مع الافشين ونصفاً مع اشناس « ولكن من الجائز جداً ان تكون هذه الانتصارات — أعني بابك وعمورية — بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له »[٣] . فلما احسّ الافشين بذلك « عزم على ان يهيّىء أطوافاً في قصره ويحتال في شغل المعتصم وقوّاده ان

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٥١٦ .
(٢) راجع الاخبار الطوال للدينوري ص ٤٠٥ .
(٣) راجع تاريخ الشعوب الاسلامية ، بروكلمان ج ٢ : ص ٤٨ .

يأخذ طريق الموصل حتى يجيء الى الزاب فيعبر بأثقاله على الأطواف حتى يعبر في دجلة ويدخل هو بلاد أرمينية ثم يصير الى بلاد الخزر مستأمناً ثم يدور الى بلاد الترك ويرجع من بلاد الترك الى بلاد اشروسنة »[1] .

هذا ما دبّره الافشين للخلاص من المعتصم ، ولكن صعب عليه الأمر فلم يمكنه ذلك ، ولم يفت المعتصم الوقت ، فعزل الافشين أولاً عن الحرس ثم أمر بحبسه . هيّئت الأسباب لاتهامه بالزندقة وألفت محكمة لمحاكمته ، وكان من أعضائها محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبي دواد .

ولقد تصفحنا وقائع هذه المحكمة كما نقلت الينا في المصادر التاريخية ، فوجدنا انه لما تمّ تأليف المحكمة ، أحضر شرذمة من الوجوه لتبكيت الافشين بما هو عليه . وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان الذين أحضروا « المازيار » – صاحب طبرستان – « والموبذ » و «المرزبان بن تركش» – وهو أحد ملوك الصغد – ورجلان آخران من أهل الصغد . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين وقال للافشين :

– تعرف هذين ؟ قال: نعم ! هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجداً باشروسنة فضربت كل واحد منهما ألف سوط . وذلك ان بيني وبين ملوك الصغد عهداً ان اترك كل قوم على دينهم وما هم عليه ، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم – يعني أهل اشروسنة – فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً فضربتهما على هذا ألفاً لتعديهما ومنعهما القوم من بيعهم ، فقال محمد :

– ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ فقال الافشين : هذا كتاب ورثته عن أبي فيه ادب من آداب العجم وما ذكرت من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك ، ككتاب كليلة

(١) راجع الطبري ج ١٠ : ص ٣٦٤ .

ودمنة وكتاب مزدك في منزلك ، فما ظننت ان هذا يخرج من الاسلام . ثم تقدم الموبذ فقال :

– ان هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم انها ارطب لحماً من المذبوحة . فقال الافشين : خبّروني عن هذا الذي يتكلّم بهذا الكلام هل ثقة هو في دينه ؟ وكان الموبذ مجوسياً فقالوا : لا ! فقال الافشين : فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدّلونه ؟ ثم تنحى الموبذ وتقدم المرزبان فقال :

– أليس يكتبون اليك بكذا وكذا بالأشروسنية ؟ قال : بلى . قال: أفليس تفسيره بالعربية « الى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان » ؟ قال : بلى . قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون ان يقال لهم هذا ؟ فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ؟ فقال الافشين : كانت هذه عادة القوم لأبي وجدّي ولي قبل ان أدخل في الاسلام فكرهت ان أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم .

وسئل أيضاً عن الرسالة التي كتبها « خاش » أخو الافشين – الى قوهيار أخي المازيار – حيث هو يشجعه لقلب المملكة الاسلامية واعادة المملكة العجمية ؛ فقال الافشين : « هذا يدّعي على أخيه ودعوى أخي لا تجب عليّ . واتهم أيضاً بترك الاختتان . فقال : خفت ان أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت ولم أعلم ان في تركها الخروج من الاسلام[1] .

وبعد فهذا ما نقله المؤرخون – وانما أوجزناه ايجازاً – حول هذه المحكمة والاتهامات التي وجهت الى الافشين . وهنا يتجلى أمامنا سؤال هام وهو : هل هذا سبب كاف لقتل رجلٍ وصلبه واحراق جثّته ، خصوصاً اذا كان هذا الرجل هو الافشين الذي دخل في الاسلام وملّكه المأمون على بلاده فخدمه طول عهده بالصدق والوفاء ، ثم جاء المعتصم فرفع شأنه الى حد ان صار قائد

(١) راجع الطبري ١٠/٣٦٥ ، والكامل ٥/٢٦٠ وما بعدها .

جيوشه وخدمه أيضاً بالعهد والوفاء ؟ ويذكر فيليب حتي رواية تؤكد لنا صداقة الافشين ووفاءه للمعتصم وهي : مرة أراد المعتصم ان يلعب بالصولجان معه ورفض القائد التركي الافشين ان يلعب بالصولجان ضد الخليفة وقال :

– لا أرضى ان أكون ضد أمير المؤمنين حتى في اللعب[1]. اذن فكيف يكون هذا الرجل ضد الخليفة ويتحين الفرصة لقلب المملكة الاسلامية ومحو الخلافة ويكتم سريرة نفسه منذ عهد المأمون الى ان جاء عهد المعتصم الى ان اتهم بالزندقة ؟؟

فانظر كيف يتهم القاضي الافشين بكتاب فيه الكفر بالله ، مع انه من قبيل كتاب مزدك وكليلة ودمنة ليس الا ؛ وجاؤوا برجل مجوسي لتبكيته مع انهم لا يثقون بدينه ؛ وأيضاً يتهمونه برسالة أخيه التي يحرض فيها على الخروج على أمير المؤمنين والقيام على سلطانه ويتجاهل القاضي حكم الله عز وجل ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2] وينقل أحمد أمين رواية التبريزي ويقول[3] : لم يكن الافشين كافراً ولا منافقاً وانما كان رجلاً من الفرس(*) اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته واعتمد عليه في مهام أموره حتى وكل اليه مقاتلة بابك الخرمي فمضى اليه في ألوف وأسره. .غير ان الحساد أفسدوا ما بينهما فذكروا للمعتصم : « انه منطو على خلافك » وقالوا للافشين : « ان المعتصم قد عزم على القبض عليك » . فانقبض عنه حذراً من القبض عليه فتحقق المعتصم – بانقباضه – ما كان أخبر به عنه . فأخذه وأحرقه وصلبه .

(١) راجع P. K. Hitti, History of the Arabs, P. 339.

(٢) راجع سورة الزمر ، الآية : ٧ .

(٣) راجع ضحى الاسلام ، أحمد أمين ١/١٤٦ .

(*) كاد المحققون يتفقون على ان الافشين أصله تركي من ملوك ما وراء النهر ، ومع مرير الاسف هذا ما وقع بشأن كثير من مشاهير الاتراك وكبارهم الذين ذكروا بين الفرس او العجم او العرب أحياناً مع كونهم من الاتراك كما رأينا في الخرمي والفتح بن خاقان ، للمؤلف .

والحقيقة ان الافشين أراد ان يبيّن حقيقة الحال للمعتصم كما كان في الواقع ، وان يكشف القناع عن خفايا هذا اللعب من المقربين بدسائسهم العجيبة . وطلب رجلاً من جلسائه يثق به ورجا منه حمل رسالته الى المعتصم . فبعث المعتصم رجلاً من حاشيته الى « لؤلؤة » – المكان المرتفع الذي بُني لأجل الافشين – فقال الافشين لرسول المعتصم[1] :

« قل لأمير المؤمنين أحسنت اليّ وشرّفتني وأوطأت الرجال عقبي ثم قبلت فيّ كلاماً لم تتحقق منه عندك ولم تتدبّره بعقلك، كيف يكون هذا، وكيف يجوز لي ان أفعل هذا الذي بلغك ؟.. انما أنا عبد من عبيدك ، ولكن مثلي ومثلك يا أمير المؤمنين مثل رجل ربّى عجلاً له حتى أسمنه وكبر وحسنت حاله وكان له أصحاب اشتهوا ان يأكلوا من لحمه فعرّضوا له بذبح العجل فلم يجبهم الى ذلك فاتفقوا جميعاً على ان قالوا له ذات يوم : ويحك لم تربي هذا الأسد ؟ هذا سبع وقد كبر والسبعُ اذا كبر يرجع الى جنسه . فقال لهم : هذا عجل بقر ما هو سبع ! فقالوا : هذا سبع ، سل من شئت عنه ، وقد تقدموا الى جميع من يعرفونه فقالوا له : ان سألكم عن العجل فقولوا له : هذا سبع . فكلما سأل الرجل انساناً عنه وقال له : أما ترى هذا العجل ما أحسنه ؟ قال الآخر : هذا سبع هذا أسد ويحك ! فأمر بالعجل فذبح . ولكني أنا ذلك العجل كيف أقدر ان أكون أسداً ؟ الله الله في أمري ! اصطنعتني وشرفتني وأنت سيدي ومولاي أسأل الله ان يعطف بقلبك عليّ » .

ولكن استرحام الافشين لنفسه لم ينفع بل اشتد عليه المعتصم فأمر بمنع الطعام عنه الا القليل . فكان يدفع اليه في كل يوم رغيفاً حتى مات في شعبان سنة ٢٢٦هـ[2] ، ودخل ابن الزيات – حسب رواية الجاحظ – على الافشين قبل موته وهو محبوس فقال يخاطبه[3] :

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣ .

(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٤ .

(٣) راجع المحاسن والاضداد للجاحظ ص ٥٣ .

واصبر لها صبر أقوام نفوسُهمُ   لا تستريحُ الى عَقلٍ ولا قوَدِ

فقال الافشين : من صحب الزمان لم ينج من خيره او شره ووجـد الكرامة والهوان ثم قال :

لم ينجُ من خيرها او شرّها احدٌ   فاذكر شوائبها ان كنت من أحد
خاضت بك المنية الحمقاء غمرتها   فتلك أمواجها ترميك بالزَّبَدِ

فلما مات الافشين في حبسه عرضوه على ابنه فطرحوه بين يديه فنتفت لحيتـه وشعره ثم حمل الى منزل ايتاخ التركي فلم يلبث هناك حتى أخرجوه فصلبوه على باب العامة ليراه الناس ثم طرح بباب العامة مع خشبته فأحرق وحمل الرماد وطرح في دجلة .

***

نعم هكذا ظفر المقربون مـن الأمراء والوزراء في إغواء المعتصم للفتك بالافشين الذي أفنى عمره في ميدان الحرب وحمل لواء نصرة الاسلام حتى عوقب باحراق جثته وطرح رماده في دجلة جزاء لخدمته السابقة من عهد المأمون الى ان اتهم بالزندقة في أيام المعتصم . ويقول الثعالبي[١] : « بعث المعتصم ايتاخ الى الافشين وقال له : قل يا عدوّ الله فعلت وصنعت وكيف رأيت صنع الله بك ؟ فقال الافشين :

— يا أبا منصور قد ذهبت بمثل هذه الرسالة الى علي بن هشام فقال : يا أبا الحسن قد ذهبت بمثل هذه الرسالة الى عجيف بن عنبسة قال : انظر من يأتيك بها ! وأنا أقول لك الآن : انظر من يأتيك بها » ويزيد الثعالبي « فما مرّت الا أيام قلائل حتى حُبس ايتاخ ثم قتل ».

(١) راجع لطائف المعارف للثعالبي ص ١٤٣ .

ومما هو جدير بالذكر ان محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبي دواد – من أعضاء هذه المحكمة – عوقبا بمثل ما عوقب به الافشين بل أشد وأفظع منه . فمثلاً محمد بن عبد الملك الزيات غضب عليه المتوكل وحبسه وأمر بقبض ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان، فلم يزل أياماً في حبسه ثم أمر به فقـُيِّد ومنع من الطعام ومنع أيضاً من النوم . ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد – وهو أول من أمر بعمل ذلك التنور – ووكل به معذباً مخصوصاً ، وكان يقول[١] :

— يا أحمد بن عبد الملك لم يقنعك النعمـة والدواب الفره والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وانت في عافية حتى طلبت الوزارة . ذق ما عملت بنفسك . فذاق وبال أمره ومات في التنور بعد ان عذت في السجن بعذاب أليم ، وطرح جسده على باب من خشب فغسل ودفن . ومن العجيب ان الأمر لم ينته بهذا بل سلط عليه بعض الكلاب فنبشوه وأكلوا لحمه .

وأما أحمد بن أبي دواد ، فلما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة وكان الحسين بن الضحاك يقول[٢] : « ابن أبي دواد عندنا لا يُحسن اللغة ، وعندكم لا يحسن الكلام ، وعند الفقهاء لا يحسن الفقه ، وهو عند المعتصم يعرف ذلك كله » . وقد أصابه الفالج وذهب شقه الايمن فمات مفلوجاً .

***

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٨ وما بعدها .
(٢) راجع وفيات الاعيان ج ١ : ص ٦٦ .

ابراهيم بن العباس الصولي

(١٧٦ — ٢٤٣) — (٧٩٢ — ٨٥٧)

نسبه ونشأته

هو أبو اسحق الكاتب ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولي التركي من رجال الاتراك الذين نبغوا في حاضرة الخلافة ولعبوا دوراً هاماً في الدولة العباسية وخدموا في الحكومة والادارة .

ولد ابراهيم بن العباس في « جرجان » سنة ١٧٦هـ وقيل ١٦٧هـ[١] ، وهو وأخوه عبد الله — مثل الفتح بن خاقان — من أبناء ملوك الاتراك الذين نزلوا الى حاضرة الخلافة بعدما استولى العرب على أوطانهم . وكان جده « صول[*] » رجلا تركياً ، كان هو وأخوه « فيروز » — ملكي جرجان — تمجسا وصارا أشباه الفرس »[٢] ، فلما حضر يزيد بن المهلب بن أبي صفرة « جرجان » أمنهما ، فأسلم « صول » على يده ودخل في طاعته ولم يزل معه حتى قتل يزيد يوم العقر[٣] [**] . وكان جده محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها ، وكان يكنى أبا عمارة وقتله عبد الله بن علي العباس لما خالف مع مقاتل بن حكيم العكي وغيره[٤] .

---

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ١ : ص ٢٦٠ .

(*) صول هي من بعض ضياع جرجان ويقال لها « جول » (ابن خلكان ١/ ٢٧) .

(٢) راجع الاغاني ج ١٠ : ص ٤٣ ، وفيات الاعيان ١/ ٢٨ .

(٣) راجع الاغاني ج ١٠ : ص ٤٣ .

(**) العقر : اسم لعدة مواضع ، منها عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة وفي هذا الموضع قتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة .

(٤) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ : ص ٢٨ .

وقد نشأ ابراهيم في حاضرة الخلافة وتعلم اللغة والأدب والعلم حتى صار كاتباً حاذقاً وشاعراً بليغاً ومنشئاً فصيحاً . وكان دعبل بن علي الخزاعي يقول[١] : لو تكسّب ابراهيم بالشعر لتركنا في غير شيء وكان يتعجب من قوله :

ان امرءاً ضنّ بمعروفه   عني لمبذولٌ له عذري

ما أنا بالراغب في عُرفه   ان كان لا يرغب في شكري

وأخذ ابراهيم يتكسب في حداثته بشعره ، ورحل الى الملوك والأمراء وأنشدهم القصائد ومدحهم فيها وربما أخذ منهم الجوائز والاحسان[٢] . ويخبر ابن خلكان[٣] انه اتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل . وتنقل ابراهيم في الأعمال الجليلة والدواوين وولاه المأمون أولاً ديوان الضياع مكان موسى بن عبد الملك[٤] ، ثم علا شأنه وصار ممن ينوبون في ديوان الرسائل الى ان مات بسر من رأى . ولا يخفى علينا ان ديوان الرسائل في الممالك الاسلامية كان من أهم ما تدور عليه السياسة العامة للدولة . وكان لا يعهد به الا لذوي الشرف والنباهة . وقد كان ابراهيم بن العباس الصولي ممن ينوبون فيه حتى أوائل عهد المأمون .

ولما قدم الجاحظ الى بغداد — في أيام المأمون — اتصل بابراهيم بن العباس وصار من صميم أصدقائه ، ثم قدم اليه بعض رسائله ومن جملتها « كتاب الزرع والنخيل » فأعطاه الصولي خمسة آلاف دينار[٥] ولعل صلة الجاحظ مع ابراهيم ابن العباس لا تنحصر في تقديم الرسالة وأخذ الجائزة فقط بل تؤكد لنا المصادر : ان ابراهيم كان ممن يعرف للجاحظ حقه ويقدر مكانته من ناحية العلم والأدب والسياسة والكياسة ويعرف سعة صدره وفضل أدبه وتبحر علمه ومعرفته ،

---

(١) راجع الأغاني ج ١٠/ ٤٤ ، معجم الأدباء ج ١/ ٢٦٢ .

(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٩٩ .

(٣) راجع وفيات الاعيان ج ١/ ٢٧ ، الاغاني ج ١٠/ ٤٤ .

(٤) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٢٩٩ .

(٥) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٧٥ .

ولا ادلّ على ذلك من تفوقه على كثير من الناس في ديوان الرسائل. فان الجاحظ كان يخلفه في الديوان اذا غاب عنه ابراهيم في شأن من شئونه الخاصة او العامة ، ولذلك « كان الناس يلقبونه خليفة ابراهيم بن العباس »[1] .

بقي ابراهيم يتولى هذا المنصب الخطير طوال أيام المأمون والمعتصم والواثق فلما كانت دولة المتوكل عمل ابراهيم مستشاراً في جميع الأمور الهامة التي تتعلق بالدولة . وولى المتوكل محمد بن عبد الملك الوزراة . فلما تمت توليته عزل ابراهيم ابن العباس عن الاهواز واعتقل واوذي . وكان محمد قبل الوزارة صديقه ، وكان يؤمّل منه ان يُسامحه ويطلقه فكتب اليه[2] :

فلو أذنب دهرٌ وانكر صاحبٌ   وسُلّط أعداءٌ وغاب نصيرُ
تكون عن الأهواز داري بنجوةٍ   ولكن مقاديرٌ جرت وأمور
واني لأرجو بعد هـذا محمـداً   لأفضَل ما يُرْجى أخٌ ووزير

فأقام محمد على قصده وتكشفه والإساءة اليه حتى بلغ منه كل مكروه . فصادر منه الف الف وخمسمائة الف درهم . فقال الصولي فيه[3] :

يا صديقي بالأمس صرت عدوّاً   سُؤتني ظالمـاً ولم ترَ سُوّا
صرتَ تـُغري بي الهموم وقد كنـ   ـتَ لقلـبي من الهموم سلوّا
أيُّ واشٍ وشى وأيّ عدوّ   دبَّ حتى نبوت عني نـُبُوّا
كلما ازددتُ صِحّةً لـك الودّ   تزيّـدت نبـوة وعتـُوّا

فلم تمر الأيام حتى غضب المتوكل على ابن الزيات وفعل به أكثر مما فعل ابن الزيات

---

(١) راجع الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء لبلاّ ص ٣٨٨ .
(٢) راجع الاغاني ج ١٠ : ص ٥٠ .
(٣) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الأدبية) ص ١٦٧ .

بابراهيم بن العباس : أمر المتوكل بحبسه وقبض ما في منزله وتبلغ قيمته تسعين الف دينار[1] ولم يكتف المتوكل بحبسه بل أمر بتقييده ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد فعذّب فيه أياماً الى ان مات في سنة ٢٣٣هـ[2] . ولما مات ابن الزيات قال ابراهيم[3] :

وأنه قد عـُدّ في الأموات   أيقنتُ أن موتـه حياتي

وولى المتوكل ابراهيم بن العباس ديوان زمام النفقات مكان أبي الوزير أحمد بن خالد سنة ٢٢٤هـ[4] . ودبّ حسد بعض من في ديوان الرسائل بسبب تولية المتوكل ابراهيم هـذا المنصب ومن جملتهم احمد بن المدبّر ؛ يقول وهب بن سليمان بن وهب : كنت أكتب لابراهيم بن العباس على ديوان الضياع وكان رجلاً بليغاً ولم يكن له في الخراج تقدم ، وكان بينه وبين احمد بن المدبر تباعد . فقال احمد للمتوكل :

— قلدت ابراهيم بن العباس ديوان الضياع وهو متخلف آية من الآيات لا يحسن قليلا ولا كثيراً ، وطعن عليـه حتى قال : فانه لا يعرف أسماء عماله في النواحي ولا يعلم ما في دساكرهم من تقديراتهم وكيولهم ! وأطال في ذكر هذه الأمور ، فالتفت المتوكل الى ابراهيم فقال : ما سكوتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما فان أذن لي امير المؤمنين أنشدتهما :

رَدّ قولي وصدّق الأقوالا   واطـاع الوُشاة والعُذالا
أتـُراه يكون شهر صدودٍ   وعلى وجهـه رأيت الهلالا

---

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣٠ .
(٢) راجع الطبري ج ١١ : ص ٢٩ .
(٣) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ١ : ص ٢٦٤ .
(٤) راجع الطبري ج ١١ : ص ٣١ .

فقال المتوكل : دعونا من فضول ابن المدبر واخلعوا على ابراهيم بن العباس ، فخلع عليه وانصرف الى منزله[١] .

وكان ابراهيم يؤدي أموراً هامة في عهد المتوكل : اذا أراد الخليفة ان يكتب رسالة الى عماله في الآفاق يأمر بكتابتها ابراهيم بن العباس ، كالرسالة التي كتبها في سنة ٢٣٥هـ بشأن سياسة الدولة تجاه النصارى واليهود[٢] . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة حوالي سنة ٢٣٥هـ بولاية العهد ، أطلق ابراهيم لسانه في مدح بني المتوكل المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد . وقال فيهم[٣] :

اضحت عُرى الاسلام وهي منوطة　　بالنصر والإعـزاز والتـأييدِ
بخليفـةٍ من هـاشمٍ وثلاثـةٍ　　كنفوا الخلافـة من ولاةِ عهـود
كنفتهمُ الآباءُ واكتنفت بهـم　　فسعوا بأكرم انفسٍ وجـُدود

وقال في المعتز[٤] :

اشرقَ المشرقُ بالمعـ　　ـتزّ بالله ولاحـا
واستنار العهدُ حتى　　شقّ في الليل صباحا
اوسع الله بـه الذمّـة　　عدلاً وسماحـا

وقال أيضاً فيهم[٥] :

الله اظهرَ دينـهُ　　واعـزّه بمحمـدِ
والله أكرم بالخـلا　　فة جعفر بن محمـدِ

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ١ : ص ٢٧٥ ،
(٢) راجع الكامل في التاريخ ج ٥/٢٨٤ ، الطبري ج ٣٨/١١ .
(٣) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الادبية) ص ١٣١ .
(٤) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الادبية) ص ١٣٠ .
(٥) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الادبية) ص ١٣٢ .

والله أيـدّ عهـده　　بمحمّـد ومحمّـد
ومؤيّدٍ لمؤيّديـ　　ـن الى النبي محمـد

ولا يفوتنا ان نذكر هنا بعض مـا وجدناه من قصصه اللطيفة ونوادره الجميلة ؛ قيل لابراهيم بن العباس ان فلاناً يحب ان يكون وليّاً ، فقال :

– انا والله أحب ان يكون الناس جميعاً اخواني ولكني لا آخذ منهم إلا من اطيق قضاء حقه وإلا استحالوا أعداءً ، وما مثلهم الا كمثل النار : قليلها مقنع وكثيرها محرق ، وقد صدق من قال[١] :

عدوك من صديقك مستفاد　　فلا تستكثرنّ من الصِّحابِ
فإنّ الداء أكثر مـا تراه　　يكون من الطعام أو الشراب

وفي خبر أبي العيناء : كنت عند ابراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً فنقـط من القلم نقطةٌ مُفسدة فمسحها بكمّه ، فتعجبتُ من ذلك فقال :

– لا تعجب ، المال فرع والقلم أصل ، ومن هذا السّواد جاءت هذه الثياب والأصل أحوج الى المراعاة من الفرع . ثم فكر قليلاً وقال[٢] :

اذا ما الفكر ولّد حُسن لفظ　　وأسلمه الوجود الى العيان
ووشّاه فنمنمـه مُسـِدٌّ　　فصيح في المقـال بـلا لسان
ترى حُلل البيان منشّرات　　تجلى بينهـا صُورُ المعاني

وحدث احمـد بن يزيد المهلبي قال : لمـا قرأ ابراهيم بن العباس على المتوكل رسالته الى أهل حمص « أما بعد ، فان أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما

(١) راجع ديوان ابراهيم بن العباس (الطرائف الادبية) ص ١٢١ .
(٢) راجع الاغاني ج ١٠ : ص ٦١ .

قوّم به من أُود وعدل به من زيغ ولمّ به من منتشر أستعمال ثلاث يقدم بعضهن أمام بعض أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ثم يستظهر به في تحذير وتوقيف ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها :

اناةٌ فإن لم تُغنِ اعقب بعدها   وعيداً فان لم يُغنِ اغنت عزائمه

عجب المتوكل من حسن ذلك وأومأ الى عبيدالله : أما تسمع ؟ فقال :

– يا امير المؤمنين ان ابراهيم فضيلة خبأها الله لك واحتبسها على أيامك ، وهذا أول شعر نفذ في كتاب عن خلفاء بني العبّاس[1] .

ومما هو جدير بالذكر ان ابراهيم بن العباس من الاتراك الأولين الذي نبغوا في الدولة العباسية مثل الفتح والخريمي وغـيرهما في حقول العلم والأدب بجانب مشاهير قواد الاتراك . يقول المسعودي[2] : « وكان ابراهيم كاتباً بليغاً وشاعراً مُجيداً ، لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منـه » . وابن خلكان يقول[3] : « ابراهيم بن العباس أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً واشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها الى العشرة وهو أنعت الناس للزمان وأهله » . كذلك ياقوت يقول[4] : « وكان ابراهيم كاتباً حاذقاً بليغاً فصيحاً منشئاً اذا قال شعراً اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته » وفي الأغاني[5] : « ان ابراهيم كان يقول الشعر ثم يختاره ويُسقط رَذْله ، ثم يُسقط الوسط ثم يسقط ما يُسبق اليه فلا يدع من القصيدة إلا اليسير وربما لم يدع منها الا بيتاً او بيتين فمن ذلك قوله :

ولكنّ الجواد ابا هشام   وفيُّ العهد مأمونُ المغيبِ

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ١ : ص ٢٧١ .
(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ١ : ص ٢٩٩ .
(٣) راجع وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ : ص ٣٨ .
(٤) راجع معجم الادباء لياقوت ج ١ : ص ٢٦٢ .
(٥) راجع الاغاني ج ١٠ : ص ٤٣ .

وهذا ابتداء يدل على ان قبله غيره » .

وكان احمد بن يحيى ثعلب يقول : ابراهيم بن العباس اشعر المحدثين وما روي شعر كاتب غيره ، وكان يستجيد قوله[1] :

لنا ابل كومٌ يضيق بها الفضا   ويفترُّ عنها ارضُها وسماؤها
فمن دونها ان تُستباح دماؤنا   ومن دوننا ان تُستباح دماؤها
حمى وقرى فالموتُ دون مرامها   وايسرُ خطبٍ يوم حقّ فناؤها

ولا يخفى علينا ان الظروف الاجتماعية والسياسية كانت خانقة في عهد المتوكل بالنسبة الى ما كان عليه الحال في عهد المعتصم والواثق ، لان الخليفة فقد ثقته بقواد الاتراك بعد ان ارتقى العرش فقتل بعضهم حيناً وفتك ببعضهم حيناً آخر ؛ وبالرغم من هذا كله كان ابراهيم يتولى ديوان الضياع والنفقات الى ان مات بسامرّاء سنة ٢٤٣هـ للنصف من شعبان[2] .

وتذكر المصادر من مصنفاتـه[3] : « ديوان رسائل » و « ديوان شعر » و « كتاب الدولة الكبير » و « كتاب العطر » و « كتاب الطبيخ » .

***

(١) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٦ : ص ١٦٧ .
(٢) راجع مروج الذهب للمسعوي ج ٢ : ٣٠١ .
(٣) راجع الاعلام للزركلي ج ١ : ص ٣٨ .

الفتح بن خاقان

(... — ٢٤٧هـ) — (... — ٨٦١م)

نسبه ونشأته

هو من رجال الاتراك الذين تميزوا في الدولة العباسية في حاضرة الخلافة ، ورد اسمه في معجم الأدباء[١] « الفتح بن خاقان بن أحمد القائد » و « والفتح بن خاقان بن غرطوج » وفي موضع آخر « الفتح بن خاقان بن غرطوج التركي ابو أحمد » ، وفي فوات الوفيات[٢] « الفتح بن خاقان بن غرطوج » وفي الاعلام[٣] « الفتح بن خاقان بن احمد بن غرطوج أبو محمد » . ولعل الأصح ان اسمه هو « الفتح بن خاقان بن احمد بن غرطوج أبو أحمد» وانما عُرف بالفتح بن خاقان كما نجده عند الجاحظ .

ويظهر لنا انه كان من أولاد الملوك وربما قدم مع أبيه « خاقان غرطوج »[٤] او « عُرطوج » الى حاضرة الخلافة في عهد المعتصم . وكان أبوه « خاقان معظماً عند المعتصم »[٥] يزوره ويكرمه ويحسن اليه . ولعل هذه الفكاهة التي جرت في بيته أثرت على المعتصم حتى تبنَّى الفتح وأدخله في قصره : « دخل المعتصم على أبيه خاقان يوماً يعوده . فرأى الفتح لم يثغر ، فمازحه ثم قال :

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٦ .

(٢) راجع فوات الوفيات ج ٢ : ص ٢٤٦ .

(٣) راجع الاعلام للزركلي ج ٥ : ص ٣٣١ .

(٤) راجع معجم الادباء ١١٦/٦ ، الاغاني ٢١٥/٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٢ : ص ٣٢٥ .

— ايما أحسن دار الخليفة أم داركم ؟ فقال الفتح — وهو صبي له سبع سنين — :

— يا سيدي دارنا أحسن اذا كان أمير المؤمنين فيها . فقال المعتصم :

— والله لا أبرح حتى أنثر عليه مائة الف درهم[١] . ويزيد صاحب الأغاني : «فتعجب منه وتبنّاه ، وكان الواثق له بهذه المنزلة وزاد المتوكل عليهما »[٢] .

نعم نشأ الفتح في بغداد في قصر المعتصم ووجد جوّاً صالحاً لتنمية استعداده الذي تمكن في نفسه ، وتعلم اللغة والأدب اذ انه كان في نهاية الفطنة والذكاء وحسن الأدب[٣] ، حتى صار كاتباً بليغاً وشاعراً فصيحاً وخطيباً مفوّهاً ، يحسن الكلام ويجيد الشعر .

تميز الفتح في بلاط الخليفة ، وأخذ يتولى المناصب الهامة في الدولة من عهد المعتصم الى ان قتل في أيام المتوكل . وله مع المعتصم وقائع كثيرة تدل على حسن أدبه وفضله وجميل عشرته . فمرة غضب المعتصم عليه ثم رضي عنه وقال له :

— ارفع حوائجك لتُقْضى ، فقال :

— يا أمير المؤمنين ليس شيء من عرض الدنيا وان جل يفي برضى أمير المؤمنين وان قل . فأمر المعتصم ان يُحشى فمه جوهراً[٤] .

ومضى عهد المعتصم وخلفه الواثق — ابنه — ودام الفتح في خدمته المهمة في زمن الواثق ولكن اقباله ازدهر وصار من الشخصيات الخطيرة في عهد المتوكل اذ استوزره المتوكل بل اتخذه أخاً له وقدمه على جميع أهله وأولاده وكان خاصاً بـه حظيّاً عنـده . وكان المتوكل لا يصبر عنـه قدر ساعة ، قدّمه واستوزره

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٧ .

(٢) راجع الأغاني ج ٧ : ص ٢١٥ .

(٣) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٧ .

(٤) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٩ .

ولاه على الشام وأمره ان يستنيب عنه[١] . وفي سنة ٢٣٣هـ ولاه ديوان الخراج بعد ان عزل عنه الفضل بن مروان . وله مع المتوكل أخبار حسان يفرح بها السامعون . وفي حديث النوبختي[٢] : انه افتصد المتوكل فقال لخاصته وندمائه : اهدوا إليّ يوم فصدي . فاحتفل كلُّ واحدٍ منهم في هديّته . وأهدى الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالاً . فدخلت اليه ومعها جام ذهب في نهاية الحسن ودنُّ بلّور لم يُرَ مثله فيه شراب يتجاوز الصفاتِ ورقعة فيها مكتوب :

اذا خرج الامامُ من الدّواءِ   وأعقب بالسلامة والشفاءِ
فليس له دواءٌ غير شُرْبٍ   بهذا الجام من هـذا الطلاء
وفضُّ الخاتمِ المهدى اليـه   فهذا صالحٌ بعـد الدّواء

فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه . وكان بحضرته يوحنا بن ماسويه[*] فقال له :

— يا أمير المؤمنين ، الفتح والله اطبُّ مني فلا تخالف ما أشار به .

ولما كان المتوكل يريد ان يتنزه او ان يسافر الى أي بلد من بلدان المملكة كان يختار الفتح بن خاقان لرفقته كما فعل في سفره الى الشام[٣] .

وبجانب ذكائه وفطنته وسياسته وتدبيره في الحكومة وفراسته في أمور الدولة تميز الفتح بين الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة في زمنه بثلاثة أمور ، هي : حبه للعلم وقراءته ، واحترامه للعلماء والأدباء وتقديمهم على سائر الناس ،

(١) راجع فوات الوفيات ج ٢ : ص ٢٤٦ .
(٢) راجع كتاب التحف والهدايا ص ٢٧ .
(*) يوحنا بن ماسويه : من علماء الاطباء سرياني الأصل . وكان المتوكل لا يتناول شيئاً من اطعمته الا بمعرفته .
(٣) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٧ .

وغرامه بالكتب غراماً شديداً لم يُر بين الوزراء والأمراء مثله . وهاك شهادة أبي هفّان الذي يقول[١] : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر منهم : الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى انـه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر ؛ والفتـح بن خاقان ، فانه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمّه او خفـه وقرأه في مجلس المتوكل الى حين عوده اليـه حتى في الخـلاء ؛ واسماعيل بن اسحاق القاضي ، فاني ما دخلت اليه الا رأيته ينظر في كتاب او يقلب كتاباً .

ومن غرام الفتح بن خاقان بالكتب انه حاول جمع جميع الكتب المتداولة بين الناس في حوزته ، وأسس خزانة كبيرة من النوادر ، وعهد الى رجال أكفاء بالكتابة واستنساخ الكتب له ، ومن جملتهم علي بن يحيى المنجم . وروي انه كان للفتح خزانة حكمة لم ير الناس أعظم منها كثرة وحسناً جمعها له علي بن يحيى المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح نفسه[٢] .

ومن ناحية أخرى كان الفتح مقصود الجانب من أكابر العلماء وفحول الأدباء وأرباب القلم من كل فن ونوع . وكان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفة وأدباء البصرة منهم المفضل بن سلمة اللغوي المعروف . وكان الفتح يتبارى في تفسير الآيات مع المبرد وأمثاله . وللبحتري فيه مدائح كثيرة . ويخبرنا البحتري ان المتوكل قال له : قل فيّ شعراً وفي الفتح فاني أحبّ ان يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ولا يفقدني فيذل فقل في هذا المعنى ، فأنشده[٣] :

سيّدي انت كيف أخلفت وعدي   وتثاقلت عـن وفـاء بعهدي
لا ارتني الأيام فقـدك يا فتـ   ـحُ ولا عرفتك ما عشت فقدي

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت ج ٦ : ص ٥٧ .
(٢) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٧ .
(٣) راجع أخبار البحتري ص ٥٥ .

أعظم الرُّزءِ ان تقدّم قبلي ⁂ ومن الرّزء ان تؤخّر بعدي
حسداً ان تكون إلفاً لغيري ⁂ اذ تفرّدت بالهوى قبل وحدي

فقال المتوكل : أحسنت والله يا بحتري وجئت بما في نفسي، وأمر لي بألف دينار .

ومما هو جدير بالذكر ان كثيراً من العلماء والظرفاء والأدباء اتصلوا بالخليفة بواسطة الفتح بن خاقان . وكان الفتح يحميهم ويقدمهم الى الخليفة وكثيراً ما يأخذ لهم الجوائز منه . ومن الذين قدمهم الفتح الى الخليفة المتوكل على الله شيخنا الجاحظ – كما بيناه أثناء البحث عن حياة الجاحظ بين الاتراك – وعلي بن يحيى المنجم وأبوه[1] والشاعر المشهور البحتري . اتصل البحتري أولاً بالفتح بن خاقان سنة ٢٣٣هـ ، وقد تطورت الصلة والمودة بين البحتري والفتح الى حد ان بلغت قصائده فيه تسعا وعشرين قصيدة . ومن قصائده في مدح الفتح[2] :

هل الفتح إلا البدرُ في الأفق المُضحي ⁂ تجلّى فأجلى الليل جنحاً على جنح
فتى ينطوي الحسّادُ من مكرماته ⁂ ومن مجدِه الأوفى على كمَدٍ برح
وما اقفلت عنّا جوانبُ مطلبٍ ⁂ نحاولهُ الا افتتحناهُ « بالفتح »

ومن قصيدته أيضاً في الفتح[3] :

يُبلّغني « الفتح بن خاقان » انه ⁂ نهايةُ آمالي وغاية مَطلبي
فتىً لا يرى اكرومةً لِمُزنّدٍ ⁂ اذا ما بدا اكرومةٌ لم يُعقّبِ
غدا وهو طودٌ للخلافةِ ماثلٌ ⁂ وحدُّ حسامٍ للخليفة مقضب
ان العربُ انقادت اليك قلوبُها ⁂ فقد جئت احساناً الى كل مُعرب

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٥ : ص ٤٧٤ .
(٢) راجع ديوان البحتري ج ١ : ص ٤٤٥ .
(٣) راجع ديوان البحتري ج ١ : ص ١٩٠ .

شكرتك عن قومي وقومك إنني ⁂ لسانهما في كل شرقٍ ومغرب
وما أنا إلا عبدُ نِعْمتِكَ التي ⁂ نُسبتُ اليها دون رهطي ومنصبي

وكان الفتح بن خاقان يقابل العلماء والأدباء بالجود والكرم والسخاء فلذلك كثير منهم قدّموا كتبهم اليه ونالوا منه جوائزهم، منهم شيخنا الجاحظ الذي ألف كتابه في مناقب الترك ورفعه اليه بهذه العبارة « رسالة الى الفتح بن خاقان والى عامة جند الخلافة » ووضع كتاباً آخر وقدمه اليه أيضاً وهو « كتاب التاج في اخلاق الملوك » كما ذكرنا في البحث السابق . ومن العلماء الذين صنفوا كتباً باسمه العلامة الشهير أبو جعفر محمد بن حبيب ، وقد وضع كتابه المشهور « كتاب القبائل الكبيرة والأيام » للفتح بن خاقان وقدمه اليه[1] . ومحمد بن الحارث[2] ألف له كتاباً وقدمه اليه ؛ والبحتري وضع له « كتاب الحماسة » على نهج حماسة أبي تمام[3] . وكان البحتري يقول[4] : « ركد الشعر بعد البرامكة فاهْبطهُ جود الفتح وحرّك منه فتحرّك » .

وقد صنّف الفتح نفسه كتباً في موضوعات مختلفة منها « كتاب الصيد والجوارح » و « كتاب الروضة والزهر » و « كتاب البستان » و « كتاب اختلاف الملوك » هذا ما ذكره المؤلفون .

وللفتح بن خاقان في الجود والوفاء والظرف أخبار حسان. ففي خبرابي علي البصير –وهو أحد الأدباء البلغاء وله مع أبي العيناء أخبار ومداعبات– يقول[5]: كتبت الى الفتح بن خاقان في يوم مهرجان :

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ٤٧٦ .
(٢) راجع كتاب التاج في اخلاق الملوك للجاحظ ص ٢٣ .
(٣) راجع أخبار البحتري ص ١٥ .
(٤) راجع أخبار البحتري ص ٩٥ .
(٥) راجع كتاب التحف والهدايا ص ١٥٤ .

إني جعلتُ هديَّتي ... في المهرجان اليك شكري
لما تعذَّرَ واجب ... فسَحَ التعذُّر فيه عُذري
فاذا أجزتَ على اسم مَنْ ... وافت هديته ببرِّ
فأدرِ على اسمي دارةً ... واكتب عليه طليح فقر

فضحك الفتح وقال : وقعوا على اسمه مائتي دينار وخلعة .

وفي خبر علي بن الجهم : اني لعند المتوكل يوماً والفتح بن خاقان حاضر اذ قيل له فلان النخاس بالباب . فأذن له فدخل ومعه وصيفة . فقال له الخليفة :

– ما صناعة هذه الوصيفة ؟ قال : تقرأ بالألحان . فقال الفتح :

– اقرئي لنا خمس آيات . فاندفعت تقول[١] :

قد جاءَ نصر اللهِ والفتح ... وشقَّ عنَّا الظُّلمةَ الصُّبحُ
وزيرُ ملكٍ ورَجا دولةٍ ... شيمته الإنعامُ والصَّفحُ
كاللَّيثِ إلا أنه ماجد ... كالغيثِ الا انَّه سمحُ
وكلُّ بابٍ للنَّدى مُغلقٍ ... فإنما مفتاحُه « الفتح »[*]

قال : فوالله لقد دخل المتوكل من السرور ما قام به الى الفتح فوقع عليه يقبله ووثب الفتح فقبل رجله . فأمره أمير المؤمنين بشرائها وأمر لها بجائزة وكسوة وبعث بها الى الفتح فكانت أحظى جواريه عنده . فلما قتل الفتح رثته بهذه الأبيات :

(١) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١٢٤ .
(*) الابيات بدون عزو في معجم الادباء وانشدها البحتري في مدح الفتح بن خاقان وانظر ديوان البحتري ١/٤٧٤ .

قد قلتُ للموت حين نازَله ... والموتُ مقدامةٌ على البُهَمِ
ولو تبيَّنتَ ما فعلت اذن ... قرعتَ سِنًّا عليه من ندَمِ
فاذهب بمن شئت اذ ذهبتَ به ... ما بعد فتحٍ للموت من ألمِ

ولم تزل تبكي وتنوح عليه حتى ماتت .

شعر الفتح بن خاقان

والحقيقة ان الفتح بن خاقان من ألمع الوزراء في الدولة العباسية ، وقد جمع العلم والأدب والفضل والسياسة والكياسة والذكاء والفطنة في شخصه حتى صار نابغة عصره . ويعترف حسن السندوبي بفضله ويقول فيه[١] : « كان الفتح بن خاقان أكبر رجل في دار الخلافة وكان من عظماء الدولة واصحاب المكانة والسلطان فيها . وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل » .

قلنا تميز الفتح في الأدب والشعر وله أشعار رقيقة تطرب لها الانفس ويتلذذ بها الشعور . ونحن نورد هنا بعض أشعاره التي تتعلق بالحب والوصف والعشق وغيرها نموذجاً في هذا الباب . له في وصف الورد[٢] :

أما ترى الوردَ يدعو الشاربين الى ... حمراءَ صافيةٍ في لونها صببُ
مداهن من يواقيت مركبة ... على الزمرّد في أجفانها ذهب
خاف الملال اذا طالت اقامته ... فصارَ يظهر أحياناً ويحتجب

(١) راجع أدب الجاحظ للسندوبي ص ١٤٦ .
(٢) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٨ .

ويقول في الحب[١] :

بُني الحبُّ على الجور فلو　　　انصف المعشوقُ فيه لسمُجْ
ليس يُستملح في وصف الهوى　　　عاشقٌ يحسن تأليف الحججْ

وينصح العاشق المعذب فيقول[٢] :

ايها العاشقُ المعذَّب صبراً　　　فخطايا أخي الهوى مغفورهْ
زفرةٌ في الهوى أحطّ لذنب　　　من غزاةٍ وحَجّةٍ مبروره

ومن مليح قوله[٣] :

لستَ مني ولستُ منك فدعني　　　وامضِ عني مصاحباً بسلام
واذا ما شكوتُ ما بي قالت　　　قد رأينا خلاف ذا في المنام
لم تجد علةً تجنّى بها الذّنب　　　فصارت تعتـلّ بالأحلام

ومن مستحسن أبياته[٤] :

قدرت على نفسي فازمعتُ قتلهـا　　　على غير جدّ منك والنّفسُ تذهبُ
كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يسُومها　　　ورود حياض الموت والطفلُ يلعبُ

***

(١) راجع معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩١ .
(٢) راجع معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩١ .
(٣) راجع معجم الادباء لياقوت ج ٦ : ص ١١٨ .
(٤) راجع كتاب الزهرة ص ٤٠ .

وفي الختام نرى لزاماً علينا ان نبرز نقطة هامة في حياة الفتح بن خاقان والأعمال الجليلة التي قام بها ، وهي انه كان عليماً خبيراً بادواء الدولة العباسية آنذاك ، طبيباً لها ، فان المملكة الاسلامية الممتدة من حدود الصين الى الاندلس كانت معترك الأجناس والأقوام والأديان المختلفة وربما نشأت هناك أحقاد وضغائن وثورات وفتن لأسباب دينية وسياسية واقتصادية . وبما ان الفتح بن خاقان كان دائماً يضع مصلحة الدولة وتقوية الخلافة نُصب عينيه لذلك بذل جهده لازالة أسباب الخلاف بجدّ وثبات . فقد ثار على الشيعة وحرّض الخليفة على الحدّ من نشاطهم ضد الدولة كما انه سلّط قلم الجاحظ على اليهود والنصارى حتى دمغهم بالحجج والبلاغة الكلامية فاراح النـاس من الفوضى في الفكر والعقيدة .

ثم انه حاول بكل اخلاص خلق جوّ من التفاهم والائتلاف بين القوميات المختلفة التي ربما تضاربت أهواؤها داخل الجيش ، فاستعان بقلم الجاحظ لاقناع الرأي العام بمزايا الاتراك مع الاعتراف بنصيب كل من العرب والفرس في خدمة الدولة . ولولا ان المتوكل سار على سياسة هوجاء تتسم بعدم الثقة بقوّاده الاتراك وتدبير مؤامرات للفتك بهم بعضهم ببعض ، لكان للخطوات التي اتخذها الفتح أثر محمود في التاريخ .

ولكن للأسف، تدهورت الأحوال الى ان ثار المستنصر — ابن المتوكل — على أبيه فقتله هو والفتح بن خاقان لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ بالمتوكلية[١] . ولما قتل الفتح رثاه بعض الشعراء — وهو الحسين بن الضّحاك الخليع — بقوله[٢] :

ان اللّيالي لم تحسن الى أحدٍ　　　الا أساءت اليه بعـد احسانِ
اما رأيت خطوب الدّهر ما فعلت　　　بالهاشمي وبالفتـح بن خاقانِ

(١) راجع معجم الادباء ج ٦ : ص ١١٧ .
(٢) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ : ص ٣٠٩ .

ويروي الطبري ان ابا الوارث – قاضي نصيبين – قال : رأيت في النوم آتيا اتاني وهو يقول[1] :

يا نائم العين في جُثمان يقظانِ ما بالُ عينيك لا تبكي بتهتانِ
أما رأيت صروف الدّهر ما فعلت بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

(١) راجع الطبري ج ١١ : ص ٦٧ .

مصادر الكتاب

١ – مؤلفات الجاحظ

البخلاء : تحقيق طه الحاجري . دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

كتاب البغال : (رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

التاج في اخلاق الملوك : تحقيق ابراهيم الزين وأديب عارف الزين . دار البحار ، بيروت ، ١٩٥٥ .

التبصر بالتجارة : عني بنشره حسن حسني عبد الوهاب التونسي . المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٥ .

التربيع والتدوير : تحقيق شارل بلا . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٥ .

في الجد والهزل (رسائل الجاحظ ، الجزء الأول) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

الحيوان : تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٥٨ .

ذم اخلاق الكتاب :(رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني)تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

كتاب الرد على النصارى : (مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبيد الله بن حسان على هامش كامل المبرّد) مطبعة التقدم العلمية بمصر ، ١٣٢٤ .

صناعات القوّاد : (رسائل الجاحظ ، الجزء الأول) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحدية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

فخر السودان على البيضان : (رسائل الجاحظ ، الجزء الأول) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

فضائل الاتراك (ضمن رسائل الجاحظ ، الجزء الاول) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

فضائل الاتراك : (ضمن ثلاث رسائل للجاحظ) تحقيق فان فلوتن . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٣ .

فضل هاشم على عبد شمس : (رسائل الجاحظ) تحقيق حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

المحاسن والاضداد : تحقيق فان فلوتن . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٨ .

في نفي التشبية : (رسائل الجاحظ ، الجزء الاول) تحقيق عبد السلام محمد هارون . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢ ـــ دراسات خاصة بالجاحظ

أدب الجاحظ :تأليف حسن السندوبي. المطبعة الرحمانية ، القاهرة، ١٩٣١ .

الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء : تأليف الدكتور شارل پلا ، ترجمة

الدكتور ابراهيم الكيلاني . دار اليقظة العربية ، دمشق .

الجاحظ والحاضرة العباسية : تأليف الدكتورة وديعة طه النجم . مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٥ .

الجاحظ ومجتمع عصره : تأليف جميل جبر . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨ .

الجاحظ معلم العقل والأدب : تأليف شفيق جبري . دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .

٣ ـــ مصادر عربية عامة

أخبار البحتري : تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي . تحقيق الدكتور صالح الأشتر ، دمشق ، ١٩٥٨ .

الأخبار الطوال : تأليف ابي حنيفة احمد بن داود الدّينوري . تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور جمال الدين الشيال ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (المعروف بمعجم الأدباء او طبقات الأدباء) تأليف ياقوت الرومي . تصحيح د. س. مرجليوث ، مصر ، ١٩٢٣ .

أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام . تأليف أبي جعفر محمد ابن حبيب (نوادر المخطوطات ٦) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

الاعلام تأليف خير الدين الزركلي. مطبعة كوستاس توماس وشركاه بمصر ، ١٩٥٩ .

الأغاني : تأليف أبي الفرج الاصبهاني علي بن الحسين . مطبعة كوستاس توماس وشركاه ، القاهرة .

انساب الأشراف : تصنيف احمد بن يحيى المعروف بالبلاذري (الجزء الأول) . تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ .

كتاب البدء والتاريخ : تأليف أبي زيد احمد بن سهل البلخي . تحقيق كلمان هوار ، باريز ، ١٨٩٩ .

البداية والنهاية في التاريخ : تأليف أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي . مطبعه السعادة بمصر ، ١٩٣٢ .

كتاب البلدان : تأليف أبي بكر احمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢ .

تاريخ الأمم والملوك : تأليف ابي جعفر محمد بن جرير الطبري . المطبعة الحسينية بمصر .

تاريخ ابن عساكر : تأليف أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ابن الحسين ابن عساكر . اختصار عبد القادر افندي بدران ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٣٠ .

تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن (ثلاثة أجزاء) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية : تأليف الدكتور أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

تاريخ بغداد : تأليف ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي . مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣١ .

كتاب بغداد: تأليف أبي الفضل احمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور .

تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري وعزّت العطّار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٩٤٩ .

التحف والهدايا : تأليف ابي بكر محمد وابي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين. تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٦ .

تاريخ الترك في آسيا الوسطى : تأليف ف. بارتولد ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان . تحقيق ابراهيم صبري ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٥٨ .

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار : تأليف م. م. الرمزي (جزء ٢) . مطبعة الكريمية والحسينية ، اورنبرغ ، ١٩٠٨ .

تاريخ التمدن الاسلامي : تأليف جرجي زيدان . تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، دار الهلال بمصر ، ١٩٥٨ .

التنبيه والاشراف : تأليف ابي الحسن علي بن الحسين المسعودي . تحقيق عبدالله اسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

جامع التواريخ : تأليف رشيد الدين فضل الله الهمذاني (جزء ٢) ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد . تحقيق يحيى الخشاب ، دار احياء الكتب العربية بمصر ، ١٩٦٠ .

جوامع السيرة وخمس رسائل لابن حزم : تأليف ابي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم . تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عبّاس واحمد شاكر ، دار المعارف بمصر .

حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول : تأليف الدكتور شكري فيصل . مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٢ .

تاريخ الحضارة الاسلامية : تأليف ف. بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٢ .

تاريخ الخلفاء : تأليف عبد الرحمن السيوطي . تحقيق محمد عبد المتين ، مطبعة المجتبائي ، دهلي ، ١٣٤٥ .

ديوان ابراهيم بن العباس الصولي (الطرائف الأدبية) تصحيح الاستاذ عبد العزيز الميمني . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

ديوان الأعشى : تحقيق ر . جاير . مطبعة أدلف هُلزهوسن ، بيانة، ١٩٢٧ .

ديوان البحتري : تحقيق حسن كامل الصّيرفي (جزء ٢) . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق عبده عزام (جزء ٣). دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ .

ديوان ابن الرومي : شرحه محمد شريف سليم (جزء ٢) . مطبعة مصر .

ديوان دعبل بن علي الخزاعي: تحقيق الدكتور عبد الكريم الاشتر. دار الفكر بدمشق .

شرح ديوان صريع الغواني : تأليف مسلم بن الوليد الانصاري . تحقيق الدكتور سامي الدهان . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ .

الذخائر والتحف : تأليف القاضي الرشيد بن الزبير ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الكويت ، ١٩٥٩ .

رسالة ابن فضلان : تأليف احمد بن فضلان بن العباس بن ارشد بن حمّاد. تحقيق الدكتور سامي الدهان ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٦٠ .

الزهرة : تأليف ابي بكر محمد بن ابي سليمان الاصفهاني . تحقيق الدكتور لويس نيكل البوهيمي . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٣٢ .

زهر الآداب وثمر الألباب : تأليف ابي اسحاق ابراهيم بن علي الحصري

القيرواني . تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

السيرة النبوية لابن هشام : تحقيق مصطفى السّقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٥٥ .

شذرات الذهب في اخبار من ذهب : تأليف ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي . مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ .

الشعر والشعراء : تأليف ابن قتيبة . تحقيق احمد محمد شاكر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٤ .

تاريخ الشعوب الاسلامية : تأليف كارل بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٣ .

شرى الرقيق وتقليب العبيد : تأليف ابي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون (نوادر المخطوطات ٤) تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

صلة تاريخ الطبري : تأليف عريب بن سعد القرطبي . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٧ .

ضحى الاسلام : تأليف احمد امين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ .

طبائع الحيوان (ابواب في الصين والترك والهند) : تأليف شرف الزمان طاهر المروزي . تحقيق ف. منورسكي ، لندن ، ١٩٤٢ .

طبقات الشعراء : تأليف عبد الله ابن المعتز . تحقيق عباس اقبال ، لندن ، ١٩٣٩ .

طبقات فحول الشعراء : تأليف محمد بن سلام الجمحي . تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر .

ظهر الاسلام : تأليف احمد امين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

العبر في خبر من غبر : تأليف الحافظ الذهبي . تحقيق الدكتور صلاح المنجد، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٦١ .

العقد الفريد : تأليف ابي عمر احمد بن محمدبن عبد ربّه الاندلسي (٧ أجزاء) تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

عيون الأخبار : تأليف ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تحقيق احمد زكي العدوي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

فتوح البلدان : تأليف ابي العباس احمد بن يحيى بن جابر البلاذري . تحقيق عبد الله انيس الطبّاع وعمر انيس الطبّاع ، بيروت ، ١٩٥٨ .

فجر الاسلام : تأليف احمد امين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ .

الفخري (في الآداب السلطانية والدول الاسلامية) : تأليف محمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى. مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

فوات الوفيات : تأليف محمد بن شاكر بن احمد الكتبي . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ .

الكامل في التاريخ : تأليف ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير . تصحيح الاستاذ عبد الوهاب النجار . ادارة الطباعة المنيرية بمصر ، ١٣٥٧ .

الكتاب المقدس . بيروت ، ١٩٠٣ .

المحبّر : تأليف ابي جعفر محمد بن حبيب . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ، ١٩٤٢ .

المختصر في أخبار البشر : تأليف عماد الدين اسماعيل ابي الفداء . المطبعة الحسينية بمصر ، ١٣٢٥ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ : تأليف ابي الحسن علي بن الحسين المسعودي . دار الطباعة العامرة ، بولاق ، ١٣٨٣ .

مسالك الممالك : تأليف ابي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٢٧ .

المسالك والممالك : تأليف ابن خرداذبة . مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٦ .

تاريخ مصر الحديث : تأليف جرجي زيدان. مطبعة المقتطف بمصر، ١٩٨٨ .

المعارف : لابن قتيبة . تحقيق ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة، ١٩٦٠ .

لطائف المعارف : تأليف الثعالبي ابي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل. تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي . دار احياء الكتب العربية بمصر، ١٩٦٠ .

معجم البلدان : تأليف ياقوت الرومي . دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٥ .

معجم الشعراء : تأليف ابي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى . تحقيق عبد الستار احمد فراج . دار احياء الكتب العربية بمصر ، ١٩٦٠ .

معجم المطبوعات العربية والمعرّبة : تأليف يوسف اليان سركيس . مطبعة سركيس بمصر ، ١٩٢٦ .

معجم المؤلفين : تأليف عمر رضا كحالة . مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٧.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : تأليف ابن تغري بردي الأتابكي . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٠ .

نهاية الأرب في فنون الأدب : تأليف شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري . القاهرة ، ١٩٢٣ .

الوزراء والكتاب : تأليف ابي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري. تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

وفيات الأعيان : تأليف ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ابن خلكان . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين : تأليف اسماعيل باشا البغدادي . المطبعة البهية ، استانبول ، ١٩٥١ .

٤ ـ مصادر تركية

Bugünkü Türkili Türkistan ve Yakin Tarihi; A. Zeki Velidi Arkadas Basimevi, Istanbul, 1947.

Türkiye Tarihi; N. Yilmaz Oztuna. Hayat Matbaasi, Istanbul, 1963.

Resimli Türk Edebiyati; Nihad Sami Banark yedigün Nes., Istanbul.

Turkiyat Mecmuasi. Istanbul Universitesi.

ديوان لغات الترك : تأليف محمود بن الحسين بن محمود الكاشغري . مطبعة عامرة ، استانبول ، ١٣٣٣ .

عثمانلي تاريخي (مدخل) محررلري : نجيب عاصم ، محمد عارف مطبعة اورخانية ، استانبول ، ١٣٣٥ .

٥ ـ مصادر انجليزية

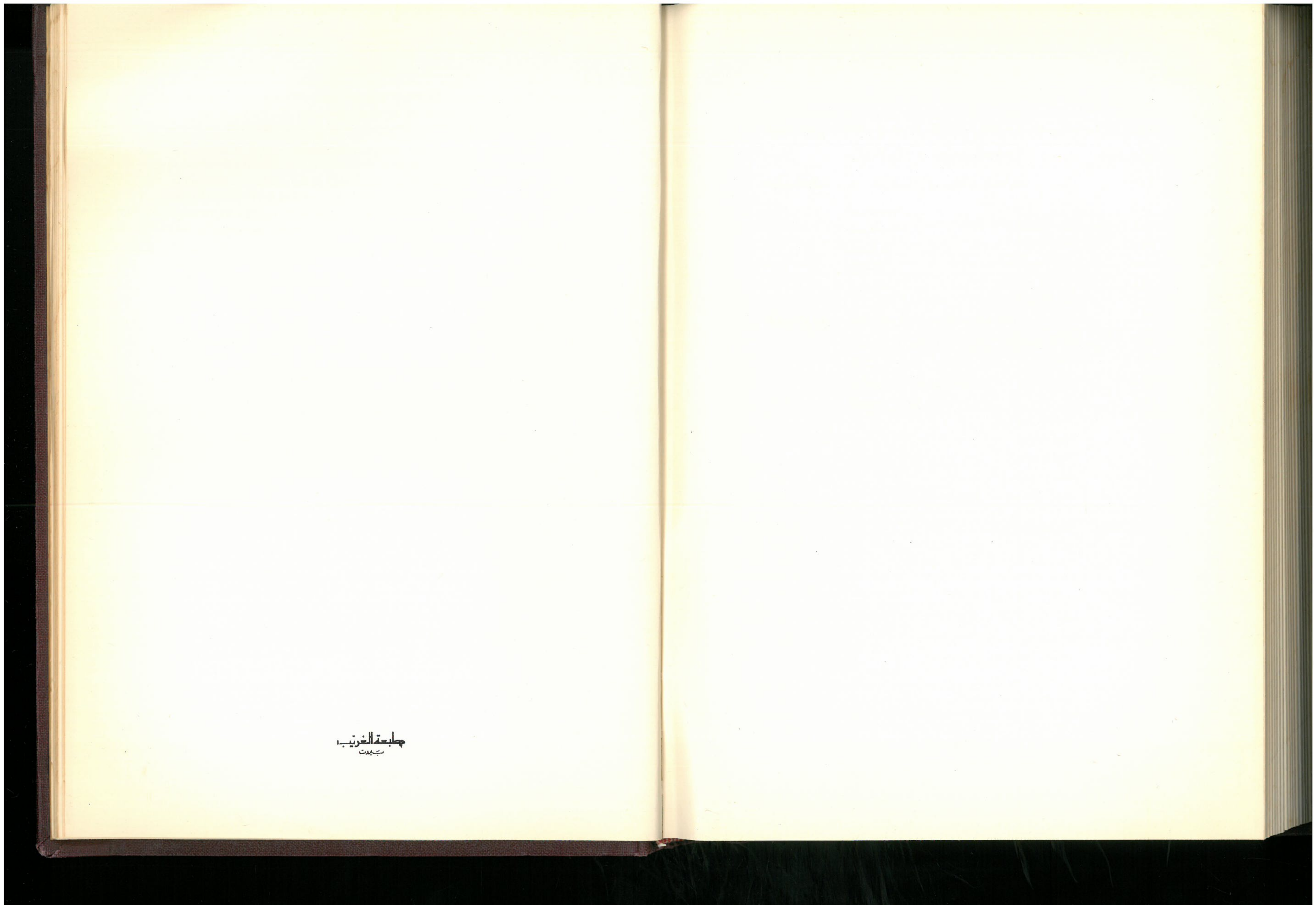
Among Arabic Manuscripts : I. K. Kratchkovsky. E. J. Brill, Leyden, 1953.

History of the Arabs : Philip K. Hitti, London, 1960.

Encyclopaedia of Islam. E. J. Brill, Leyden, 1934.

Journal of the Royal Asatic Society (London).

الفهرست



مطبعة الغريب
بيروت

achievements of the West in the field of Orientalism. The assimilation of modern methods of research, which the new development facilitated, had a very beneficial and revitalising effect upon Arabic scholarship in the country. But there always remained something exotic about orientalism as if the Orientals themselves looked upon Oriental studies from outside like the occidentals. The Indian and Pakistani products of the western system of education did not feel Arabic as their own and did not acquire an intimate and deep insight into its high literature. They only knew a great deal of the western authors' assessment of it. I shall be extremely happy if the present work is rated as a piece of *al-Arabiyyah* rather than of Orientalism.

S. M. Yusuf

Department of Arabic,
University of Karachi.
15 March, 1972.

ACKNOWLEDGEMENT

It is a matter of pleasure and pride for me to introduce to the scholars of Arabic literature and Islamic history the work of my learned pupil and friend, Dr. Zekeriya Kitapchi, on the achievements of the Turks in the military service of the Abbasid empire and their contribution to the progress of Arab culture and civilization. The study has been undertaken with special reference to the works of al-Jahiz set in the full perspective of Arab-Turkish contacts from the early days of Islam.

The religion of Islam as a political and cultural force facilitated the comingling of different peoples in an egalitarian social fabric in a way which remains unique in the history of mankind down to our own day. For obvious reasons the Arabs dominated the multinational Islamic society till the end of the Umayyad period. The rise of the Abbasids signified the assertion by the Persians of their active and powerful role in running the state and diffusing literary and cultural trends. It did not take long for the ruling Caliphs to enlist the Turks to bolster up their fast decaying authority and to restore stability to the empire threatened with strife and confusion caused by the inordinate ambitions of an effete Arab aristocracy and a talented and clever Persian bureaucracy. By that time the sterling qualities of character which distinguished the Turkish soldiery were well known and eagerly sought for.

The entry of the Turks as the mainprop of the government to offset both the Arabs and the Persians was in the very nature of things resented. The quick ascendancy of the Turks at the court — achieved of course, with force rather than diplomacy — built up the prejudice against them. No wonder that their virtues were given just a niggardly treatment. In particular, it was not fully appreciated that the Turks did not lag behind any other non-Arab Muslim people in accepting and owning the Arabic language and serving its cause as best as they could. In modern times the eruption of Arab nationalism in the face of Ottoman rule has only resulted in further misrepresentation of the role of the Turks in Islamic history. Unfortunately, Turkish nationalism has also retaliated with openly breaking away from the Arabic language and script. Nevertheless it remains the task of the scholars to set the historical account straight.

Al-Jahiz is an outstanding and enchanting personality in Arabic literature. He is a naturalist, a humainst, a humorist and a stylist — all of the first order and combined together. He was a keen observer of the traits of the various peoples and appreciated them with a catholicity of mind rare in his own time as also in the present time, when the entire world is plagued with the doctrine of hatred called nationalism. He alone had the moral courage to make amends for the injustice done to the Turks with regard to their services to the Empire and their rightful place in the mosaic of Islamic society, and I was struck by the need for projecting this aspect of al-Jahiz's works.

It was a delight for me that a young Turk (Zekeriya Kitapchi) devoted to Arabic studies joined me for research. His interest in the subject was deep and spontaneous. He worked hard on the thesis which has been commended by scholars of the stature of Allama Abd al-Aziz al-Maimani and Dr. M. Hamidullah. It was accepted for the award of the degree of Ph. D. in Arabic Language and Literature by the University of Karachi. I trust its publication will be welcomed by all the scholars concerned with the subject.

With the introduction of the British system of education to the Indo-Pakistan sub-continent, the oriental departments in the universities were turned into a show-window of the

Gradually these Turks became so powerful that they began to make and unmake Caliphs. Therfore there is no exaggeration in the following verse that has been stated in connection with the Turkish position in the Abbasid society :

« أصبح الترك مالكي الامر والعا لم مـــا بـــين سامع ومطيع »

« The Turks became the owners of everything (in the Caliphate Countries); the rest of the people were either listeners (to their orders) or submissive (to their will)[13]».

The great Arab Scholar, thinker, and impressive Prose writer al-Jahiz also wrote in this period his very fine book called « فضائل الاتراك » (THE SUPERIOR QUALITIES OF THE TURKS) and explained the Turkish racial national and military characteristics and peculiarities, about which we tried to give a whole account, also the position of the Turks in the different fields, in our book that is presented in Arabic.

Zekeriya Kitapchi

Erzurum
3. 3. 1972

REFERENCES

1 — See "Turkiya Was-Siyasat-Ul-Arabiyyah" pp. 5, 6, 7, Egypt 1955.

2 — "The Middle East and West": p. 19, B. Lewis, London.

3 — "Islam Medeniyeti Tarihi" (introduction), Barthold, Ankara, 1963.

4 — "History of the Islamic Peoples" p. 163, C. Brockelmann, London, 1959.

5 — "The Emergence of Modern Turkey," p. 325, B. Lewis.

6 — "The Middle East and West," p. 20, B. Lewis, London.

7 — "The Middle East and West," p. 20, B. Lewis, London.

8 — "The Encyclopaedia of Islam," p. 6/900, Leiden.

9 — "Orhon Abideleri" pp. 2, 3, 9, 10. Muharrem Ergin, Istanbul, 1970.

10 — "Tarih-al-Umam wal-Muluk," p. 4/263, Al-Tabari, Egypt.

11 — "Koran Surah al-Maida" ayet no: 54.

12 — "The Middle East," p. 6, Sir R. Bullard, London.

13 — "Murug-az-Zahab," p. 2/336, Al-Masuudy, Egypt, 1383.

As it has been pointed out several times in this introduction the Turks were, for many centuries, the main element in the Middle East to give a direction to the destiny of the different nations. But we do not know exactly when they arrived in the Arab Countries and their early History there.

Probably the geographical conditions were the basic reason for this obscurity. Because it was genarally accepted that the homeland of the Turks was in Central Asia while the Arabs were in the Arabian Peninsula. So it was not possible for these two nations of such great distinction to come into contact with each other in their long history with the exception of the invasion of the Arabs to Transoxania or Turkestan.

In spite of these geographical factors and the absence of economic and social ties, that played a very negative role in evaluating the normal relations between the Arabs and Turks, we can find many indications about some Turks who reached Arab major cities by several ways as early as the beginning of Islam, mainly as slaves.

When the Arabs started to conquer Turkestan under the command of Qutayba b. Muslim and began their offensive movements against the Asiatic Turks, particularly at the beginning of the Omayyad Period, in spite of the strong prohibition of the Caliph Omar, it was natural as a result of these aggressions that many Turkish slaves, whether male or female, came down to the big Arab Centres like BASRA, BAGHDAD, DAMASCUS and even to MEDINA.

These Turks were not all simple peasants. Among them there were also many noble people such as princes, or even Kings, who were offered as gifts to the Caliph of the Muslims, whether in Damascus or later on in Baghdad.

The Arab Statesmen, when they came to Khorasan as governer genarals, according to their own customs, first of all they were preparing the army and starting to assault the richest Turkish cities such as Bukhara, Baykent and Samarkand... etc.

The Arabs conquerors, by these continuing invasions upon the cities of Turkestan, usually defeated the Turkish resistance units and destroyed the towns on one hand while on the other hand they were getting countless amounts of gold and silver and so on, which is called booty in the Islamic references.

However, the disorganised Turkish local tribes suffered much and always got heavy casualties during their terrible struggle against the well equipped Arab soldiers.

Beside this huge booty they captured many Turks as slaves and took them to the capital cities in the wide Arab territories. We know that a large number of these Turkish slaves succeded in raising their social position within a short time and occupied strategic places in the administration. They also showed their superior qualities among the other slaves in state affairs particularly in the military field as well as in the literary one. Among them we can take as examples: Afshin, who was the Commander in Chief of the Caliphate Army, Fath b. Khaqan, who was a great statesman and reformer, also al-Khuraimy who was a great poet of the Arabic language and a respectable man of letters.

* * *

The Umayyads were overthrown and replaced by a new dynasty, the Abbasids (750-1258), who established themselves in Iraq instead of Syria, and founded Baghdad as their new Capital. With the Abbasid Dynasty a new era started for the Turks, whether in Baghdad or in Turkestan.

Particularly at the time of Mutasim, the famous Abbasid Caliph, the way to felicity, prosperity and greatness was opened for the Turks in the government especially in the military fields. Having Turkish blood on his mother's side and the deepest admiration for his ancestors, he invited many strong, healthy and pure-blooded Turks, beside the noble families from inside CENTRAL ASIA and founded a magnificent army and employed them in the most significant positions.

history, spread all over the world from their native land, the ARABIAN PENINSULA with a new inspiration and a new faith.

Beside their brilliant victories in the West and North Africa, they conquered the magnificent Persian State by incredibally quick sweeping wars and, also advanced to Transoxania (Ma Wara' Al-Nahr).

Within a short period, they started, under the Command of Ahnaf b. Qays, to knock the doors of the Turks under the second Caliph Omar in 642 A.D. if the Caliph had allowed them to do so. But, as far as we know, the Caliph protested strongly and prohibited Ahnaf to attack the Turkish territory.

According to the great historian Ibn Jareer al-Tabari, when the news reached the Caliph about the preparation to invade TURKESTAN, he wrote a letter immediatly to the Commander of the Eastern front, Ahnaf, and said that :

« اما بعد فلا تجوزن ّ النهر واقتصر على ما دونه »

« Next, don't cross the river (Oxus, on to the Turkish side); stop beyond that. »(10)

We do not want to discuss why the Caliph gave such an order to his commander, but later events showed how much the great Caliph Omar was sagacious in the affairs of state.

So the world was preparing to observe a new wrestling in the steppes of Central Asia, the fatherland of the Turks. The heroes of the desert coming from such a great distance were fighting the brave and proud but disorganised and scattered people of Asia.

These struggles continued for nearly half a century which would be the turning point not only in Turkish and Islamic history but also in the History of the peoples of the world.

During their period in Turkestan, movements started, particularly with Qutayba b. Muslim, a well knowen arab commander and conqueroer of Transoxania; the whole Arab commanders were fighting against these unlucky disintegrated scattered Turks and consequently defeating them very badly.

But this was not the final victory for the Arabs to maintain their absolute rule and their sovereignty in Ma Wara al-Nahr and their hegemony upon the Turks.

It was only the transition of the Divine Task to the iron hands and the transfer of duty to its real master. Because the Holy Koran says:

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

« O ye who believe, if any from among you turn back from his faith, soon God will produce a people whom He will love as they will love Him. Gentle with believers, mighty against the rejecters, fighting in the way of God and never afraid of the reproaches of such as find fault. That is the Grace of God which He will bestow on all those whom he pleaseth and He knoweth all things. »(11)

In fact the promise of the Holy Koran soon became true, although the Arabs, through the Arabic Language and the Religion of Islam, gave a homogeneous basis to the vast area of their conquest including Turkestan.

Later on it was left to a central asiatic people, the Turks, to build a unified political system on this basis. The Turks entered the Islamic World successively as slaves, mercenaries, condottieres and adventurers and eventually they became rulers.(12)

* * *

Moreover, the Arabs succeeded in maintaining their rule and administration in Turkestan as a consequence of these continuing wars. But the Turkish migration to the Arab Capital and their appearance in the government and military administration became possible in later periods.

the new struggle that is called Jehad in our religious books.

Naturally they became like a sharp sword for defending its Divine Principles against the nonbelievers and protecting its borders and Holy Lands against its enemies for centuries with their own blood.

In fact the Turks, after adhering to the community of the Muslim People, by time rose above them and became the only dominant figures in the political and social ways of life in the Muslim World.

They played a very important role for a millennium as a fighting power in the old continents of Asia, Africa and Europe against the eternal enemies of these wide territories.

This fact has been pointed out by many Eastern and Western scholars in their interesting books. While explaining the positions of the Turks in the Muslim Countries, B. Lewis says that :

« *Almost everywhere else in the Middle East the Turks, though a minority, formed the ruling element. Even in Persia, Syria and Egypt, even as far away as Muslim India, the ruling dynasties were Turkish, the armies were Turkish, even when the overwhelming mass of the population were not. Through a millennium of Turkish hegemony, it came to be generally accepted that Turks commanded while others obeyed, and a non-Turk in this authority was regarded as an oddity.* »(6)

It may be noted with great satisfaction that the Turks, as pointed out by several other writers in their valuable books, did not remain only defenders of Islam and its wide territories as conquering armies but :

« *A new social system with new social values took the place of the traditional society particularly in the cultural fields after joining the Turks to Islam.* »(7)

Therefore, in this English introduction to the Arabic book entitled « THE TURKS IN THE WORKS OF AL-JAHIZ AND

THEIR POSITON IN ISLAMIC HISTORY », we intend to give to our readers a survey of the peculiarities and the position of the Turks in Islamic History.

***

In fact we know nothing about their very early history except for some semi-religious indications and national epic or mythology.

Moreover we have a clear identification about the TURKS (also the word « TURK »), who founded a national state absolutely based on the well known Turkish military spirit in Central Asia in the sixth century and that is mentioned in our national references by the name of « GOK - TURKLER ».

According to these national references and to the « Orkhon Inscriptions » discovered in their fatherland, the founders of this powerful national state were two brothers. They extended their domination from Mongolia and the northern frontiers of China to the Black Sea.(8)

The founder of the Eastern State, Bumin Khan died in 552 A.D. His brother Istame Khan, who had subjugated the west, survived him by almost a quarter of a century.

Unfortunately the Tang Dynasty of China overthrew the Eastern state around 630 A.D. and the Western State around 659 A.D., with the help of harmful intrigues which were successfully created among the Turkish tribal chieftains especially on their border lands. There are bitter complaints about these double-faced wicked activities of well-knowen Chinese people in the very lines of the Orkhon Inscriptions.(9)

After the decline of this national state, these Asian Turks faced two important dangers from their neighbours. Their already weakened sovereignty was menaced by their eternal enemies, China in the East and the Arabs in the West.

Actually the Arabs, after completing their religious faith and unity by the grace of Islam, for the first time in their long

These Baghdadi Turks were replaced by the Great Seljuk Turks, and later the Ottoman Turks appeared in the Muslim countries, and took over power in the greatest part of the Muslim world. The same truth was repeated by B. Lewis. As he said :

« The Turks at first came into the Middle East as soldiers and as individuals and soon predominated in the Armies of Islam. In the eleventh century they came as conquerors and colonists and set up a new empire in the heart lands of Islam with its center in Persia. »[2]

Gradually the Turks got the destiny of the Muslim People for a millennium in their hands; therefore we sincerely share in the idea stated by the eminent Turkish Scholar Prof. Dr. Fuad Köprülü when he said that :

« Since they embraced Islam, a very big part of Turkish History, during one thousand years can be studied only within the framework of Islamic History. During this long period the Turks, like any other people, served the development of the great cultural circle that can be called Islamic Civilization. So it is impossible to understand Islamic History — and make clear some of its problems — without the understanding of the General History of the Turks. »[3]

Moving on from this starting point it is necessary for us to say a few words about some aspects of the Turks and their historical evolution.

In fact the people called the « Turks » in History date from very early times. They came into existence in Central Asia, and appeared in periods of history after completing their national and racial characteristics. While explaining the origin of the Turks, C. Brockelmann says that :

« Between the inhabitants of Tibet and China in the east, the Paleo-Asiatic (Sibirid) race in the north, and the Finno-Ugrian peoples in the west, the Turkish People, on the broad Plains of southern Siberia and the steppes between the Caspian

Sea and the Altai Mountains, had emerged out of a racial and linguistic community which in primeval times may also have comprised the Mongols and Tungus. They were often led by great ruling figures such as have arisen among the leaders of minor patriarchally organized nomadic groups, and are encountered again and again in the later history of these regions. At their entry into history, as they perssed forward from the slopes of Tien - Shan out into the Central Asiatic steppes they already bore wellmarked ethnic traits designated by anthropologists as Turanian. »[4]

As already mentioned above, the Turks, particularly after entering into history, founded many states and world wide empires in the different parts of the world and played a leading role in the political and social life of the different peoples living in three continents. Consequently these mixed people influenced each other in the cultural, traditional and religious fields.

Beside these very deep influences that happened often in their way of life in the early History of the Turks they passed also several transitions while they were joined to Islam.

After completing its spread among the Turkish clans in Central Asia without any foreign pressure, the Islamic religion made radical reforms in the social and cultural fields of the lives of these brave nomadic people and tremendous changes in their structure. This fact is also clearly explained by Bernard Lewis. He says :

« Turkish converts to Islam, as has already been noted, identified themselves completly with their new faith and seem to have forgotten their separate Turkish past with astonishing rapidity and completeness. »[5]

What is astonishing, is that within a short period of time, the Islamic Religion absorbed the whole of the spiritual and material values of the Turks, and gave them a new face for a new personality. It transformed the Turkish social structure and the Turks' national characteristics and prepared them for

INTRODUCTION

Islamic History is not concerned with only one people such as the Arabs; it is the history of several nations which bore its flag fearlessly from Morocco in the west to Jakarta in the east.

Being a nation which produced such a great man as the Holy Prophet Muhammed, for whom it is very difficult to find a precursor in human history, also having brought the Islamic Faith with continuous victories to almost every corner of the world known then, the ARABS occupy an important position in the history of the Muslim People. Later on Persians embraced Islam and served the progress of the common Islamic Culture and Civilisation in many ways. Again, with the conquest of Transoxania by the Arabs, a new nation with a strong national sovereignty started to appear on the scene of Islamic History. This new nation was that of the TURKS.

The Turks, particularly after they started to move to the Muslim major cities, opened a new era in the life and the history of several Muslim Peoples, that can rightly be called « THE PERIOD OF THE TURKS IN ISLAMIC HISTORY ».

Yes, There is no doubt that they come into existence from Samarkand, and Bukhara as was impressively explained by the late Gamal Abd al-Nassir[1], and marched to Baghdad, the flourishing city of Muslim Civilization, at the time of the Caliph al-Mu'tasim, and acquired a strong position in the Army of the Caliphate. When the time of al-Mutawakkil came, they reached their zenith in the Abbasid Period.

The Turks in the Works of al-Jahiz

and

Their Position in Islamic History

By

Zekeriya KITAPCHI

Ph. D., Karachi University
Lecturer at the Faculty of Islamic Sciences
Ataturk University (Turkey)

Dar Assakafa

1972